إفتتاحية

أن يصدر اتحاد الكتاب التونسيين مجلة ناطقة باسمه ، مكونة مساحة لبسط آراء اعضائه : إبداعا وبحثا ، تطلعا ودرسا ، فذلك أمل راود اعضاءه منذ أن تكوّن وانبعث جمعية ثقافية وطنية ، تضم الشتات ، وتحفز الهمم نضالا من أجل القيم ، وعملا في سبيل الأفضل . وظل هذا الأمل مراودا ملحا دون أن يكتب له الانجاز لأسباب عديدة في طليعتها قضية النشر ، وضعف الامكانات ، ووهن العزيمة - إذا كنا صرحاء مع انفسنا - اضافة الى منزلة الكاتب والثقافة في مجتمع التخلف ، والنظرة الحولاء إلى الثقافة ورسالة المثقف في هذا النمط المجتمعي .

وإنه لمن حسن الطالع أن يكتب لهذه المجلة « مجلة المسار » الصدور في عهد جديد ، نادى بالتغيير ، ودعا الى الانقاذ وما تلاه من خطوات جريئة بناءة أزالت الكبت ، واطلقت الحريات ، وجمدت العنف ، ووضعت أسس الديمقراطية ، واحترام القيم ، وكرامة الانسان .

وكان من ألصق تلك الخطى بهذه المجلة ، والثقافة بصفة عامة ، ما جاء في بيانات السيد زين العابدين بن علي رئيس الجمهورية بخصوص الهوية الوطنية ، وحرية التعبير ، وتوفير مناخ الاطمئنان للابداع والمبدعين . وكان إذنه السامي برفع الحجز عن كتب ممنوعة من الرواج في خريف العهد السابق ، بشائر أولى حققها العهد الجديد مما ناضل في سبيله اتحاد الكتاب التونسيين بما له من امكانات وما توفّر له من وسائل .

واتحاد الكتاب التونسيين يؤكد من جديد ما ألح عليه ماضيا وحاضرا من ضرورة تشريك المثقفين في مسيرة التنمية وقافلة التطور ، وأن يقصى التهميش والصورة الغائمة الذان كان المثقف محجبا بهما عن نظرة التقدير ، وكفاءة التحمل للمسؤلية . وذلك يعني أن المثقف لا ينبغي أن يكون قعديا مقعدا ، بل عليه أن يكون عاملا فعالا ، ومن دون ذلك لا يحقق رسالة ، ولا يكون جديرا بالمنزلة التي تناسبه أو يطالب بها .

لقد كانت حكمة بليغة مقولة رئيس الدولة عندما قال : « التغيير لا يعطى » . وتلك حكمة تحدّد - فيما تحدّد - المسؤولية المشتركة بين السلطتين السياسية والثقافية .

وهي مسؤولية دقيقة جدا كثيرا ما شابها الاعتساف والتشاكس منذ قديم العصور . والعيب لا يكمن في اختلاف لابد منه ، بل يكمن في تجاوز كل من السلطتين . إن التناقض الايجابي يولد الطاقة ، فعلى طرفيها أن يعتبر كل منهما متمما للآخر ولا غنى له عنه فلا غطرسة النفوذ أو شعوذة التخيّل ، ولا افراط في الحكم أو غوغائية الارشاد . ومتى حصل التناقض الايجابي المنشود أمكن التوصل - قدر الامكان - الى الحل الملائم . والتناقض الايجابي - كان وما يزال - أساس الحياة وإكسير الوجود .

نحن في عهد التغيير - دون شك - وأعسر أنواع التغيير تغيير ما بالطبع . وذلك هو المقصود في المقولة النبوية « الجهاد الأكبر » . فلنغير نظرتنا المتخلفة الى الثقافة ، ولنؤمن بأهميتها الكبرى في بناء الانسان ، ولنقدر العاملين بصدق فيها ، ولنوفر لها من الامكانات ما يتلاقى مع رسالتها السامية .

نحن في بداية عهد جديد فلنقدم عليه بتجديد أنفسنا وتغيير ما بها حتى يغير الله ما بنا .

« المسار »

الأدب التونسي وصداه في الشرق
(قديما وحديثا)

أبو القاسم محمد كرو

من عيون الكتب المغربية ، التي الفت للدفاع عن الأدب والأدباء في الأندلس والمغرب ، ولاعلاء شأنهم وابلاغ صوتهم وبيان فضلهم وعالي مكانتهم لدى المشارقة ، كتاب « المطرب من اشعار أهل المغرب »[1] الذي الفه أبو الخطاب عمر بن حسن الشهير بابن دحية[2]

وابن دحية توفي في القاهرة عام (633 / 1235) أي في الثلث الأول من القرن السابع .. هذا القرن الذي شهد أكبر عدد من المؤلفات المغربية واكثرها أهمية ومكانة في تاريخ الأدب . وكلها تقريبا ، وهي تبلغ العشرات ـ فضلا عما جاء قبلها ـ يمكن ان تدرج في هذا السياق ... سياق المنافسة والمنافحة بين ادباء المغرب وادباء المشرق .

يقول الاستاذ ابراهيم الابياري ـ وهو من اهم المعاصرين المصريين عناية بتراث المغرب والأندلس ، واكثرهم معرفة بـه وتحقيقا لنصـوصه وانصـافا لأهله ـ يقول في تقديمه للكتاب ، وشرح الدواعي الحقيقية لتأليفه :

... في الكتاب أكثر من إشارة ، تعبر في صريح عبارة ، عن علم الرجل باهتضام المشارقة للمغاربة ، وانزالهم في الأدب منزلا غير لائق ، والغض من شأنهم الفائق ...

« وهو في ذلك إما نازع منزع غيره من مغاربة سبقوه ، أو مصدر عن خاطر يحدوه ... »[3]

هكذا ـ إذن ـ يتصدى للمشارقة إبن دحية المغربي رغم أنـه كان يعيش بينهم في كنف ورعاية تلميذه الملك الكامل الأيوبي ، الذي أسس لشيخـه في القاهرة وبنى خصيصا له المدرسة الكاملية ، وهي ثاني مدرسة تأسست في الاسلام لتدريس الحديث

والقاهرة كانت ، في هذا التاريخ وفي كامل القرن السابع ، تعج بالمغاربة ، علماء وأدباء ، حجاجا وطلبة ، تجارا وموظفين ، حتى لتكاد الحياة العلمية والأدبية فيها أن لا تقوم إلا عليهم .

وكانت للأيوبيين علاقات خاصة مع المغاربة منذ عهد صلاح الدين وحتى نهاية حكمهم . ولعل ذلك كان استمرارا للعهد الفاطمي ، الذي قام كله - عسكريا وثقافيا واداريا واقتصاديا - على المغاربة وحدهم .[5] .

ففي عهد الملك الكامل (615 - 635 هـ)[6] فقط كان عشرات الافذاذ المغاربة - تونسيين وأندلسيين وغيرهم - يزخر بهم بلاطه وتزدهر بهم مدارس *القاهرة العلمية ومحافلها الأدبية* .. ومن بينهم *احمد بن يوسف التيفاشي*[7] والمكرم[8] الانصاري الباجي والد ابن منظور مؤلف لسان العرب[9] وابن دحية[10] وابن سعيد المغربي[11] وجميع هؤلاء كانوا سفراء وأصواتا عالية للأدب الافريقي والأندلسي في الشرق ، طوال القرن السابع ... فكيف كان الحال بعده الى اليوم ، بل وكيف ظهرت القضية في القرون السابقة ؟

منذ البداية - بداية الاسلام والعروبة في المغرب - قامت حساسيات ومواقف معقدة بين المشرق والمغرب ... لعل ابن حزم[12] عبر عن واحد منها حين أعلن بلسان معاصريه[13] :

أنا الشمس في جو العلوم منـــــيرة
ولكن عيبي أنّ مطلعــــي الغرب

وقد ظن أكثرهم أن في قولة ابن حزم أحد ردود الفعل المغربية وصوتا من أصوات الاحتجاجية التي جاءت كجواب صارخ على ما أعلنه الصاحب بن عباد - وقد تصفح كتاب « العقد الفريد » لابن عبد ربه - قائلا : « هذه بضاعتنا ردت الينا »[14] وما وصف به ابن حوقل أهل الأندلس وبلادهم من صفات لا تشرف[15] وما أعلنه المعري عن شعر ابن هانيء بأنه أشبه برحى تطحن قرونا لما فيه من القعقعة .[16] .

والغريب هنا أن المغاربة اعتبروا تلك الأقوال إستنقاصا لأدبهم وتحقيرا من شأنهم ... والحال أنها مجرد آراء شخصية لا تمثل إلا أصحابها ... مع العلم أنها في أغلبها آراء سليمة وصحيحة . ؟ فالصاحب ابن عباد كان يتشوّف إلى معرفة الأدب الذي أبدعه المغاربة ، بداية من القيروان وانتهاء بالأندلس فاذا العقد الفريد يضع بين يديه نصوصا وأدبا مشرقيا .. فماذا عساه أن يقول أو يعلق ؟ والمعري لم يلتفت إلى دواعي الشعر عند إبن هانى ، وهو شاعر مشحون بالعقيدة الاسماعيلية[17] وبظروف الصراع المذهبي والسياسي والعسكري في مواجهة خصوم الدولة الفاطمية وأعدائها الكثيرين في المشرق والمغرب ، فجاء شعره - لذلك كله - شعر حماسة ومناضلة عن العقيدة والدولة. ولم يهتم المعري بأي شيء من ذلك لأن ذوقه الشعري قد صدمته جلبة الألفاظ وجرسها المصم .[18] .

وقد التجأ المغاربة بعد ذلك ، وخاصة منهم أهل الأندلس ، الى التحلي بألقاب الشهرة المشرقية ؛ فكان لهم أيضـا بحتري ومتنبي ومعـري ... ولكنهم سرعان ما أدركوا أن في هذا ما يزكي تهمة التقصير والتقليد[19] فتحولت ردود فعلهم لتصبح أعمالا أدبية بدأت برأي أو قصيدة كما عند ابن هانيء[20] او إبن الربيب[21] ثم صارت كتبا كما عند ابن رشيق[22] وابن القطاع[23] وابن بسام[24] وابن بشرون[25] وابن دحية[26] وابن الأبار[27] فضلا عن التيفاشي[28] والتجيبي المرسي[29] وانعقد الصلح على يد ابن سعيد المغربي[30] الذي توزعت كتبه المشرق والمغرب ، فكانت تحمل الاسم نفسه تكريسا للمشابهة والمصالحة وتجسيمـا لوحدة اللغة والشعور ، فهي ـ كما تعلمون ـ حلى واحدة .. أجزاء منها للمغرب وأخرى للمشرق[31] .

ولعل ابن سعيد في هذا متأثـر جدا بـطريقة معاصـره وصـديقه الطبيب الموسوعي أحمد بن يوسف التيفاشي القفصي ، وإن كان التيفاشي قد تميز عنه بمـزج الأدب المشرقي بـالمغربي في معظم كتبـه ، لاسيما في مـوسوعتـه الضخمة[32] التي هي أعظم كنز أدبي وعلمي تونسي ضاع من تراثنا .. يدل عليها ما بقي سليما من أجزائها أو مختصرا من مسوداتها مثل « سرور النفس بمدارك الحواس الخمس »[33] و « متعة الأسماع في علم السماع »[34] و « نزهة الألباب فيما لا يوجد في كتاب »[35] وكتابه في البديعيات الذي اعتمده واقتفى طريقته علماء البلاغة حتى القرن العاشر[36] ولقد سررت جدا .. وأنا اكتشف ـ في هذا الشهر ـ وجود نسخة وحيدة من هذا الكتاب جاءني العلم بها صدفة من خلال بحث كتبته عن التيفاشي باحثة سورية فاضلة خصتني بـه للاطلاع عليه قبل نشره .

على ان التيفاشي وابن سعيد لم يهملا الحديث والتأليف المستقل عن محاسن بلادهما ، اي إفريقية والأندلس ، فقد نسب للأول كتاب « الدرة الفائقـة في محاسن الأفارقة »[37] ونسب المقري لابن سعيـد كتاب « الشهب الثـاقبة في الانصاف بين المشارقة والمغاربة »[38] .

نخلص من هذا إلى أن شكوى المغـاربة قـديما من إهمـال المشارقـة لهم واستنقاصهم أدبهم كانت شكوى معقدة ومفرطة في الحساسية .. لكنني أزعم بأنهم كانوا السبب الوحيد فيها ! فقد كانت بداياتهم في التأليف الأدبي ، وحتى في الشعر ، بدايات عقيمة ، فالى نهاية القرن الثالث الهجري لم يظهر لهم تآليف واحد في الأدب كما لم يظهر بينهم أي شاعر ذي شأن سـوى بكر بن حماد ، ولكنه كان شاعرا مقلا .. ومذبذبا بين المديح والزهد ، وانتهى صداه يوم موتـه ، ولم يبق من شعره ، في بـلاده الافريقيـة نفسها سـوى نتف لا تبين .[39]

ومنذ بكر بن حماد الى اليوم لم يقل أحد للمشارقة في ميدان الشعر : ها أنا ذا

سوى الشابي .. وربما نضيف ابن هانيء وابن زيدون .. ولعل في هذا ما يفسر أن عناية المشارقة بهؤلاء كانت اكثر من غيرهم .

ومع ذلك فان المؤلفات الأدبية الجيدة التي وضعها المغاربة مع إطلالة القرن الخامس والسادس وحتى في السابع والثامن .. قد لقيت جميعها عناية كبيرة وأصداء قوية في المشرق عامة وفي مؤلفات المشارقة ومجاميعهم وموسوعاتهم الأدبية بوجه خاص .

فقبل القرن الخامس لا نكاد نجد أثرا يذكر لشاعر أو أديب مغربي ... الا لمن إستقر منهم في المشرق أو انحدر من أصل مغربي .. كابي القاسم المغربي[40] او المتيم الافريقي[41] وهذه مؤلفات ابن النديم والثعالبي والباخرزي شاهدة على ذلك ؛ إذ ليس فيها سوى عدد قليل من المغاربة ، أغلبهم أندلسيون .[42]

ولكن الموقف يتغير بعد القرن الرابع ، والصدى يقوى ثم يزداد اتساعا وإشعاعا . حيثما إنتشرت مؤلفات المغاربة الخاصة بهم والحاملة لأدبهم وابداعاتهم في الشعر والنقد والتاريخ والتراجم .. لذلك لم تتجاهل المؤلفات المشرقية ولا أدباء المشرق أدب ومؤلفات المغاربة عامة منذ هذا القرن .. بل زاد الاهتمام وظهر التقدير والاعجاب .. فقد بهرهم ابن رشيق بعمدته وكتابه عن شعراء القيروان فاغترفوا منه ونقلوا عنه ما استطاعوا ، وكذا كان الحال مع ابن القطاع وكتابه « الدرة الخطيرة في شعراء الجزيرة » وابن بشرون وكتابه « المختار في النظم والنثر لأفاضل أهل العصر » ، وابن بسام في ذخيرته .. الخ القائمة وهي طويلة جدا .

وهكذا تجسمت منذ القرن السادس وحدة الأدبين في كتب المشارقة .. والسبب في هذا واضح جدا .. إنهم يملكون الآن أصولا ومصادر عن أدبنا .. وهي أصول ومصادر هامة جدا .. وقد زادها قيمة ومكانة أدباء مغاربة أفذاذ عاشوا بين أدباء المشرق وأثروا فيهم وحملوا إليهم مؤلفات المغاربة وأشعارهم .. بل والفوا لهم خصيصا كتبا للتعريف بادب المغاربة من صقلية الى الأندلس ، نذكر من هؤلاء عائلة إبن منظور .. وابن دحية والتيفاشي والقفصي وابن سعيد . والى هذين الأخيرين يعود الفضل الكبير في إنتشار أدب المغاربة في المشرق . وأنت لا تكاد تراجع كتابا موسوعيا من كتب الأدب والتاريخ في المشرق الا ولهما فيه ذكر متعدد ... وعنهما نقول لا تحصى .

ولقد بلغت عناية بعض المؤلفين المشارقة بالادب المغربي أن خصصوا له أجزاء من موسوعاتهم ، كما فعل العماد في الخريدة[43] والعمري في المسالك[44] .. وفي هذا دليل على أن عنايتهم بنا قد صارت كبيرة وعادلة . بل ان مؤلفات بعضهم أصبحت اليوم هي المصدر الوحيد عن عدد كبير من شعرائنا وأدبائنا .. ذلك لأن الأصول التي نقلوا عنها قد ضاعت كلها تقريبا ولم يعد لها اليوم وجود ، وكيف ينكر أحد اليوم هذه الحقيقة وذلك الفضل ونحن لم نعرف ولم نكتشف العشرات من شعرائنا ومؤلفاتنا إلا من خلال موسوعات ياقوت[45]

والعماد الاصفهاني والصفدي[46] والعمري[47] أو في مؤلفات البيهقي[48] وابن ظافر[49].

وخلاصة ذلك كله أن وهما سيطر على أجدادنا في قرونهم الاسلامية الأولى.. ثم انتبهوا له وعالجوه بأسلوب فعال وعملي .. اي أسلوب الحضور في المكان والمجابهة بالانتاج الجيد وبالفائق المبهر .

إن القوم هنالك ظلوا لا يعرفون عنا شيئا .. لأننا لم نقدم لهم شيئا أو قدمنا نماذج غير صالحة أو غير جيدة .. ويوم قرؤوا لنا ما يستحق الاحترام اعتبروا العمدة والمقدمة .. وحتى العقد الفريد وزهر الاداب[50] من أمهات الكتب في الأدب ، وعنوا بأصحابها وباخبارهم ومؤلفاتهم .. بل عنوا حتى باصحاب العاهات من شعرائنا ، فهذه بعض كتبهم المختصة بهذا[51] تحدثنا عن نوادرهم وأشعارهم .. كنوادر ابن رشيق الأحول وابن شرف الأعور وابن الناجحون الاعمى ..و ..و ..؟

كل ذلك وهم يعيشون في عصور تباعدت فيها المسافات .. وساد في معظمها الاستبداد والظلم والفتن وعدم الاستقرار .. كما كثر فيها اللصوص وقطاع الطريق الذين لم يسلم منهم حتى ابن خلدون - على براعته في التخلص والهروب - فسلبوه في مرة واحدة جميع ما كان معه حتى الثياب التي يرتديها .

ولكن .. ماذا عن أدبنا في هذا العصر ؟ هذا العصر الذي ظهرت فيه الطباعة وزالت بين أقطار الأرض المسافات وأخطار الطريق .. وصار المسافر يقطع في ساعتين الرحلة التي كان أجدادنا يقطعونها بحرا في شهر أو شهرين وبرا في ستة شهور أو سنة .. وارتبطت شعوب الأرض واقطارها بشبكة من الاتصالات والمواصلات البحرية والبرية والجوية بل والفضائية مما لم يكن في القديم حتى مجرد أحلام .. اذا استثنينا بساط الريح وتلك المغامرة العلمية الفريدة العجيبة في آن .. والتي كانت الأولى في تاريخ الطيران .. اعني مغامرة العالم الفلكي الرائد ابن فرناس الاندلسي[52] .

اليوم .. والمطابع التونسية تضيف كل يوم كتابين الى الرفوف ، وتسحب ربع مليون نسخة من الدوريات .. وعندنا وزارة للثقافة منذ ربع قرن .. وعشرات الصحف والمجلات التي صدرت في الماضي أو تصدر اليوم ، وبالطبع عندنا سفارات في جميع العواصم العربية ، وبها ملحقون ثقافيون وآخرون إعلاميون[53].

يضاف الى ذلك أن تونس ، ومنذ عشر سنوات أصبحت مركزا دوليا وعاصمة لعديد المنظمات والمؤتمرات العربية ، والوفود المشرقية تأتي إلينا كل يوم ، ووفودنا الرسمية والعلمية والأدبية تذهب لعواصم العرب الشرقية بلا انقطاع وبشكل مكثف ..

اليوم ، وفي ظل هذه الظروف المساعدة والأوضاع المواتية يحق لنا ويليق بنا أن نتساءل : ما هو صدى أدبنا في المشرق ؟

للحقيقة التاريخية نؤكد هنا أن ذلك التواصل العريق وتلك المعرفة القديمة بنا

وبأدبنا لم ينقطعا قط .. وإن اعتراهما في فترات معينة فتور أو تناقص خاصة في زمن الاضطرابات أو الحكم الأجنبي للجناحين ..

وللحقيقة التاريخية نقول ونؤكد ايضا بان عددا غير قليل من العلماء والأد التونسيين قد اسهموا في نهضة المشرق العربي والاسلامي منذ مطلع القـ الماضي[54] وقد استمر ذلك حتى إعلان الاستقلال الرسمي عام 1956! والأسماء هنا كثيرة بل ان فترة الاستعمار الفرنسي بالذات كانت سببا في هجـ العديد من رجال السياسة والعلم والأدب التونسيين الذين إستقروا كـا حياتهم او بعضها في عواصم العرب الشرقية وخاصة القاهرة ودمشـ وبغداد[55] وبالطبع كان لهم حضورهم المكثف في عاصمة الخلافة حتى نهـ الحرب العالمية الأولى ، بل والى سنوات قليلة خلت حيث توفي آخر مهاجر تونـ ذو ثقافة عربية عاش في الآستانة زهاء سبعين سنة من عمره المديد وهو الشـ محمد الصفائحي[56] ابن المصلح الثائر الشيخ اسماعيل الصفائحي[57]

وبالمقابل أسهم عدد غير قليل من أعلام الشرق وأفذاذه في نهضة تونـ الأدبية والثقافية الحديثة انطلاقا من منتصف القرن الماضي وحتى مطلع الحر العالمية الأولى .

ومن ينسى تلك الأسماء اللامعة مثل رشيد الدحداح[58] السمسار الكبير وعلاقاته الحميمة مع محمود قبادو وما أفرزته من ادب[59] وحمزة فتح الله[ودوره الهام في جريدة الرائد التونسي وصداقته العميقة للوزير حسين ، وفارس الشدياق[61] الذي اعتنق الاسلام في تونس لأسباب وفي ظروف لم يكشف عـ النقاب حتى الآن ، ثم ابنه سليم ومحمد طلعت ونجيب ملحمة وجميل خور الذي جمع ديوانا من خصوصياته ومدائحه في اعيان الادارة التونسيين .[62]

ولا ننسى هنا دور الأميرة نازلي[63] التي كانت أول إمرأة شرقية أو تونسـ جعلت من بيتها في القاهرة ثم في تونس صالونا يلتقي فيه رجال الأدب والفـ والاصلاح وتوضع في جلساته مشاريع النهضة والتغيير . ففي بيتها بالقاهـ نبتت أفكار قاسم امين حول تحرير المرأة بايحاء منها[64] والى بيتها وصالونها تونس جاء يسعى رجل الاصلاح والنهضة ومجدد الفكر الاسلامي الحديـ الشيخ محمد عبده[65] وكان من رواد صالونها في القاهرة . ولعلني أزعم بأ زيارته الثانية لتونس (عام 1903) كان من أسبابها الخفية أشواقه الى اللقـ بالأميرة نازلي المرأة الذكية المثقفة بعديد اللغات والمتفتحة على العصر والتقدم مما لم يصل اليه كثير من اعيان الفكر الذين كانوا يزورونها .

والأميرة نازلي هي زوجة المثقف التونسي خليل بوحاجب (تزوجهـ 1315 / 1898) وهي في الاصل بذرة تونسية من بذور الاصلاح والأد التي تكوّن بها والدها الأمير مصطفى فاضل حفيد محمد علي باشا على يد شيخـ ومعلمه التونسي محمد بن علي التميمي في منتصف القرن الماضي[66] تماما كـ كان طه حسين مدينا في شطر من تكوينه الأدبي والسياسي بل وحتى في بنا

ستقبله الى شيخه ورائده التونسي عبد العزيز جاويش[67] هذا الرجل الفذ الذي م ينصفه المصريون ولا التونسيون .. رغم عبقريته ونضاله العظيم من أجل حدة المسلمين أولا ثم في سبيل تحرير مصر والعرب وتقدمهم ونهوضهم .

وكمثله في أيامه وبعدها كان لعديد التونسيين حضور مكثف في عواصم لشرق حيث توالت الأسماء وتطور آثرها من التدريس والمحاضرة والاشعاع ن طريق المجالس الخاصة والعامة الى التأليف والكتابة في الصحف والمجلات الخطابة في النوادي والجوامع والمؤتمرات بل والى تأسيس الصحف والاشراف لى تحريرها كما فعل خير الدين التونسي (67 مكرر) وبيرم الخامس[68] وبشير لفورتي[69] والهاشمي المكي[70] .

ويقفز هنا اسم الشيخ عبد العزيز الثعالبي العلامة الرحالة والزعيم الأكبر .. لذي كان أمة وحده في علمه وجهاده وحيويته ونشاطه وفي شخصيته الفذة لمؤثرة .

وإني لأزعم بأن أحدا من التونسيين المناضلين حديثا والجوابين بعلمهم ديما لا يضاهيه فيما حققه من إشعاع وتركه من صدى في معظم أنحاء أسيا العالم الاسلامي.وها هي كتبه وآثاره الادبية وحقائق تاريخه المجيد العريض تي كانت محجوبة بالطاغوت المحلي والانانية العمياء ـ تزاح عنها سجوف ظلمات والظلم ، فاذا هو آية في العلم والبلاغة وفي الوطنية والجهاد وفي حضور والاشعاع ، وسوف نزداد إعجابا به وتقديرا لانجازاته وجهاده الاكبر حق ، يوم تجمع وتنشر آثاره المشتتة في صحف ومجلات العالم العربي وعند شرات المشارقة والمغاربة الذين إتصلوا به وتتلمذوا عليه . ولعل شبابنا لثقف والجامعي لا يعلم أن دور الشيخ الثعالبي في نهضة الشرق هو أكبر من وره في نهضة تونس لاسيما في العراق ومصر وفلسطين .

ويأتي بعد الثعالبي مباشرة رجل وديع ومتواضع ويكاد أن يكون خجولا ـافت الصوت اذا ما جالسته وتحدثت اليه .. ولكنه جبار في علمه وفي أدبه رغم ملفيته ونزوعه الى المحافظة ، بحكم إنتمائه العائلي وتكوينه العلمي .. عنيت شيخ الجليل محمد الخضر حسين[71] .. هذا الذي جاهد الاستعمار الفرنسي ، تونس وفي كامل بلادنا المغربية حتى حكم عليه غيابيا بالاعدام ومصادرة ملاكه .. لأنه كان أحد الذين ساهموا في بعث الثورات المسلحة بالجنوب .. كان هو والشيخان صالح الشريف[72] واسماعيل الصفائحي[73] القادة حقيقيين للنضال التونسي في اوروبا ، خلال الحرب العالمية الأولى ، ولكن عض المزورين للتاريخ يحاولون سرقة هذا الشرف واسناده كاملا لمن كان ورهم يأتي حتما في الدرجة الثانية وذلك بشهادة الوثائق التي بدأ الآن ظهورها ، أرشيفات المانيا وفرنسا وتركيا .[74]

هذا الخضر حسين الذي استطاع بضلاعته النادرة في الأدب والشعر البلاغة والعلوم الدينية أن يتصدى ـ كما لم يتصد عالم أو اديب غيره ـ في

أكبر معركتين من معارك الأدب والفكر في مصر العشرينات ، معركة طه وكتابه « في الشعر الجاهلي » ومعركة علي عبد الرازق وكتابه « ا! واصول الحكم »[75] وما أثاره من قضايا حول الخلافة وهل هي من ا! وضرورية اليوم للمسلمين ام لا ؟

ومن يرد أن يعرف مكانة الرجل وقيمة كتبه وردوده العلمية والأد! هذين الكتابين فليعد الى كتاب « مصادر الشعر الجاهلي »[77] للدكتور الدين الاسد ، والى الدكتور محمد عمارة فيما كتبه عن قضية الخلافة و! ما نشره عنها في مجلة الدوحة الخليجية[78] .

إن ما يعنينا هنا الآن ، ليس ذلك فقط بل حضوره الأدبي الطويل (40 سنة) بعد حضوره القصير ـ نسبيا ـ في دمشق والاستانة ، وما هذا الحضور من إسهام كبير ومتواصل ، لا في نهضة مصر الأدبية والعل تطوير أزهرها بالخصوص وارتقائه الى أعلى درجات المسؤولية فيه حت مشيخته في فجر الثورة الناصرية (52 ـ 1954) ليس ذلك فقط بل وم من نشاط أدبي وصحفي ومن إشعاع تونسي في شتى الميادين[79] ويكف على ذلك عدد المجلات التي تولى إدارة تحريرها فضلا عن مجلاته ال وأهمها مجلة « الهداية الاسلامية » التي عاشت معه ، ومع جمعيته تحمل اسمها ، مدة ثلاثين عاما ، وكانت كما كان هو صوت تونس والوطني والديني والثقافي في مصر وفي أنحاء العالم العربي ، هذا فض عشرات الكتب والمحاضرات وفي طليعتها كتاباه الفائقان « نقض كتاب في الجاهلي » و « نقض كتاب الاسلام واصول الحكم »[80] يضاف الى ذ مئات المقالات التي كانت ـ كما كان هو ـ بحق إشعاعا للأدب التونسي ف اوساط الأدب والثقافة في مصر والشام وخاصة اوساط الأزهريين .

صحيح أن تركيز الشيخ الخضر ، من الناحيتين الأدبية والتاريخية ؛ جماعات الزيتونيين ، وخاصة منهم شيوخه وأصدقاءه اللامعين ، ك الشيخ وسالم بو حاجب والطاهر ابن عاشور وعلي النيفر .. لكن هذا ، اليه كان أمرا منطقيا بحكم ظروفه وانقطاع صلاته بتونس إلا مع هؤلا

وصحيح أنه قامت بتونس في مطلع الثلاثينات معارضة لأفكاره ا والدينية المحافظة ، كموقفه هو من دعوة الحداد الى تحرير المرأة[81] الشابي والمهيدي[82] والسنوسي[83] من آراء الخضر الأدبية .

لكن من الصحيح أيضا أن كتاب الشابي « الخيال الشعري عند العر كان في عمقه الخفي معارضة لكتاب الشيخ الخضر حسين « الخيال في العربي » المطبوع لأول مرة في القاهرة عام 1922 ، اي قبل طبع كتاب بسبع سنوات ، وأنا ، وإن كنت أعتز بالرجلين العظيمين فاني أختلف م الكتابين

لقد توسعت كثيرا في الحديث عن الثعالبي والخضر حسين لأننا نعتقد أن دورهما في المشرق هو الذي لفت أنظار واهتمام المثقفين العرب هناك الى أن تونس لها تاريخ أدبي وثقافي هام جدا ، وأن فيها نهضة حديثة وأدبا جديرا بأن يعرف ويدرس ، ثم لأن إشعاع الرجلين مازال قائما يضيء الكتابات والعقول الى اليوم،خاصة في مصر والعراق وبلاد الشام .

وبالطبع هناك أسماء أخرى كان لها أيضا دورها وان اختلف في حجمه وطابعه وربما في بعض أهدافه عن دور الرواد من أمثال الفورتي وبيرم والثعالبي والخضر حسين .

ومع ذلك كله وبعد ذلك كله فان ما يعنينا ايضا هو صدى الأدب التونسي الحديث الصادر من تونس نفسها .

في الثلاثينات كان هذا الصدى المنبعث من تونس مسموعا بشكل جزئي ومحدود في مصر والعراق وسوريا ... وكان السبب فيه هو التبادل الأدبي ... سواء عن طريق المبادلات الصحفية أو العلاقات الشخصية التي كان الرائد فيها بلا جدال،الشابي والفورتي والسنوسي وآخرون من الكتاب والصحفيين من أمثال الطيب بن عيسى ومحي الدين القليبي ومحمود أصلان ، وهذا الأخير له دور هام في التعريف بالأدب التونسي في مجلات وصحف القاهرة وبيروت الناطقة بالفرنسية وله دور مماثل في باريس والجزائر فضلا عما قام به في تونس .(85)

ونحن نجد آثار هؤلاء وغيرهم في مجلات الهلال والرسالة والاخاء وغيرها في مصر . وبالطبع نجد الصدى أقوى في المجلات التي أصدرها وأشرف عليها صديق الشابي وصديقي المرحوم أحمد زكي أبو شادي وجماعته الادبية وعلى رأسها الصديق المرحوم مصطفى عبد اللطيف السحرتي وبالخصوص مجلات « ابو للو » و« الامام » و« أدبي » .

أما في سوريا فان الصدى أضعف والاهتمام أقل وان كانت الريادة هنا للمرحوم حسن حسني عبد الوهاب من خلال ما نشره(86) في مجلات القبس والمقتبس وكلتاهما لصديقه محمد كرد على ثم في مجلة مجمع دمشق ... ونجد بعض الصدى في مجلة الحديث الحلبية للصديق المرحوم سامي الكيالي ...

ثم نعود لمصر لنذكر بعد مجلة المنار مجلات الزهراء والفتح والرابطة العربية والرسالة والثقافة .

ويتطور الأمر بعد الحرب العالمية الثانية فيبرز الاهتمام بنا في المجلات الجامعية أو المجلات المختصة مثل حوليات كليات الآداب ومجلات المجامع ومجلة الكتاب والمجلة التاريخية المصرية . ثم مجلات الاديب والآداب والعرفان والقلم الجديد ....

أما في مجال التأليف والدراسات والكتب المدرسية فان الاب لويس شيخو كان سباقا بكتابه « تاريخ الآداب العربية » بأجزائه الثلاثة(87) فقد اظهر عناية

أسعد داغر واحسان عباس ووداد القاضي وعدنان الخطيب وعبد الرحمان ياغى وهلال ناجي ومحمد رضا الشبيبي وأمين الطيبي ... الخ

غير أننا نلاحظ أن معظم جهود هؤلاء وغيرهم قد إنصرفت الى الآثار الأندلسية وكأنهم بهذا يؤكدون شهادة إبن خلدون في قومه المغاربة بأن ملكة العربية فيهم ضعيفة.على أن البعض إنصرف الى إبن رشيق والحصري وابن شرف والقابسي وابن خلدون.وبخصوص هذا الأخير ينبغي أن نشير الى أنه منذ أن أشرف الشيخ نصر الهوريني على طبع المقدمة في منتصف القرن الماضي لم يتصد أحد لبحث حول ابن خلدون ، سواء عن حياته او مقدمته ، برغم ان المقدمة أعيد طبعها في بيروت عدة مرات . ولكن بعد ان نقل للعربية محمد عبد الله عنان أطروحة طه حسين عن « فلسفة إبن خلدون الاجتماعية »[91] .. تغير الوضع . غير ان طه حسين ـ للاسف الشديد ـ أراد أن يتملق بعض أساتذته الفرنسيين ، لهذا جاءت رسالته مملوءة بالتحامل وسوء الفهم إن لم نقل سوء القصد ... مما حمل العديد من أهل القلم للرد عليه في تونس وفي الشرق ، وبالخصوص بعد أن ظهرت تأثيراتها السيئة في كتابات تلاميذ طه حسين وبعض معاصريه وفي الاجيال الموالية ، أمثال محمد عبد الله عنان وسامي الكيالي وأحمد أمين وسلامة موسى وسامي شوكت الذي دعا جهارا في خطاب حماسي رسمي الى حرق مؤلفات إبن خلدون ونبش قبره[92] ؟ مما حمل المفكر الرائد والصديق الراحل المرحوم ساطع الحصري الى اصدار كتابه الكبير دراسات عن مقدمة ابن خلدون » في منتصف الاربعينات للرد عليهم والتنبيه الى أخطاء طه حسين بالذات ...

والى ساطع الحصري يعود فضل ريادة أخرى عندما تأسس على يديه ، في مطلع الخمسينات بالقاهرة معهد الدراسات العربية العالية ، فقد بذل جهوداً جبارة طيلة ادارته لهذا المعهد ، بأن يتخرج فيه أساتذة وبحاثون ملمون بشؤون المغرب العربي كلها أدبية وسياسية وفي الجوانب الأخرى ... وتحقيقا لهذه الغاية دعا العديد من علماء بلادنا المغربية ومثقفيها للاسهام بمحاضرات طبعت كلها في كتب عن تلك الجوانب . ونحن مدينون له بأنه كان المحرك والمنظم الباعث على إعداد وطبع تلك الكتب التي وضعها عن تونس وباقي بلادنا المغربية أمثال الفاضل ابن عاشور[93] وعبد الله كنون[94] ومحمد الفاسي[95] والحبيب بن الخوجة[96] وعثمان الكعاك[97] وأبو القاسم سعد الله[98] وآخرون .[99]

ويعود الفضل لرجال آخرين ، في طليعتهم الدكتور عبد الرحمان بدوي ، الى اعادة الاعتبار لعلامتنا عبد الرحمن بن خلدون بتنظيم أول مهرجان عالمي عنه يقام في القاهرة عام 1962 مع إقامة تمثال له بهذه المناسبة[100] أي قبل ان تفكر تونس في ذلك بعشرين عاما ؟!

على أن الدراسات حول الادب التونسي في المشرق ، لئن إقتصر معظمها في الجامعات على الآثار القديمة والأندلسية بوجه خاص فانها خارج الجامعات شملت القديم والحديث معا ... ويمكن أن نعتبر في طليعة الذين توجهوا الى العناية بالادب التونسي الحديث : أبو شادي ومختار الوكيل وأنور الجندي ورضوان ابراهيم ووديع فلسطين ومحمد مندور وفوزي الميلادي ورجاء النقاش وطه حسين بما كتبه عن السد والناعوري ورفائيل نخلة اليسوعي وداغر وسهيل ادريس وهلال ناجي وشكري فيصل والبير أديب وزكي المحاسني .

ونستطرد هنا لنقول بأن اكثر الكتابات والأصداء الأدبية التي تمت في الشرق خارج الجامعات قد كانت نتيجة لعلاقات شخصية قامت بين هؤلاء وبين عدد من الادباء التونسيين إما مباشرة وإما عن طريق المراسلة .. تماما كما حدث في النصف الثاني من القرن الماضي حين قامت علاقات حميمة وتبادل دائم في مجال الأدب بين أدباء تونسيين وآخرين من مصر ولبنان وسوريا .. مما نجد بعض نتائجه فيما أثبتته المجاميع الأدبية التي وضعها اليسوعيون في لبنان أو تقاريظ الكتب التي نشر الرائد التونسي بعضها ونشر اكثرها في لواحق الكتب المعنية ككتاب خير الدين[101] وديوان قبادو[102] ورسائل المكي بن عزوز[103] هذا فضلا عن صدى تلك العلاقات في جريدة الجوائب وفي منشورات الهادي الابياري المصري وابراهيم الاحدب والشدياق والدحداح اللبنانيين ورزق الله حسون الحلبي .

وهنا اذكر ... انني عندما كنت في بغداد أواخر الاربعينات ومطلع الخمسينات انتقدني بعض أدباء العراق بأني متعصب لمغربيتي لأني لا أكتب ولا أحاضر إلا عن تونس والمغرب العربي مدافعا عن قضاياه الوطنية وحقه في الحرية والاستقلال ، أو معرفا بأعلامه وأدبائه كالشابي وكرباكة والحداد ...

ولكن عندما عدت في منتصف الخمسينات لتونس ورغم مواصلة الانتاج في الاتجاه نفسه ، فقد تحرك العنصريون عام 1965 لالقاء تهمة التمشرق على كتاباتي ؟! والحال أنهم بالخصوص أكثر الناس جهلا بتاريخ حياتي ونوعية تلك الكتابات ...

ومن غرائب تلك الحملة الضالة الظالمة معا ، أن المقال الذي حرك عنصريتهم كان بعنوان « أدبنا ــ أي التونسي ــ بين الانطلاق والانكماش »[104] دعوت فيه الأدباء التونسيين الى ضرورة العمل على نشر إنتاجهم في دوريات المشرق وأسواقه ، حتى يكونوا معروفين لدى نقاده وأدبائه وعامة القراء هناك . وكان ذلك مني سعيا لمزيد التعريف بالادب التونسي وللخروج به من عزلته وانكماشه المعهود الى حيث المجال أرحب وأوسع وليلقى الصدى اللائق به . وكان هذا هدفي دائما ومنذ أن ادركت مع نهاية الاربعينات أن المشرق العربي لا يعرف من أدبنا القديم والحديث إلا الأسماء الكبيرة كابن رشيق وابن خلدون وخير الدين والشابي[105] ثم هم لا يكادون يعرفون شيئا يذكر عن الآخرين .

واليوم ومنذ الاستقلال وبفضل الجهود التي تواصلت عن طريق العلاقات الشخصية والمراسلات وتبادل الزيارات والوفود ومعارض الكتب تحسنت معرفة المشرق لنا وزادت عنايتهم بأدبنا . غير أن ما تحقق مازال دون طموحنا ودون ما بلغته بلادنا وأدبنا من تطور وتنوع ونهضة . إذ لم يشمل الا عددا محدودا من الاسماء . لا تكوّن إطارا متوازنا عن انتاجنا أو صورة متكاملة لأدبنا ، ولكنها مطابقة تماما لمستوى جهودنا وعلاقاتنا .[106]

وعلى ذلك يمكن القول ، وبكل تأكيد بأن أدبنا معروف اليوم في الشرق في جملته وبرموزه الكبيرة أكثر ،مما هو معروف بعامته وتفصيله وكافة أعلامه . والناس في الشرق ، أعني أهل الكتابة والاختصاص ، يتفاوتون في معرفة أدبنا وانتاجنا وأدبائنا ... وليس هناك بالتأكيد من يعرفنا معرفة تفصيلية قط . ولا تصدقوا أن توفيق الحكيم أو نجيب محفوظ أو حتى طه حسين يعرفون أكثر من اسم واحد أو اسمين . وما نشر في تونس منسوبا اليهم من مقابلات أو مقالات أو مقدمات كتب انما هو منحول أو كتب على لسانهم مقابل منافع شخصية[107] ، لكن مع ذلك يوجد فعلا عدد من الأدباء والمؤلفين الجادين ، وبعض الباحثين المتخصصين الذين يحاولون صادقين أن تكون معرفتهم لنا وكتاباتهم عنا أعمق وأشمل وأدق .

تعاليق واحالات

1) طبع في القاهرة 1955 بتحقيق ابراهيم الابياري وزميله ومراجعة طه حسين وتقديم الأبياري .
2) راجع عنه التقديم والأعلام للزركلي ج 5/ 44 من الطبعة 5 و جميع الاحالات في هذا البحث تعود اليها .
3) ص « ص .ك .م » من التقديم
4) ص « ش »
5) راجع بحثنا « كيف تأسست القاهرة منذ الف سنة » ملحق العمل الثقافي عدد 4 ـ 4 ـ 1969
6) راجع عنه : الأعلام ج 7/ 28 . وتوفي عام 635 هـ أي سنتين بعد وفاة ابن دحية .
7) توفي 651/ 1253 ـ الأعلام 1/ 273 . الورقات لحسن حسني عبد الوهاب ج 2 ص 448 ـ 460 .
8) توفي بالقاهرة عام 645/ 1247 وكانت ولادته بها وأبوه من باجة الافريقية : راجع عنه دراساتنا المتعددة بكتاب « قفصة وعلمائها » ط 1972 ومجلة الحياة الثقافية سلسلة جديدة عدد 2 نوفمبر 1977 ص 72 ـ 84 .

9) ت 711/ 1311 . الاعلام 7/ 108 ومراجع رقم 8 و « حقائق جديدة عن ابن منظور » بحثنا المنشور بكتاب الملتقى الثاني لابن منظور بقفصة عام 1972 والمطبوع عام 1974 بتونس .
10) رايات المبرزين لابن سعيد . ط مدريد و ط ، القاهرة ص 53 .
11) ت 685/ 1286 . الاعلام 5/ 26 .
12) ت 456/ 1064 . الاعلام 4/ 254
13) يستدل المغاربة بهذا البيت على عدم تقدير المشارقة لهم ، والحال أن قائله سجل به عدم تقدير أهل الأندلس له : انظر « روائع البستاني » عدد 53 ص (ط)
14) الروائع الحلقة 8 عن ابن عبد ربه ص (ذ) .
15) نفح الطيب ج 1 ص 211 ـ 212 طبعة بيروت
16) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج 4 ص 424 ط بيروت 1974 .
17) راجع المهدي والمهدوية لاحمد أمين .
18) لابن خلكان رأي آخر حيث يدافع عن شاعرية ابن هانىء ، ويتهم المعري بالتعصب للمتنبي شاعره المفضل : (المرجع السابق ص 424)
19) استنكر ادباء القيروان نزعة التقليد التي شاعت في الأندلس ـ لدى الأدباء والأمراء ـ وقولة ابن رشيق عنهم مشهورة في كتب الأدب .
20) ديوانه بتحقيق زاهد علي ص 330 .
21) ت 430 هـ . كحالة 3/ 277 ومجمل عبد الوهاب ص 124
22) العمدة وقراضة الذهب وانموذج الزمان في شعراء القيروان .
23) علي بن جعفر الصقلي ت 515/ 1121 . الأعلام 4/ 269
24) الذخيرة في 8 مجلدات وهي مطبوعة .
25) عثمان بن عبد الرحيم الصقلي المهدوي ت بعد 561/ 1166 . الاعلام 4/ 208 .
26) المطرب من اشعار أهل المغرب ، وله كتب أخرى .
27) مات بتونس مقتولا بأمر السلطان الحفصي عام 658/ 1259 . وكتبه كثيرة واهمها في هذا السياق : « الحلة السيراء » و « إعتاب الكتاب » و « تحفة القادم » وكلها مطبوعة .
28) من كتبه الباقية : « سرور النفس » و « نزهة الألباب » وكتاب في البديع .
29) كتابه « زاد المسافر » وهو أبو بحر صفوان بن إدريس ت 598/ 1201 وكتابه مطبوع .
30) كتبه كثيرة جدا ، واهمها هنا : المرقص ، رايات المبرزين ، والغصون اليانعة وكلها مطبوعة . كما طبعت أجزاء من الحلى .
31) معلوم ان الاجزاء الخاصة بالمشرق تسمى « المشرق في حلى المشرق » والخاصة بالمغرب تسمى « المغرب في حلى المغرب » .
32) سماها التيفاشي : « فصل الخطاب في مدارك الحواس الخمس لأولى الالباب » وهي التي اختصر معظمها إبن منظور في كتاب متعدد الأجزاء وصلنا منه جزءان باسم « سرور النفس ... » .
33) طبع بيروت عام 1980 .
34) نسخته الوحيدة مازالت مخطوطة ، ومعظمها بخطه .
35) منه نسخ قليلة ولم يطبع مع أنه ترجم للفرنسية وطبع عام 1971 بباريس .
36) لنا متابعة للنقول والكتب المتصلة به في دراستنا المخطوطة عنه (راجع عنها جريدة العمل 22 ـ 9 ـ 72)
37) هدية العارفين ج 1 ص 94 لاسماعيل باشا البغدادي . ط . تركيا 1951 .
38) نفح الطيب ج 1 ص 210 ـ 211 . ويندرج في موضوعنا كتاباه المطبوعان المرقص والمطرب ورايات المبرزين .
39) عن بكر بن حماد راجع : اعلام الجزائر ومجمل عبد الوهاب ص 72 .
40) توفي عام 418/ 1027 . كحالة ج 4/ 30 .
41) توفي نحو 400/ 1010 . الأعلام 5/ 313 .

42) في كتاب دمية القصر للباخرزي - مثلا - ذكر مغربيا واحدا هو تميم الفاطمي .
43) طبعت الأجزاء الخاصة بافريقية والأندلس طبعتين بتونس (3 مجلدات) وطبعة مصرية بها نقص في مجلدين .
44) خصص الجزء الحادي عشر بشعراء تونس وباقي المغرب والأندلس .
45) معجم الادباء وتناثرت معلومات متفرقة في معجمه للبلدان
46) في كتابه الكبير : الوافي بالوفيات :. وقد تم طبع زهاء العشرين مجلدا منه .
47) اعتمد العمري بالخصوص على كتاب ابن رشيق عن شعراء القيروان فنقل معظمه في الجزء الحادي عشر المذكور سابقا .
48) في كتابه المخطوط « وشاح الدمية » .
49) في كتابه « بدائع البدائه » ، وهو مطبوع .
50) للحصري أبي اسحاق القيرواني ، وهو شبيه بالعقد الفريد في جمعه لنصوص أدبية كلها مشرقية الا ما ندر . وهو مطبوع عدة طبعات بتحقيقات مختلفة ، كلها تمت في القاهرة باشراف محققين مصريين ، ومثله كتابه « جمع الجواهر .. » .
51) انظر عنهم « نكت الهميان في نكت العميان » ، وهو مطبوع و « الشعور بالعور » وهو مخطوط . وكلاهما للصفدي .
52) عالم اندلسي مدهش (ت 274/ 887) فهو أول من صنع قبة فلكية للبحث العلمي وكان عالما بارعا في الفلك والرياضيات ومخترعا . وقد حاول الطيران وحقق فيه بعض النجاح . لكن أحدا من العرب لم يواصل تجاربه . راجع عنه الأعلام 3/ 264 .
53) جميعهم ، مع الأسف الشديد ، لا علاقة لهم لا بالاعلام ولا بالثقافة .
54) انظر دراستنا عن « دور الزيتونة في النهضة العربية الاسلامية المعاصرة » في مجلة « المنهل » السعودية عدد سبتمبر 1987 والمعاد نشرها في جريدة الصباح عدد 29 - 1 - و 1988/2/5
55) انظر بحثنا عن المهاجرين التونسيين في كتاب « ملتقى الذاتية الثقافية والضمير القومي داخل المجتمع التونسي » ط 1974 .
56) تعرفنا عليه شخصيا في استنبول في مطلع السبعينات . ترجمته غير كافية في معجم محمد محفوظ « تراجم المؤلفين التونسيين » حيث أشار اليه عرضا في ترجمة والده ج 3 ص 233 - 235 .
57) لنا عنه وعن ابنه السابق دراسة مخطوطة (اذيعت عام 81) وانظر ما ترجمه به محفوظ في الاحالة السابقة .
58) ترجمته في « مصادر الدراسة الادبية » لداغر ج 2 ص 361 .
59) راجع كتاب الدحداح « قمطرة طوامير » المطبوع بباريس 1880 .
60) من أصل تونسي ، ترجمته في الاعلام ج 4 ص 17 . وتوفي عام 1929 .
61) مراجعه كثيرة ويكتفى بالاعلام 1/ 193 ومصادر الدراسة الادبية ج 2 ص 471 .
62) له ديوان صغير مطبوع عام 25/ 1926 جمع فيه شكواه من غربته وعددا من قصائد المديح والاخوانيات .
63) راجع عنها بالخصوص الجزء الأول من مذكرات محمد فريد ومعجم أعلام النساء لكحالة وأركان النهضة الادبية بتونس للفاضل إبن عاشور . ولنا عنها دراسة مخطوطة .
64) مذكرات محمد فريد ج 1 ص 19 و 134
65) راجع عن رحلتيه الى تونس حوليات الجامعة التونسية عدد 3/ 1966
66) ترجمنا له في البحث المذكور برقم 54
67) الأعلام ج 4 ص 17
67 مكرر) اسس في الاستانة جريدة « السلام » ، وانتدب لتحريرها صديقه جبرائيل دلال الحلبي وصدر عددها الأول يوم 23 - 7 - 1879 . وانتهت بعدد 11
68) اسس جريدة الاعلام عاشت في القاهرة نحو خمس سنوات من 1884 الى ان توفي عام 1889

راجع عنه « محمد بيرم الخامس » للزين السنوسي والأعلام ج 7 ص 101 .

69) ترجمنا له في جريدة الرأي عدد 20/3/1987 وله دور صحفي كبير في عديد الصحف العربية بالمشرق والمهجر الأمريكي . وكان محررا بجريدة « الهلال العثماني » في الاستانة لصاحبها عبد العزيز جاويش .

70) ترجمنا له في دراستنا المطولة ، المذكورة برقم 54 ولصديقنا علي مصطفى المصراتي كتاب عنه بعنوان « كفاح صحفي » .

71) انظر كتابنا عنه « محمد الخضر حسين شيخ الازهر الاسبق » ط تونس 1973

72) و 73) لنا عنهما دراسة مخطوطة (أذيعت عام 81) راجع عنهما ايضا تراجم محفوظ . وكتاب د . محمود عبد المولى عن الجهاد التونسي الليبي (1914 ـ 1918) وهو بالفرنسية

74) انظر ما كشف عنه باحث الماني من مكانة كبيرة ودور بارز لصالح الشريف (من خلال وثائق المانية) حوليات الجامعة التونسية عدد 24 سنة 1985 .

75) حوكم من أجله طه حسين واتلفت نسخه لكننا نحتفظ بنسخة أصلية منه في مكتبتنا

76) طبع في ظروف سياسية معقدة عام 1925 فور الغاء الخلافة ونحتفظ بنسخة من طبعته الأولى التي تمت باشراف مؤلفه . أما طبعات بيروت اللاحقة فهي تجارية وفي بعضها تصرف غير علمي .

77) صدرت طبعته الأولى عن دار المعارف بالقاهرة عام 1952 والثانية 1962 .

78) أعداد سنة 1987 .

79) للشيخ الخضر نشاط سياسي ووطني للدفاع عن تونس والمغرب العربي : راجع ذلك في كتابنا عنه .

80) طبع الأول عام 26 والثاني قبله بسنة .

81) انظر كتابه « رسائل الاصلاح » ج 3 ص 29 او كتابه « بلاغة القرآن ص 132 وهو من تنسيق حفيده للاخ .

82) عن موقف الشابي راجع « رسائل الشابي » التي جمعها الحليوي وقدمنا لها ونشرناها عام 1966 وعن موقف المهيدي مجلة الندوة عدد خاص بالشابي (اكتوبر 1953)

83) راجع مجلة السنوسي « العالم الأدبي » وكتابه عن الشابي

84) طبعته الأولى عام 1929 .

85) توفي أصلان في 1981 وله كتب أدبية مطبوعة بالفرنسية ، ومخطوطة بها وبالعربية عدا الصحف والمجلات التي ساهم بتأسيسها والتحرير فيها .

86) مما نشره « رسائل الانتقاد » لابن شرف وقد أعاد صديقه محمد كرد علي نشرها مع أعمال اخرى في كتابه « رسائل البلغاء » عدة مرات .

87) طبع الأول عام 1924 والثاني والثالث عام 1926

88) ابرز الاسماء التونسية في الكتاب : محمد بن عمر التونسي ، سليمان الحرائري ، سالم بوحاجب ، ابن ابي الضياف ، بيرم الخامس ، الباجي المسعودي ، صالح السويسي ...

89) لم يذكر عبود في كتابه « أدب العرب » الذي أرخ به الأدب العربي في جميع عصوره واقطاره سوى أدب الاندلس ، مقحما فيه ابن حمديس الصقلي ، ذاكرا قبله سطورا قليلة عن ابن هانىء ، وابن رشيق . والشاعر التونسي الحديث ، والوحيد ، الذي تحدث عنه باطلاق هو مصطفى خريف ؟ ولكن في كتاب آخر له هو « دمقس وارجوان » ؟ وهو سابق في الطبع عن كتابه « أدب العرب » .

90) طبع عام 1336 هـ بعنوان : « المنتخبات التونسية للناشئة المدرسية » ولم تختلف عنه من حيث المادة والتبويب طبعة مصر .

91) ط 1 ـ القاهرة 1925 باشراف لجنة التأليف والترجمة والنشر .

92) راجع ردودنا عليهم جميعا في كتابنا « العرب وابن خلدون » في اي من طبعاته التونسية او اللبنانية .

93) في كتابه « الحركة الفكرية والادبية بتونس » الذي حاضر به طلبة المعهد عام 1955 وطبعه المعهد 1956 .

94) احاديث عن الادب المغربي الحديث ط 1964
95) التعريف بالمغرب ط 1961
96) يهود المغرب العربي ...
97) مراكز الثقافة في المغرب العربي ط 1958 والحضارة في حوض المتوسط ط 1965 .
98) تاريخ الجزائر الحديث ط 1958 .
99) من المغرب عبد العزيز بنعبد الله والجزائري صالح خرفي ومن المشرق محمد رضا الشبيبي وصلاح العقاد ونقولا زيادة .. الخ
100) راجع عن ذلك كتاب « أعمال مهرجان ابن خلدون » الذي جمع بحوث الندوة الدولية وصور عنها وصورة تمثال إبن خلدون . ط ـ القاهرة 1962 .
101) طبعته الأولى والوحيدة للآن في المطبعة الرسمية 1867 .
102) طبعته الأولى في الرسمية 1295/ 1878 واعيد طبعه مرتين
103) توفي المكي بن عزوز في الاستانة عام 1916 وله دور رائد في زرع البذور الأولى للمقاومة السياسية للاحتلال . وله عشرات الرسائل والكتب ، طبع الكثير منها .
104) نشر في العمل عدد 29/ 10/ 1965 ومقالنا الحاسم « ادبنا ضد الحقد » المنشور في العمل عدد 3/ 12/ 65 .
105) انظر المقدمة والقسم الأول من كتابنـا « آثار الشـابي وصداه في الشـرق » ط بيروت 1961 .
106) من مظاهر تقصيرنا أن اكثر من 90٪ من كتب تراثنا المغربي والأندلسي قد تم تحقيقه ونشره في المشرق مما ينفي تماما دعاوي بعضهم بان المشرق قليل العناية بنا ماضيا ، اما الحاضر فان الاهتمام على مستوى جهودنا وحضورنا .
107) انظر مقالنـا بتوقيـع « ابن المقفع » في الملحق الثقـافي لجريـدة الحريـة عدد 14 يـوم 23/ 6/ 88 . وكذلك جواب نجيب محفوظ الذي يؤكد انه لا يعرف عن الأدب التونسي الاكتاب اسمه « السد » ولا يتذكر اسم مؤلفه ؟! راجع مقابلة البلاجي معه في الملحق نفسه عـدد 13 بتاريـخ 16/ 6/ 88 .

منزلة اللسان وعلومه
فـــي
مقدمة ابن خلدون

أبو يعرب المرزوقي

● تمهيـد

رغم مـا امتـازت بـه علوم اللسـان في العهـد الاسلامي من الحضارة العربية من أهمية بالغة ودور أساسي في تحديد معالم الفكر العربي[1] فان وضعها المعرفي ومنزلتها في سلّم العلوم بقيا غامضين ولم يقع تحديدهما بواضح الضبط .

فـإذا كان « الفـارابي » يقدم البحـوث اللسانيـة في الترتيب الزماني على المعرفة العقلية عامة والبرهانية خاصة ، فانه بفعل ذلك التقديم نفسه يحط منها فيخرجها من العلوم ويعتبرها مجرد ممارسة عامية دون النظر ، بل هي دون المعارف الجدلية لكونها من الصناعات الجمهورية[2] .

وابن خلدون نفسـه لا يحدد بصـورة واضحة منـزلة علوم اللسان في سلم العلوم الذي يستند إليه تصنيفه للعلوم في الباب السادس من المقدمة ؛ بل انها لا يرد ذكرها حتى مجرد الذكر من بين العلوم العقلية أو النقلية . ولكنها مع ذلك لم تهمل اذ أن القسم الأخير من الباب السادس يعالج علوم اللسان والفنون الأدبيـة علاجا وافيـا رغم عدم بـروز علاقتـه بمعالجـة أصناف العلوم الأخرى[3] .

I . غياب علوم اللسان في تصنيف العلوم الخلدوني

I . 1 . فالمعلوم ان علوم اللسان ليست من العلوم العقلية التي يحصيها ابن خلدون في الفصل التاسع عشر من الباب السادس ويحللها مباشرة بعد معالجة العلوم النقلية ، انه لا يذكر الا المنطق والطبيعيات وما بعد الطبيعة والتعاليم

بفروعها الأربعة (العدد والهندسة والفلك والموسيقى) ، لكن هذا الغياب يصبح ذا مدلول أوضح اذا ربطناه بغيابين آخرين أهم منه ، أعني غياب ما كان الفلاسفة يطلقون عليه اسم « العلوم العملية والعلوم الانشائية » .

فإذا كان غياب العلوم العملية قابلا للتفسير بنفي ابن خلدون لعلمية هذه العلوم وهو نفي يبدو واضحا من خلال نقده للفلسفة العملية وسعيه لتعويضها بعلم « العمران البشري » والاجتماع الانساني »[4] ، فان غياب العلوم الانشائية ـ وهي متينة العلاقة بعلوم اللسان ، اذ ان الجدل والخطابة والشعر كلها من الفنون التي تؤدي فيها اللغة الدور الأساسي ـ ليس بيسير الفهم أو التفسير (5) .

والذكر الوحيد الصريح للسان وعلومه يتعلق بعلاقتها بالمنطق بما هي مثله من أدوات المعرفة وعوائقها : فعند الحديث عن عوائق الفكر المتأتية من العلوم المساعدة والاشارة الى الحجب اللسانية التي تحول دون المتعلم والنفاذ الى مسائل العلم الدقيقة ، يتعرض ابن خلدون الى هذه العلوم داعيا الى عدم المبالغة في الاهتمام بها حتى يتفرغ الباحث الى العلوم الغايات ويتخلص من المعتمات اللسانية والمشاكسات الجدلية[6] .

I . 2 . والمعلوم كذلك ان علوم اللسان ليست كذلك من العلوم النقلية (التي تنحصر في العلوم الستة التالية : التفسير ، والقراءات ، والحديث ، وأصول الفقه ، والفقه ، والكلام) رغم الاشارة الصريحة الى ضرورة علوم اللسان فيها باعتبارها شرطا ، ورغم وضوح هذه الضرورة لكون كل العلوم النقلية أداتها اللسان الطبيعي بجميع أبعاده ؛ بل هو أحيانا أحد موضوعات هذه العلوم ؛ ذلك أن كل هذه العلوم النقلية تدور حول نص هو « القرآن » وتتعلق بفهمه وتلاوته وتأويله وتأسيس استعمالاته الشرعية والمذهبية . والحديث نفسه نص مساعد للنص القرآني مما يجعل اللسان وعلومه جزءا لا يتجزأ من علوم النقل في كل الملل وخاصة في الملة الاسلامية .

بل لعل الاشارة الى العائق اللغوي عامة والعجمة بالاضافة الى العربية خاصة ، مصدرها أهمية اللغة في العلوم النقلية التي أشرنا إلى بعض وجوهها : ذلك ان الدافع الفعلي لوضع علوم اللسان هو ، بالاضافة الى الدافع الظرفي المتمثل في ضرورة حماية اللغة العربية من التشويش والفساد الحاصلين عن الاختلاط بغير العرب من أقوام ملة الاسلام ، ضرورة حماية النص المقدس وفهم الشريعة وما يتصل بها من علوم نقلية ، عملية كانت أو نظرية .

إن هذا الغياب بوصفه تحديدا سالبا لمنزلة علوم اللسان بين العلوم العقلية والنقلية يمثل ، حسب رأينا ، منطلقا مفيدا للتعرف على المنزلة الجديدة التي تشغلها علوم اللسان في مجال المعرفة الجديد الذي استهله ابن خلدون ، أعني علوم الاجتماع الانساني والعمران البشري أو ما يجدر أن نطلق عليه اسم علوم الانسان بما هو كائن ثقافي تمييزا لتناوله من حيث هو كائن طبيعي[7] .

II ـ العلاج الخلدوني لمسألة اللسان وعلومه في « المقدمة » .

II . 1 . لقد أتى الكلام في علوم اللسان وفي اللسان على أربع شاكلات يمكن حصرها في الجزء الأخير من «المقدمة» . فبعد الحديث عن العلوم العقلية والنقلية حاول ابن خلدون تحديد نظريته في المعرفة من خلال تقويم دور المنطق واللسان بما هما عائقان ، ثم عرض علوم اللسان الأربعة كما حددها علماء اللغة ، وانتقل بعد ذلك الى نظريته في اللغة ونظريته التربوية المتعلقة بتعلمها الحي أو من خلال النصوص منتهيا في الأخير الى نظرية الفنون الأدبية ، اذ ان الأدب ليس الا احد العلوم اللغوية الأربعة .

وهكذا فان البحث الخلدوني في الظاهرة اللسانية يتطلب التمييز بين هذه الدرجات الأربع من المعالجة .

أ) ـ درجة المعالجة المنهجية المعرفية وتتعلق باللسان وعلومه في علاقتها بالمعرفة وخاصة بالتحصيل المعرفي ، ويخصص ابن خلدون لهذا المستوى الفصول السابع والثلاثين (في وجه الصواب في تعليم العلوم وطريق افادته) والثامن والثلاثين (في أن العلوم الآلية لا توسع فيها الانظار ولا تفرع المسائل) والفصل الرابع والاربعين خاصة (في ان العجمة اذا سبقت الى اللسان قصرت بصاحبها في تحصيل العلوم عن أهل اللسان العربي) .

ب) ـ درجة تحديد علوم اللسان العربي كما وضعها علماء اللغة ، اعني علم اللغة وعلم النحو وعلم البيان بفروعه ثم علم الأدب . وذلك في الفصل الخامس والأربعين (في علوم اللسان العربي) .

ج) ـ درجة النظرية الخلدونية في اللغة وفي كيفية تعلمها ، وهي معالجة في الفصول الممتدة من السادس والاربعين (في أن اللغة ملكة صناعية) الى الثاني والخمسين (في أن أهل الامصار على الاطلاق قاصرون في تحصيل هذه الملكة اللسانية التي تستفاد بالتعليم ومن كان منهم أبعد عن اللسان العربي كان حصولها له أصعب وأعسر) . وهذه الدرجة تمثل المجال الذي كانت نظريات ابن خلدون اللسانية فيه ثورية الى حدود تجعله أب علم الاجتماع اللساني بدون منازع .

د) والدرجة الأخيرة هي التي يعرض فيها ابن خلدون نظرية الفنون الأدبية وخاصة نظرية الشعر ، ويخصص ابن خلدون لهذه الفنون باقي فصول الباب السادس ، اعني الفصول الممتدة من الثالث والخمسين الى الستين ، وفيها محاولة للدفاع عن أدبية الآداب الشعبية غير الناطقة بالفصحى والمستعملة لعاميات بعض البلاد العربية مشرقا ومغربا ،

متجاوزا بذلك المفهوم التقليدي لمفهومي الشعر والدلالة البلاغية غير المقصورين عنده على الفصحى المتميزة بالاعراب .

II . 2 . ان هذه المستويات المختلفة في معالجة ابن خلدون لمنزلة علوم اللسان في سلم العلوم واجبة الاعتبار لكي نحدّد هذه المنزلة وندرك التجديد الذي أضافه ابن خلدون في مجال علوم اللسان . ذلك ان المستوى الأول الذي اصطلحنا على تسميته بالمستوى المنهجي الابستمولوجي يحدد دور اللسان وعلومه في المعرفة عقلية كانت أو نقلية ، فإذا كانت علوم اللسان مثلها مثل فروع المنطق من العلوم المساعدة أو الأدوات في العلوم العقلية وجب الحد من الغوص فيها حتى لا يتوقف الطالب عند الوسائل ويقف دون الغايات ؛ ذلك ان اللغة في العلوم العقلية أداة ثانوية ولا دخل للعجمة (جهل اللغة العربية) في صدق هذه العلوم اذ العلم العقلي يكون بأي لغة اتفق ؛ بل ان للعلم العقلي بما هو انساني فوق الملل (8) لغته الخاصة به ولعلها الرموز والعلائق الرياضية[9] .

لكن المسألة في العلوم النقلية بخلاف ذلك ، اذ ان العجمة عائق أساسي ، ذلك أن اللسان وعلومه من شروط علوم الشريعة فهما لنصها وتأسيسا لاستعمالاتها العملية والنظرية .

وأهمية هذا المستوى مزدوجة ذلك أن دور اللسان وعلومه في العلوم النقلية تجعل علوم اللسان منصبة على لغة بعينها ساعية الى تحديد قوانين وضع لغوي مخصوص ، قوانين لغة أمة معينة هي في هذه الحالة اللغة العربية : فلا تكون علوم اللسان عندئذ الا من العلوم النقلية لاقتصارها على تشريع لغوي مخصوص وعدم درسها لظاهرة اللغة عامة ، وبهذا المعنى تصبح علوم اللسان جزءا من العلوم النقلية التي تستعملها أداة .

لكن دور اللسان وعلومه في العلوم العقلية من جنس مغاير : فليس المهم معرفة وضع لغوي مخصوص - وان كان ذلك ضروريا لتعلم العلوم بالنسبة الى المبتدىء - بل المهم معرفة العامل اللغوي بصورة عامة من جهة الخصائص المنطقية المشتركة لجميع اللغات وهو ما يجعل اللغة من توابع المنطق ، فلا تكون بذلك ظاهرة متميزة قابلة للدراسة العلمية المتميزة عن المنطق رغم كون التبعية الحقيقية هي تبعية المنطق للغة ، لا تبعية اللغة للمنطق شريطة فهم العلاقة في مستواها الحقيقي ، اعني مستوى اللغة الطبيعية بصورة عامة (لا لغة خاصة بقوم) اعني الكلي في الرمز اللغوي الذي هو عينة المنطق . وما فساد تصور هذه العلاقة الا من نتائج صدف التاريخ الذي ربط المنطق بلغة مخصوصة هي لغة المنظرين لخطاه الأولى أعني اللغة اليونانية ، وذلك ما يجعلنا نفهم اعتبارا ابن خلدون للمنطق واللغة من العوائق الفعلية للمعرفة العقلية[10] .

أما المستوى الثاني ، مستوى علوم اللسان العربي فهو بهذا المعنى منتسب الى العلوم النقلية أو بصورة أدق ، انه مستوى العلوم اللغوية الخاصة بوضع مخصوص هو الوضع اللساني العربي الذي يشارك في الكلي من حيث هو وضع

لساني ولكنه نقلي لكونه خاصًا بأمة هي واضعة ذلك اللسان ، بحيث ان الوضع اللغوي المخصوص مثل الوضع الشرعي من حيث هما وضع مخصوص ـ من الموضوعات النقلية .

وبذلك يبقى الكلي في اللسان وعلومه من مشمولات علم جديد لم يكتشف بعد لكونه ينتسب الى مجموعة العلوم الاجتماعية التي يمثل علم العمران البشري نظام عقدها ومبدأ وحدتها : وهذا التجاوز لما هو نقلي تابع (للعلوم النقلية) وعقلي تابع (للعلوم العقلية المعروفة عندئذ) نحو ما هو عقلي قائم بذاته في الظاهرة اللسانية هو الذي يمثله المستويان الثالث والرابع في معالجة ابن خلدون للسان وعلومه : مستوى نظرية اللغة ومستوى نظرية الفنون الأدبية العربية خاصة والانسانية عامة .

فابن خلدون يحدد في المستوى الثالث نظرية الملكة اللغوية والفرق بين المعرفة اللغوية والانجاز اللغوي والعلاقة بين اللغة الأم واللغات المكتسبة بعدها والطابع الاكتسابي للغة . وهو يحدد في المستوى الرابع فنون الكلام عند العرب وعند غيرهم مركزا على ان التمييز بين الفنون الأدبية يكون بالشكل والمضمون معا وان كل اللغات لها فنونها الادبية بحيث ان الأدبية (كون القول أدبيا) رغم كونها ذات علامات مختلفة من لسان الى آخر مثلها مثل النحوية (كون القول ذا بناء نحوي سليم) والشعرية (كون القول شعريا) والبلاغية (كون القول مؤديا للمقصود) موجودة في كل اللغات .

III ـ وحدة الباب السادس في الميزان

III . 1 . يبدو اللسان وعلومه والفنون الأدبية دخيلة على مادة الباب السادس التي يحددها عنوانه كما يلي : « في العلوم وأصنافها والتعليم وطرقه وسائر وجوهه وما يعرض في ذلك من الأحوال وفيه مقدمة ولواحق » . فالمادة هي اذن العلوم بصنفيها والتعليم وطرقه . وكنا قد أبنا في الفصل الأول من هذا البحث ان علوم اللسان ليست من العلوم العقلية ولا هي من العلوم النقلية . كما انه لا شيء يبرر ضمها الى التعليم ، اذا البحث في اللسان والفنون الأدبية أتى متأخرا على مسألة التعليم الذي تلا الحديث عن العلوم بصنفيها وتعلق بنظرية التربية التعليمية للعلوم دون تخصص المسألة اللغوية بخصائص تجعلها تابعة للتعليم : « في وجه الصواب في تعليم العلوم وطريق افادته » (الفصل 37) . أما الفصول الاربعة الأخرى المتعلقة بالتربية فهي لا تحتوي عما يجعل اللسان وعلومه تابعة لمسألة التعليم وبذلك يتضح ان مسألة اللسان وعلومه والفنون الأدبية وعلومها ليست من مادة الباب السادس في قسمها الأول (العلوم بصنفيها) اذ لو كانت كذلك لوصفت مع أحديهما وبعديهما؛ وليست تابعة للقسم الثاني منها (التعليم والتربية اذ هي جزء من محاولة دراسة ظاهرة

العلم والتعليم دراسة اجتماعية في المجتمع العربي خاصة والمجتمع الانساني عامة : بدءا بعلاقة العلماء بالسياسة وأغلبية الأعراق الأجنبية على العلم العربي وختما بدراسة ظاهرة اللغة وعلومها والفنون الأدبية وعلومها .

III . 2 . لكن الحجة الأهم على عدم انتساب المسألة اللغوية الى مادة الباب السادس حسب خطته التي حددها العنوان وعلاقة الباب السادس بالابواب الخمسة السابقة ـ تتمثل في كون ابن خلدون قد خالف التقليد الفلسفي الذي يجعل من اللسان وعلومه متقدما في الزمان ومتأخرا في الأهمية على العلوم الأخرى : ذلك ان اللغة وعلومها كشرط وأداة أو كفنون انشائية كانت وما تزال عند كل الفلاسفة من توابع المنطق واستعمالاته وهي تدرس مقدمة للمنطق أو تطبيقا له لا غير[11] . أما وضعها في آخر المقالة السادسة وتمييزها عن البعد النقلي والبعد العقلي التابعين فذلك دليل قاطع على انفصال واضح بين موضوعي البـاب السادس الصـريحين (العلوم والتعليم) وهـذا الملحق الذي يصعب تحديد طبيعته ومنزلته بين العلوم في النظرية الخلدونية .

ولعل ما سنحاوله الآن في الفقرة الثانية من هذا الفصل سيمدنا ببداية جواب حول منزلة اللسان وعلومه في تصنيف العلوم الخلدوني نسعى في الفصل الاخير من هذه المحاولة الى تدعيمه بتحديد طبيعة الدراسة الواردة في هذا الملحق لمادة الباب السادس . فالمعلوم ان تنزيل العلوم والتعليم في الباب السادس علته خطة المقدمة نفسها ذلك أن توفر الشروط الطبيعية والمناخية الملائمة والشكل الأول من المعرفة التي تنتسب الى الفطرة وتستغني عن تراكم الخبرة (الباب الأول) يولدان الشكل الأول من الاجتماع أو الاجتماع البدوي (الفصل الثـاني) الذي يؤدي صراع العصائب فيه والحاجة الى الوازع الى تكون الدولة (الباب الثـالث) شرط تكـون الشكل الثـاني من الاجتماع الانسـاني أو الاجتماع الحضري (الباب الرابع) بما يحتويه من صنائع وحرف (الباب الخامس) وبذلك تتوفر ذروة العمران أعني العلوم والتعليم موضوع البـاب السادس ، وخاصية الانسان النوعية . أفلا يكون اللسان وعلومه والفنون الأدبية وعلومها جزءا من هذه الذروة بنفس المعنى الذي تكون العلوم بصنفيها والتعليم جزءا منها ويكون ذلك كله خاصية الفكر الانساني النوعية .

لكن المطلع على الربط بين أواخر فصول الباب الخامس وأوائل فصول الباب السـادس يعلم ان التعليم والعلوم ذروة بمعنى كونهمـا من درجة ثـانية من الصنائع التي تنمو وتتكون في الشكـل الثاني من العمـران ، اعني العمران الحضري وتنعدم في الشكل الأول ، في حين ان اللسان والفنون الأدبية لا يخلو منها أي مجتمع في أي مرحلة من مراحل نموه[12] .

وبالفعل فان العلوم العقلية الواردة في الباب السادس تمثل ، بعد تصفيتها من جزئها العقائدي[13] ، توابع للصناعات الآلية وللفعل في الطبيعة كما يحدده الباب الخامس وهي تنظير لها ودرجة ثانية منها على مستوى التعليم القولي أما

العلوم النقلية الواردة في الباب السادس فتمثل توابع للمارسات الرمزية والفعل في الانسان كما يحدده الباب الثالث ، اعني توابع الدولة والتشريع والتنظيم السياسي والقانوني للحياة الاجتماعية[14] . وبعبارة أدق وأوضح تمثل العلوم العقلية نظرية الفعل في الطبيعة والانسان بما هو طبيعي والعلوم النقلية نظرية الفعل في الانسان وفي الطبيعة بما هي اجتماعية ؛ وهي اذن لا تعكس الانسان ككل بل احد ابعاده معزولا عن ابعاده الأخرى ، البعد التكنولوجي في الأولى والبعد الايديولوجي في الثانية .

وإذا كان ابن خلدون قد ميّز في العلوم العقلية لعصره بين ما هو علمي فيها وما ليس بعلمي لكونه عقائديا أو نقليا خاصا استعاره الفلاسفة من العلوم النقلية وذلك بمعنين : من خلال اهمال ذكر الفلسفة العملية والفلسفة الانشائية ومن خلال نقد الفلسفة النظرية ، فان المقدمة وظيفتها جعل هذه العناصر العقائدية ترتفع بالتدريج الى مصاف العلم ، علم الانسان أو علوم الاجتماع الانساني : بحيث ان المقدمة تأتي تعويضا للعلوم النقلية (اذ التشريع النقلي يعوضه التشريع العقلي أو علم السياسية الوضعية) وتعويضا لما ظل نقليا في العلوم العقلية (اذ الفلسفة العملية يعوضها علم العمران البشري والاجتماع الانساني) .

ان نسبة العلوم العقلية الى التكنولوجيا باعتبارهاتنظيراللفنون الآلية وللفعل في الطبيعي من الطبيعة والمجتمع ، ونسبة العلوم النقلية الى الايديولوجيا باعتبارها تنظيرا للفنون الرمزية وللفعل في الانساني من المجتمع والطبيعة ، تجعلان هذه العلوم دون ظاهرة اللسان والفنون الأدبية تمثيلا للانسان في وحدته وكليته أعني تمثيلا للمجتمع ككل اعتبارا لكون اللغة والفنون الأدبية شرطا في الوجود الاجتماعي نفسه قبل الوصول الى الحاجة الى الفنون الآلية والفنون الرمزية المتعلقة بالسلطة على الطبيعة والانسان وهي أسمى تعبيرات المجتمع عن نفسه في جميع مراحله وفي كلا شكليه البدوي والحضري .

ان عدم انتساب مسألة اللسان وعلومه والفنون الأدبية وعلومها الى مادة الباب السادس يجعلها اذن من المحاولة الخلدونية الساعية الى عدم الاقتصار عما هو تابع للمنطق (تبعية للعلوم العقلية) ولعلوم العربية (تبعية للعلوم النقلية) وتجاوز هذه التبعية نحو دراسة الظاهرة اللسانية دراسة علمية ذات طابع فريد ، أعني علم اجتماع اللغة وفنون الأدب .

واذا صح هذا الفهم ، فان مادة الباب السادس تصبح مادة مزدوجة ، إحداهما تتعلق بالعلوم والتعليم والثانية تنتسب الى دراسة الظاهرة اللسانية والفنون الأدبية بداية من الفصل السادس والأربعين (في أن اللغة ملكة صناعية) الى نهاية الباب السادس (في أشعار العرب وأهل الأمصار لهذا العهد)[15] .

IV . علم اجتماع اللسان والأدب

IV . 1 . ما هو اذن المنظار الخلدوني لظاهرة اللسان والفنون الأدبية وما هو هذا التناول الجديد للظاهرة اللسانية بصورة مخالفة لاعتبارها تابعة للمنطق (العلوم العقلية) أو للتأويل (العلوم النقلية) ؟

تتمثل المعالجة الخلدونية في تحديد طبيعة الظاهرة اللغوية (الفصل 46 : في أن اللغة ملكة صناعية) وهي اذن من الفنون الرمزية الكلية التي تشترطها كل الفنون الأخرى آلية كانت أو رمزية وهي ظاهرة تاريخية حية تتطور بتطور المجتمعات بدون إشارة الى اتجاه التطور إشارة معيارية ، أي ان ابن خلدون لا يعتبر الابتعاد عن الفصحى انحطاطا أو فقدانا للطابع اللغوي ، بل تصبح عنده انتقالا الى لغة مغايرة لها خاصيات اللغة .

(الفصل 47 : مغايرة لغة العرب [الاعراب] لهذا العهد للغة مضر وحمير) والفصل 48 : لغة أهل الحضر والأمصار لغة قائمة بنفسها مخالفة للغة مضر) وينتهي في هذا الباب الى بيان كيفية تعلم اللغة الميتة (لغة مضر) بحفظ النصوص وبالتمييز بين الانجاز اللغوي (الملكة) والمعرفة اللغوية (صناعة العربية) : الفصلان 49 و50 ، ووظيفة اللغة : التواصل والتبليغ تبليغ ، تبليغ القصود .

لكن الفصل الأهم الذي يبين التفسير الاجتماعي للظاهرة اللغوية باعتبارها مواضعات الأقوياء والمتغلبين في كل مجتمع عيني على الخصوص ثم بين المجتمعات عامة وأعني الفصل الثاني والعشرين من الباب الرابع : في لغات أهل الأمصار » وبهذا الاعتبار تصبح اللغة وثيقة الاتصال بالظاهرة الاجتماعية في وحدتها وكليتها وخاصة بحركية توازن القوى الاجتماعي بين العصائب وتداولها على الحكم وحركية الاختلاط بين الأقوام والعصائب .

IV . 2 . أما نظرية الفنون الأدبية فيشرع ابن خلدون في وضعها بتحديد مفهوم الذوق وعلاقته بما سبق تحديده من خصائص اجتماعية لظاهرة اللغة ولنظرية التربية في تعلمها .

ومثلما فعل بالنسبة الى اللسان ميّز ابن خلدون بين ما ينتسب من الفنون الأدبية الى الاجتماع البدوي وما ينتسب منها الى الاجتماع الحضري العربيين المعاصرين له وكذلك ما ينسب الى لغة مضر التي يعتبرها بقيت كصناعة نظرية في علوم العربية وعند بعض علماء الدين وحفظة القرآن دون أن تكون لغة الحياة اليومية في المجتمعات البدوية والحضرية لعهده .

ويؤكد ابن خلدون على كلية الظاهرة الشعرية التي لا يخلو منها مجتمع مهما كانت لغته ناسبا البلاغة الى كل لغة ونافيا اقتصارها على اللغات الاعرابية .

والفصل الذي يدرس منزلة الشعر في الحضارة العربية بحسب تطور وظيفته فيها هو الذي يحدد طبيعة هذه الدراسة التي تحتوي لذلك على بعض الفنيات

المتعلقة بطبيعة الظاهرة الشعرية (في أن صناعة النظم والنثر انما هي في الألفاظ لا في المعاني) وبكيفية اجادتها (في أن حصول هذه الملكة بكثرة الحفظ وجودتها بجودة المحفوظ) . ذلك ان الفصل التاسع والخمسين الذي ينهي الدراسة – اذ أن الفصل الستين يأتي بالنماذج لا غير – يدرس تحول وظيفة الشعر وانتقاله من طبقة أهل المراتب الى الكدائين : « في ترفع اهل المراتب عن انتحال الشعر » مفسرا تغير وظيفة الشعر وانتقاله من أولئك الى هؤلاء بأسباب ايديولوجية وسياسية ولسانية : نزول القرآن (بسبب عقائدي) ووجود الدولة (سبب سياسي) وعجمة الملوك (سبب لساني)

الخاتمـــة

وهكذا يتضح بالسلب والايجاب أن كلام ابن خلدون في اللسان وعلومه والفنون الأدبية وعلومها ، رغم وروده في الباب السادس ، ليس من مادته وأنه يعسر أن تجد لهذه المسائل منزلة واضحة بين العلوم بصنفيها أو ضمن ظاهرة التعليم ، رغم كون اللغة والفنون الادبية مثل كل الصناعات موضوع تعلم وتعليم لاشك في ذلك .

وإذا كان السلب شديد الوضوح ، فان الايجاب يبدو غير قاطع لأن محاولة ابن خلدون دراسة هذه المسائل من جنس مخالف لما درج عليه علماء اللغة والفلاسفة لم يصلب عودها ولم تكتمل بل كانت بداية طريق الدراسة الاجتماعية للظاهرة اللغوية والفنون الأدبية . وما محاولتنا هذه الا سعي متعثر ، اذ هي خطوة أولى ، نحو تحديد منزلة الظاهرة اللسانية والفنون الادبية في علم العمران البشراني والاجتماع الانساني الخلدوني .

الهوامش والمراجع

(1) عندما نحدّد دور اللسان في الفكر العربي في عهده الاسلامي ، فاننا نؤكد على نسبة هذا الدور لمرحلة من مراحل الفكر العربي ، أعني مرحلة العهد الاسلامي حيث كان العامل المحدد لكل ما عداه من العوامل هو النص القرآني وما يتعلق به من سنة وحديث نافين بذلك تقدم هذا الدور قبل العهد الاسلامي وبعده . وإذا كان الحديث عما قبل العهد الاسلامي غير محرج ولا يثير جدلا يذكر للتسليم بأن للعرب حضارة متقدمة على الاسلام ، فان اعتبار الحضارة العربية لها ما بعد الاسلام فيه ادعاء يحتاج الى دليل ونحن لا نعني بما بعد الاسلام موت الاسلام في المجتمع العربي ؛ فهو ما يزال الدين الرسمي للدول العربية والعقيدة الحقيقية لغالبية سكانها ؛ بل نعني فقط انه لم يبق بنصه العامل المحدد لما عداه من العوامل ؛ بل ان جل مظاهر الحياة تجري خارج اطار الشريعة الاسلامية حتى

وان لم تكن ضدها ومعنى ذلك ان التشريع الاسلامي انتقل من كونه محددا لوجود الحياة الفردية والجماعية تحديدا موجبا الى مجرد التحديد السلبي أعني أن العرب اليوم يكتفون بعدم معارضة الاسلام صريحا فقط ولا يحيون به مما جعل الفقهاء اليوم تقتصر مهمتهم في تبـرير سلوك الدولة والافتاء بعدم التعارض مع الدين لا غير .

العهد الاسلامي من الحضارة العربية هو اذن العهد الذي كان فيه النص القرآني محددا ايجابيا للحياة الفردية والجماعية في المجتمع العربي وهو عهد ينتهي عند بداية النهضة وتقدم دواعي الحياة الدنيا على الحياة الأخرى في العقيدة الرسمية وعقيدة النخبة على الأقل : وفي هذا العهد الاسلامي كان النص القرآني والحديث المحددين النصيين ومن ثم كان للمحرر اللساني وعلومه الدور الأول في صياغة بنية العقل العربي ، وحتى الفلسفة اليونانية والعلوم العربية لم تتمكن من التخلص من هذا المحدد راجع في ذلك دراستنا حول مفهوم السببية عند الغزالي ، الصادرة بتونس سنة 1978 وسنة 1985 الطبعة الثانية .

(2) الفارابي ، كتاب الحروف ، الباب الثاني الفصل 22 : صوت الصنائع .

(3) في الفصل الرابع من الباب السادس (في اصناف العلوم الواقعة في العمران لهذا العهد) يربط ابن خلدون العلوم اللسانية بالعلوم النقلية قائلا : « تمّ النظر في القرآن والحديث . لابـد ان تـتـقـدمـه الـعـلـوم اللـسـانـيـة لانـه مـتـوقـف عـلـيـهـا وهـي أصـنـاف فـمـنـهـا عـلـم اللغة وعلم النحو وعلم البيان وعلم الأدب حسبما نتكلم عليها كلها » (المقدمة ، طبعة دار الكتاب اللبناني ، الطبعة الثالثة بيروت 1967 ص 781) مما قد يفرغ اشكالية بحثنا من كل مدلول . لكن هذا الربط لو كان على المعنى الذي ينفي اشكاليتنا لجعل في هذه البحوث مع العلوم النقلية وقبل العلوم العقلية ثم لاقتصر البحث على علوم اللسان بما وضعها علماء العربية ولما تجاوز ذلك الى الفصول الثمانية الأخيرة من الباب السادس ، لذلك ميزنا في دراسة اللسان بين ما هو تابع للعلوم العقلية لذلك العهد (علاقة اللسان بالمنطق) وما هو تابع للعلوم النقلية لذلك العهد (علاقة اللسان بفهم النص وتأويله) من جهة وما هو من المسألة اللسانية في ذاتها وهو موضوع علم اجتماع اللسـان وعلم نفسه ، وعلم تربية وهي كلها فروع من اعتبار الظاهرة اللسانية بما هي مكون من مكونات الاجتماع الانساني له ما للعلوم والصناعات والمدن والدولة والعمران البدوي والعمران على الجملة (الابواب الستة) من الاستقلال والقيام بالذات مما يجعل المقدمة بحاجة الى باب سابع موضوعه اللسـان وعلومه والفنون الأدبية وعلومها وتجمع فيه جميع الفصول الدارسة للظاهرة النسانية في مظاهرها المستقلة عن المنطق (التبعية للعلوم العقلية) وعن التأويل (التبعية للعلوم النقلية) .

(4) يوازي عدم ذكر العلوم العملية في تصنيف العلوم الخلدوني نفيه لعملية السياسة المدنيـة واعتبارها حكما ومثاليات وهمية وليست دراسة للمجتمع بمقتضى طبعه وهو يكرر الحديث في ذلك عند تحديده لموضوع علمه الجديد تم عند تمييزه للسياسة عن الفلسفة العملية في السياسة المدنية وعن السياسة الدينية .

(5) وقياسا على العلوم العملية الفلسفية التي يهملها ابن خلدون لعدم التسليم بعلميتها يمكن ان تقول ان عدم ذكر العلوم الانشائية الفلسفية (أعني الجدل والخطابـة والشعر) مـرده الى نفي علميتها والى سعيه الى تعويضها بعلم اجتماع الفنون الادبية مثلما سعى الي تعويض السياسة المدنية بعلم الاجتماع الانساني والعمران البشري بحسب قوانينه الطبيعية له .

(6) الفصل 37 : في وجه الصواب في تعليم العلوم وطريق افادته ـ الفكر الانساني ثم الفصل 38 : في أن العلوم الآلية لا توسع فيها الأنظار ولا توسع المسائل وأخيرا الفصل 44 : في أن العجمة إذا سبقت الى اللسان قصرت بصاحبه في تحصيل العلوم عن أهل اللسان العربي .

(7) ما نطلق عليه مفهوم الانسان هنا هو ما كانت تسعى الى ادراكه الفلسفة العملية والفلسفة الانشائية اللتان يرفضهما ابن خلدون بوصفهما غير علميتين ويسعى الى تعويضهما بعلم جامع هو علم العمران البشري والاجتماع الانساني أعني العلم المنظم لكل علوم المظاهر الاجتماعية ، راجع في ذلك كتابنا الاجتماع النظري الخلدوني والتاريخ العربي المعاصر ـ تونس 1983 (الدار العربية للكتاب) .

(8) المقدمة ، الباب السادس الفصل التاسـع عشر : « وأما العلوم العقليـة التي هي طبيعية

للانسان ، من حيث انه ذو فكر فهي غير مختصة بملة بل يوجد النظر فيها لأهل الملل كلهم ويستوون في مداركها ومباحثها وهي موجودة في النوع الانساني منذ كان عمران الخليقة » ص 888 .

(9) يوازي تحذير ابن خلدون من غوائل المنطق تنويهه بدور الرياضيات في تكوين العقل وتصويبه واعداده للمعرفة السليمة (فصل العلوم الهندسية ؛ والفصل السابع والثلاثون في وجه الصواب في تعليم العلوم وطريق افادته ـ الفكر الانساني) .

(10) وبيِّن أن اللغة والمنطق (الفصل 37) يعد ان عانقين بوصفها لغة طبيعية معينة ومنطقا بدائيا هو الشكل الأرسطي من المنطق لكن العلم ليس الا لغة ومنطقا بمعنى كونه لغة غير طبيعية بل اصطناعية ومنطقا مطبقا أو رياضيات وتكنولوجيا .

(11) المعلوم ان دراسة اللسان في الفلسفة لم تكن من العلوم المستقلّة أو التي يعتد بها : فاللسان يدرس اما من حيث دور الالفاظ (في الحد) أو دور القضايا (في القياس) كمقدمة أو يدرسها من حيث دوره في الجدل والخطابة والشعر كتطبيق للمنطق وهو ما لا يعني ابن خلدون في دراسته هذه .

(12) أواخر فصول الباب الخامس من الصناعات التي تؤدي دورا رئيسيا في العلم والتعليم (الخط والوراقة والغناء والكتابة والحساب) وأوائل فصول الباب السادس من الصناعات كذلك وخاصة الفصل الثاني في أن التعليم للعلم من جملة الصنائع .

(13) وتتمثل تصفية العلوم العقلية مما هو ايديولوجي فيها في عنصرين هامين أحدهما هو غياب « العلوم العملية » وثانيهما النقد الموجه للاستعمال الايديولوجي للعلوم النظرية في الميتافيزيقا والتنجيم والسيمياء .

(14) والعلوم النقلية من التوابع السياسية بمعنيين : فهي من وضع الشارع إلهيًا كان أو وضعيا وهي تتعلق أساسا بتنظيم الحياة في أبعادها الخلقية والسياسية .

(15) والمقصود بالعرب في المقابلة مع الامصار ، أهل العمران البدوي في مقابلتهم لأهل المجتمع الحضري .

الصّهيونية والاستعمار الأستيطاني

وجيه قاسم (فلسطين)

ما هي الصهيونية : الصهيونية عقيدة سياسية تهدف الى اعادة تجميع اليهود في أرض اسرائيل وإعادة بناء هيكل سليمان تمهيدا لنزول السيد المسيح على الأرض لنشر العدل فيها مستخدما في ذلك قومه اليهود لتحقيق رسالة السماء وليعيش الناس ردحا من الزمن في سعادة تامة قبل مجيء القيامة ، ولتحقيق هذا الهدف لابدّ من تهجير اليهود من بلدانهم الأصلية الى فلسطين واستخدامهم في استعمار البلاد وتهويدها ، تحقيقا لأوامر الله . مهما كانت الوسائل .

وقد تغلغت هذه الأفكار في المناخ الثقافي والديني الاوروبي والبروتستانتي منه بوجه خاص ، بعد قيام حركة الاصلاح الديني ، حيث أدخلت للمذهب الجديد جميع المفاهيم التوراتية . من عودة شعب الله المختار ، واقامة الهيكل ، تمهيدا لعودة المسيح ، وأصبح كل ذلك جزءا من العقيدة البروتستانتية . **كما أصبح الكتاب المقدس جزءين : العهد القديم وهو التوراة والعهد الجديد وهو الانجيل** . وبدأت المقولات الدينية تتغلغل في المناخ الأدبي والثقافي في جميع أنحاء القارة الاوروبية ، وأصبحت هذه الافكار مصدرا تراجيديا ملهما للأدب والفن مثلها مثل المآسي التراجيدية اليونانية ، ولم تؤخذ علىمحمل الجدّ لتحويلها الى واقع ملموس أولنتبينها كمشروع سياسي قابل للتطبيق العملي . بل ان مجموعة المقولات الدينية التي صاغتها مجموعة من قدماء أحبار اليهودية ، أثناء السبي البابلي ، والمقصود بها أصلاً محاولة الابقاء على التماسك الداخلي والحماية من الذوبان في بلاد السبي ، بقيت مقولات ذات مضمون رمزي أكثر منها شعارات للتطبيق العملي ، يقصد بها غالبا العودة الروحية الى القيم الدينية والأخلاق التوراتية ، بل أن بناء الهيكل

لم يكن يفسّر الا على أساس اقامة صرح الايمان في قلب المؤمن بل إن **عبارة « شعب الله المختار » كانت تفسر لدى كل من اليهود والمسيحيين على أساس العقيدة ، أي على أساس « التبعية الدينية » وليس على أساس قومي** ، وذلك على قاعدة ان أكرمكم عند الله أتقاكم » و « كنتم خير امة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر .

وخير ما يمثل هذا المفهوم الآن « الطائفة اليهودية » **المسماة ناطوركارتا »** أي حراس المدينة والذين نشر عنهم كتاب « يهود لا صهاينة » **تأليف روث بلاو زوجة حاخام الطائفة المتوفى « عمرام بلاو » وهذه الطائفة تعتبر انه لا يجوز الهجرة الى فلسطين بأهداف سياسية وان اقامة دولة اسرائيل الحالية مخالفة لارادة الرب لأنها قامت على سفك الدماء ، وان بناء الهيكل والعودة الى صهيون ليست سوى معاني رمزية للعودة الى الايمان الحق ، وان اقامة الدولة بسفك الدماء** سوف يؤدي الى انتقام إلهي يحل بالصهاينة الكفرة الذين اراقوا الدماء **باسم الارادة الالهية** ، وهم لا يعترفون باسرائيل ولا يحملون جواز سفرها ولا يتعاملون بعملتها وهم في صراع مستمر مع الدولة الصهيونية .

فمن أين أخذت الصهيونية أبعادها القومية علما بأن غالبية اليهود لا ينتمون الى قومية واحدة لا بالمفهوم العرقي ولا بالمفهوم الحضاري للكلمة ؛ وكيف أصبحت الصهيونية حركة قومية لتحرير اليهود من اللاسامية العالمية الملازمة للوجود اليهودي في الشتات ومن الذي نشر الوهم بأن اليهود مع اختلاف مساكنهم يشكلون امة واحدة وان اليهودية ليست دينا فحسب وانما هي قومية ايضا ؟ استعصت على الاندماج مع الأغيار ؟ للاجابة على هذه الأسئلة لابد لنا من الرجوع قليلا الى الوراء للاطلاع على تاريخ نشوء الفكرة الصهيونية من الذي صاغها ومن الذي عمل على ترويجها في الأوساط اليهودية وكيف جرى التآمر على الجاليات اليهودية لرميها في أتون الصراع الدولي لخدمة المصالح الاستعمارية الغربية في منطقة الشرق الأوسط .

الأهمية الاستراتيجية لفلسطين

شكلت فلسطين عبر التاريخ هدفا استراتيجيا لا غنى عنه لكل من أراد ان يحكم العالم ، أو أراد أن يكون القوة الرئيسية فيه – من سرجون الثاني الى اسكندر المقدوني – الى نبوخذ نصر – ومن قورش الفارسي الى تحتمس الفرعوني ومن هولاكو التتري – الى رتشارد قلب الأسد الصليبي ، ومن نابليون الفرنسي الى هتلر النازي . كل هؤلاء الفاتحين اتفقوا على شيء واحد وهو ضرورة الاستيلاء على فلسطين لجعلها مركزا للانطلاق لاخضاع الكرة الأرضية لسلطانهم ومن خلال موقعها هذا فقد شكلت فلسطين بوتقة لتلاقح الافكار في

العالم القديم مما جعل اهلها يتميزون بنوع من التقدم والرقي الفكري الذي جعلهم أهلا لتسلم الرسالات ومصدرا لاشعاع الافكار الكبرى في العالم .

كما ان الأديان الكبرى لم تكن بمنأى عن ادراك اهمية هذا الموقع الفذ فاحتلها اليهود القادمون من مصر منذ مئة وخمسين سنة الى ان سيطرت عليها الامبراطورية الرومانية المسيحية ، كما توجهت الحملات لفتح هذه البلاد منذ فجر الاسلام لتخليصها من المحتلين الرومان ، كما جندت أوروبا في العصور الوسطى خيرة فرسانها وأفضل امكانياتها للسيطرة عليها فيما عرف بالحروب الصليبية الى ان هزمهم صلاح الدين الايوبي في اواخر القرن الثاني عشر ، وجميع هذه الغزوات كانت تشكل باستمرار حافزا لسكان البلاد الاصليين وهم الكنعانيون العرب ، لكي ينهضوا بعبء المقاومة حتى تلحق بهم امتهم ، فما تلبث هذه الغزوات ان تتلاشى وتضمحل ، ولم تسلم فلسطين من الحروب ولم تتمتع بالاستقرار الا عندما كانت جزءا من مملكة قوية تشمل الغلاف الجغرافي بأجمعه وتؤمن العمق الاستراتيجي اللازم لصد أطماع الغزاة والفاتحين ، كما حصل أيام الدولة العباسية حيث ازدهرت التجارة الدولية ، وتأمنت طرق المواصلات بين الشرق والغرب وتواصل التقدم العلمي والاخصاب الثقافي والحضاري وحتى عندما اصبحت تابعة للدولة العثمانية ، واصلت فلسطين رسالتها ككعبة روحية لأصحاب الديانات السماوية الثلاث ، ضاربة أروع النماذج الانسانية في التعايش والتسامح والاخاء بين المؤمنين من جميع الديانات السماوية حتى ضعفت تركيا وأصبحت رجل أوروبا المريض ، فتحركت الأطماع الدولية في فلسطين من جديد وكانت حملة نابليون بونابرت عام 1798 م والتي فشلت بسبب عجزه عن احتلال عكا وعودته مهزوما الى بلاده .

الصهيونية والاستعمار الاوروبي

لم تكن أوروبا قبل عهد الاصلاح الدّيني تعتبر اليهود الشعب المختار الذي قرر له ان يعود للأرض المقدسة ، وكان اليهود يعتبرون مارقين ، ويوصمون بأنهم قتلة المسيح ، ولم تكن هنالك ذرة من حب عاطفي لهم ، كما لم تكن هناك أية فكرة عن اعادة بعث اليهود روحيا أو قوميا ، أو تملكهم لفلسطين فكانت الصهيونية غائبة تماما عن أوروبا في العصور الوسطى ، وكانت اسرائيل تعنى مجرد ذكر لديانة فقط ، حتى جاءت الحركة البروتستانية التي أعادت الاهتمام للمقولات التوراتية ومضامينها العقائدية ، وأصبح العهد القديم هو المرجع الأعلى للسلوك والاعتقاد ، وأصبحت فلسطين باعتبارها أرض الشعب المختار ماثلة في الخيال البروتستانتي ، وأصبحت أرضا يهودية في الفهم المسيحي في أوروبا ؛ وأصبح اليهود هم الفلسطينيون الغرباء وتسربت الروح العبرية الجديدة الى الفنون والآداب ، وتركت بصماتها على الحضارة

الاوروبية ، ومع كل هذا المناخ المفعم بروح العهد القديم لم يفكر أحد من المسيحيين بوضع هذه الافكار موضع التطبيق العملي لتحويلها الى صهيونية سياسية قائمة على تهجير اليهود الى فلسطين وتوطينهم فيها ، الى أن جاء نابليون في حملته على الشرق في آخر القرن الثامن عشر ، حيث فكر في استغلال اليهود والمناخ الديني في أوروبا وأصدر منشورا موجها الى اليهود في جميع انحاء العالم يدعوهم فيه الى استغلال فرصة انتصاره (المزعوم) في فلسطين للهجرة اليها واعادة بناء هيكل سليمان واقامة اسرائيل الثانية على ان تكون تابعة للامبراطورية الفرنسية وتنفذ السياسة الفرنسية في المنطقة ، الا ان هزيمة نابليون في عكا ، ومقتل نائبه في مصر في العام التالي ثم هزيمته عام 1815 في معركة واترلو وانتهاء الاطماع الامبراطورية الفرنسية قد جمدت هذه الدعوة ، علما بأن الدعوة الفرنسية لم تسجل اية استجابة لها في الأوساط اليهودية في أي مكان في العالم ، بل على العكس لقد أوجدت لدى الطوائف اليهودية الأوروبية تخوفا مما يحاك ضدهم قصد التخلص منهم في المنافسة الاقتصادية ضمن النظام الرأسمالي الذي بدأت دعائمه تترسخ في بداية عصر الاستعمار الاوروبي .

بريطانيا والصهيونية :

بدأت فكرة توطين اليهود في فلسطين تجد اهتماما واسعا في بريطانية بسبب ظهور محمد علي في مصر ، ومحاولاته الرامية الى اقامة امبراطورية عربية قوية ، تحل محل السلطنة العثمانية المتهالكة ، واستطاعت بريطانيا بالتحالف مع النمسا وبروسيا وروسيا وفرنسا ، وقف الزحف المصري وارغام محمد علي على سحب قواته من سوريا ، وحصر نفوذه بمصر يحكمها هو وأسرته وهكذا أجبرت مصر على توقيع معاهدة كامب ديفيد الأولى في تاريخها والتي حرمتها من القيام بوظيفتها القيادية التاريخية للامة العربية فتأخرت وتأخرت معها الأمة العربية مئة وخمسين سنة .

لقد أدركت بريطانيا ان وجود طائفة تعتمد عليها في بلاد الشام يعتبر أمرا في غاية الأهمية ، خاصة وان فرنسا تتمتع بحق حماية الكاثوليك ، وروسيا بحق حماية الأرثودوكس في الدولة العثمانية ، أمّا بريطانيا فلم تكن لها طائفة أو جماعة تتحيز لها أو تعتمد عليها في فلسطين ، وكان هناك مجموعة من غلاة الصهاينة البريطانيين غير اليهود الذين تبنوا هذا المشروع ، منهم اللورد شافتسبري الذي تربطه صلة النسب بوزير الخارجية « بالمرستون » حيث كانت جميع الظروف السياسية تستدعي ان يلقي بالا لمقولات هؤلاء السياسيين ويستمع لمشاريعهم ويتبناها . **ومن الجدير بالذكران اللورد شافتسبري هذا هو الذي وضع المبدأ الصهيوني الأساسي الذي بنيت عليه الدعاية**

الصهيونية « وهو ان « فلسطين أرض بلا شعب يجب ان تعود لشعب بلا أرض هو الشعب اليهودي » . وهي المقولة التي تدعو الى استعمار فلسطين واستيطانها بل وانكار وجود الشعب الفلسطيني ، هذه التنكر لوجود الشعب الفلسطيني ورفض الاعتراف به وبحقوقه الوطنية ، لا يزال - رغم ما يزيد على قرن ونصف من النضال والمعاناة - هو الموقف الذي يطبع السياسة الصهيونية والامبريالية تجاه المشكلة الفلسطينية .

قررت الحكومة البريطانية عام 1832 فتح قنصلية بريطانية لها في القدس « للحفاظ على مصالح بريطانيا » وعندها بدأ الحديث علنا عن وجوب حث اليهود على الهجرة الى فلسطين ، ولكن عدم وجود يهود يتبنون هذه الفكرة ، وعدم استعداد اليهود للهجرة الى فلسطين قد أخر فتح القنصلية البريطانية في القدس حتى عام 1838 ، حيث عين وليم يونج أحد غلاة الصهاينة البريطانيين غير اليهود بوظيفة نائب قنصل في القدس وصدرت له الأوامر منذ باشر عمله الى اعطاء الاهتمام بالرعايا اليهود في فلسطين وتقديم تقرير عنهم للحكومة البريطانية ، فكان اول ما قام به يونغ هو اجراء احصاء للمواطنين اليهود في فلسطين الذين بلغ عددهم حوالي تسعة آلاف وسبعمائة يهودي أعطاهم جميعا الجنسية البريطانية .

في هذه الفترة بدأ مشروع اللورد شافتسبري يتحول الى سياسة رسمية للدولة البريطانية وكثر عدد الشخصيات السياسية الصهيونية من بين رجالات الدولة الانجليز ، وبدأ بالمرستون بممارسة ضغط شديد على الدولة العثمانية للموافقة على مشروعه الصهيوني تمهيدا لاقناع اليهود بتبني افكاره الصهيونية ، وقد ارسل في أوغسطس 1840 م . تعليمات الى سفيره في الاستانة يدعوه فيها الى حث السلطان العثماني على السماح لليهود بالهجرة الى فلسطين واقامة مستوطنات لهم فيها ، وقد جاء في نص رسالة بالمرستون ما يلي : « ان عودة اليهود بدعوة وتشجيع من السلطان سيضمن عدم قيام مشاريع انفصالية من الممكن ان يقوم بها محمد علي او احد خلفائه . وانني اطلب منك باصرار ان تقنع الحكومة العثمانية بتقديم كل التشجيع اللازم من أجل عودة اليهود الى فلسطين . » غير ان محاولات بالمرستون وسفيره في الاستانة ذهبت ادراج الرياح ويعزو المؤرخ جيمس باركس هذا الفشل الى « كون اليهود الاوروبيين الغربيين مشغولين آنذاك بالكفاح من اجل تحررهم الاجتماعي والحصول على حقوقهم الدينية (في أوطانهم) وبالتالي فانهم لم يروا أهمية أو صلة وثيقة بين ما كانوا يعملون من أجله ، وبين بعث الأمة اليهودية من جديد بالمفهوم السياسي » .

ورغم تعدد الدعاة البريطانيين للمشروع الصهيوني مثل تشارلز هنري تشرشل الذي دعا الى احتلال فلسطين بالقوة العسكرية لتطبيق المشروع بالقوة المسلحة ، وادوارد سيتفورد الذي كان يعتبر من اخلص انصار بالمرستون « لما

يحققه ذلك من فوائد كبرى لبريطانيا يجعل الممرات المائية لمواصلاتنا البخاريه بين أيدينا كليا » . وكذلك الكولونيل جورج جولر الذي عمل حاكما لجنوب استراليا والذي قام بجولة في فلسطين عام 1949 قام خلالها بدراسة تفصيلية عن التجمعات اليهودية هناك .

وهكذا رغم رفض اليهود للفكرة الصهيونية حتى من منتصف القرن التاسع عشر فان ذلك لم يمنع الساسة الانجليز من خلق المبادىء الصهيونية والدعوة لها والعمل من اجلها من اجل المصالح البريطانية السياسية وذلك قبل وجود اي من الصهاينة اليهود بعشرات السنين .

الأمبراطورية الفرنسية والمشروع الصهيوني :

في منتصف القرن التاسع عشر اشتد التنافس الاستعماري بين بريطانية وفرنسا التي تمكنت عام 1854 من الحصول على امتياز شق قناة السويس واخذت تتصرف كما لو ان مصر اصبحت منطقة نفوذ لها . كما بدأ نابليون الثالث يعلن عن نيته في احتلال سوريا وفلسطين ، ولم تكن فرنسا أقل حماسا من بريطانيا لاقامة دولة يهودية في فلسطين تحت الحماية الفرنسية ، وانشئت في باريس « جمعية استعمار فلسطين » على غرار شركة الهند الشرقية لانشاء مستوطنات تجارية في فلسطين تتحول الى مستوطنات دائمة وفي عام **1860 دعا ارنست لاهران السكرتير الخاص لنابليون الثالث الى بناء الدولة اليهودية في فلسطين** ، ودعا رجال البنوك والتجار اليهود في العالم لفتح اكتتاب مالي يهودي عام يتيح لليهود المجال « لشراء وطنهم القديم » من الدولة العثمانية ، ان اخطر ما قام به ارنست لاهران بالاتفاق مع روتشيلد هو انشاء مدارس الأليانص التابعة للاتحاد الاسرائيلي العالمي ونشرها في جميع انحاء العالم اذ قامت هذه المدارس بـ :

1 ـ احياء اللغة العبرية واعادتها الى لغة التخاطب والتعامل بين اليهود بعد ان اخذت تتحول الى لغة مخطوطات فقط ، وبالتالي أوجد اللغة المشتركة بين جميع الطوائف اليهودية في العالم .

2 ـ تعليم اللغات الاوروبية لجميع الطوائف اليهودية في العالم حتى تصبح الطوائف اليهودية رصيدا أوروبيا قابلا للاستخدام من الغرب ضد مصالح وطنهم ومواطنيهم .

3 ـ تجهيل الأجيال اليهودية الشابة بلغاتها الوطنية مما يؤدي الى :

أ ـ قطع روابطها مع ابناء الوطن وابقاء الصلة فقط مع الاوروبيين واليهود .

د ـ قطع روابطها بماضيها وتراثها الانساني والحضاري الذي ساهم فيه اعلامها وادباؤها ، فنانوها ومؤرخوها ، مما يجعل منها أجيالا مقطوعة الجذور

لا يربطها أي رابط بالأرض التي تتواجد عليها سواء في الماضي أو الحاضر ، ومما يجعل عملية اقتلاعها منها عملية في غاية السهولة ومرهونة بالظروف المواتية .

وقد عملت هذه المدارس على صناعة جيل كامل من عام 1860 عام 1897 قابل لتحمل الفكرة الصهيونية بعد ان حقن في هذه المدارس بتربية صهيونية خلقت له تاريخا مزيفا مبنيا على حقائق مأخوذة من التاريخ بشكل مجتزأ وقدمت له على أنها تمثل التاريخ للأمة اليهودية ، كما قدم له ظموح زائف هو تحقيق المبادىء الصهيونية على أرض فلسطين ، هذا من جهة .

ومن جهة اخرى فقد قام ارنست لاهرات بتشجيع موسى مي على تأليف كتاب « روما والقدس » الذي يعتبر المنهل الروحي لجميع مفكري الصهيونية بما فيهم هرتزل في كتابه الدولة اليهودية لعام 1896 م .

غير ان الهزيمة التي منيت بها فرنسا على يد بسمارك عام 1870 م قد أزاحت فرنسا من ميدان المنافسة الاستعمارية في الشرق الاوسط وأخذ همها ينحصر في المغرب العربي أو تجنب الدخول في منافسة مع بريطانيا حول المستعمرات التابعة لها ، وجاء احتلال بريطانيا لمصر عام 1882 بعد حصولها على جميع اسهم قناة السويس وأحداث رومانيا ضد اليهود 1874 والمجازر الروسية ضد اليهود عام 1881 اثر اغتيال القيصر الذي ألصق باليهود ، كل ذلك أرجع زمام المبادرة في الشرق الأوسط الى يد بريطانيا ، التي عادت وتلقفت المشروع الصهيوني من جديد ، فنشر « لورنس أوليفانت » **كتابه ارض جلعاد عام 1883** بعد أن قام بزيارة فلسطين ، ثم نشر كتاب « **اليهود والمسألة الشرقية** » الذي دعا فيه الى ضرورة اقحام اليهود انفسهم في المشروع الصهيوني ، ثم ذهب الى روسيا واجتمع مع جمعية « **احباء صهيون** » بعد ان حصل على موافقة رئيس الوزراء البريطاني « دزرائيلي » ووزير خارجته لمفاوضة العثمانيين .

كما قام وليم هشلر من جنوب افريقيا ذو التابعية البريطانية بجمع التبرعات لتنفيذ الاستيطان الصهيوني في فلسطين ، وسعى للتعرف على هيرتزل ، وعمل بدوره على جمع رجال السياسة في أوروبا ، بعد ان ألف كتاب « **ارجاع اليهود الى فلسطين حسبما ورد في اسفار الانبياء** » وكان له دور كبير في التأثير على هيرتزل قبل نشر كتابه « **الدولة اليهودية** » وقبل عقد المؤتمر الصهيوني الأول في بال في مونيركتابه « **الدولة اليهودية** » **وقبل عقد المؤتمر الصهيوني الاول في بال** في سويسرا عام 1897 م .

ـ يتبين لنا من هذا السياق ان التنافس الاستعماري بين الدول الاستعمارية لم يكن قيام او عدم قيام اسرائيل كقاعدة للاستعمار الغربي في قلب الامة العربية ، وانما كان التنافس قائما بينها حول من يتولى مهمة انشاء اسرائيل المستقبل ، ولمن سوف تكون بعد قيامها . ومن الواضح اليوم بعد ان انتقلت مسؤولية حماية اسرائيل الى الولايات المتحدة

الامريكية بعد الحرب العالمية الثانية ، ان مسؤولية انشاء اسرائيل كانت ترتبط بمركز الدولة الاستعمارية ، فلاتضطلع بالمشروع الصهيوني الا الدولة التي تضطلع بمركز الصدارة بالنسبة للمعسكر الغربي بأجمعه ، فهي تارة فرنسا نابليون الأول أو بريطانيا بالمرستون أو فرنسا نابليون الثالث ، ثم بريطانيا دزرائيلي وبلفور وتشرشل ثم امريكا ترومان وجونسون وريغان . وهكذا فان الصهيونية كعقيدة استعمارية لغرس جسم غريب في قلب الوطن العربي ، لا تمثل المصالح الاستعمارية فحسب ، وانما تمثل جزءا عضويا هاما من النظام الاستعماري العالمي بأجمعه ، وصفته مجلة ميدل إيست ريفيو عام 1977 بقولها : ان اسرائيل من الغرب ، ومن صنعه ، وله ، سواء أحب الناس ذلك أم لم يحبوه .... فاسرائيل بقرارها التطور ، تحس وتشم وتبدو كبلد غربي ، وهي ليست كفيتنام .... انها ليست جزءا من المحيط الخارجي للغرب ، ولكنها لبّه !! ان اسرائيل هي نحن سواء أكان ذلك للافضل ام للأسوأ ، وحين تتصرف الولايات المتحدة وكأنّ ليس لديها مصلحة قومية في اسرائيل ، فانها بذلك تتخلى عن هويتها الدينية والاخلاقية والسياسية والثقافية » .

ان ذلك يتطابق مع ما قاله الاسرائيلي « عاموس بيرلميوتر » في 1978/5/5 أمام لجنة العلاقات الخارجية والأمن في الكونغرس الامريكي في مرافعته ضد بيع امريكا لصفقة سلاح للعربية السعودية ونقله محمود عوض في كتابه « وعليكم السلام » ص 193 اذ يقول : « ان اسرائيل مهمة استراتيجية للغرب ، ليست المسألة فقط انها تمتلك قوة عسكرية ، ان الاستراتيجية تعني انها في تطابق وتحالف وتواز مع نوع المصالح والترتيبات والتطلعات الموجودة لدى الشعب الامريكي » .

أما عن الدور الذي تضطلع به اسرائيل في خدمة الاستعمار الامريكي فقد عبر عنه شارون وزير الحرب الاسرائيلي السابق بقوله :

« من الضروري توسيع المصلحة الامنية الاستراتيجية الاسرائيلية بشكل يتجاوز الدول العربية الموجودة في الشرق الأوسط وعلى شواطىء البحر الابيض المتوسط والبحر الأحمر ، بحيث تشمل دولا كتركيا وايران وباكستان ومناطق الخليج الفارسي وافريقيا وخاصة افريقيا الشمالية والوسطى » .

الصهيونية اليهودية واسرائيل :

لم تأت قرارات المؤتمر الصهيوني الأول في سويسرا عام 1897 بشيء جديد على مستوى الأهداف والمبادىء الصهيونية سوى انها اعلنت عن قبول مئات من اليهود استلام المشروع الصهيوني ، الذي وضعت مبادئه وأهدافه قبل ذلك بعشرات السنين ، ولم تدخر الدول الاوروبية جهدا في سبيل تحقيقه على

الأرض ، حتى جاءت الحرب العالمية الأولى وتم اقتسام املاك الدولة العثمانية بمعاهدة سايكس/بيكون بين بريطانيا وفرنسا عام 1916 وتبعها بعد سنه وعد بلفور ، ثم الانتداب البريطاني على فلسطين عام 1923 واستخدمت بريطانيا كل نفوذها لتسهيل الهجرة اليهودية ، وتسهيل عملية الاستيطان الصهيوني في فلسطين ، من خلال تعيين هربرت صموييل أحد كبار الصهاينة البريطانيين كمندوب سام للانتداب في فلسطين ، مع كل ما اتبع من سياسات في صالح الحركة الصهيونية ، وتحقيق المشروع الصهيوني فوق أرضها . ولما كان المخطط الصهيوني يقضي بانشاء كيان أوروبي في وسط المشرق لتحقيق الاهداف الاستعمارية الغربية فقد تقرر ان يتولى اليهود الغربيون دائما مقاليد الأمور للسهر على تنفيذ الاغراض الاستعمارية في الوطن العربي ، ولابد من وجود الحجم البشري القادر على ضمان بقائها ذاتيا كامتداد للحضارة الاوروبية والوجود الاوروبي في قلب الأمة العربية ، باعتبار اسرائيل جزءا عضويا من الاستعمار العالمي ، وقد اقتضى ذلك فيما بعد ونتيجة امتناع غالبية اليهود الغربيين عن الهجرة الى فلسطين ، ان يوفر اليهود الشرقيون الطاقة البشرية اللازمة لاستمرار بقاء الدولة بحيث يشكلون القاعدة العريضة في أسفل السلم الاجتماعي للقيام بالأعمال اليدوية والمهن الدنيا دون ان يسمح لهم بالصعود في مراتب القرار السياسي ، وحتى نسبتهم في المجتمع تزيد عن 70٪ من السكان تمارس الاقلية الغربية ضدهم التمييز في جميع نواحي الحياة السياسية والاجتماعية والمهنية والسكنية والتعليمية وغيرها .

ورغم ان الصهيونية قد نجحت في احتلال 80٪ من فلسطين في عام 1948 وقامت بتنظيم المذابح ونجحت في تهجير السكان الفلسطينيين الى خارج ارضهم واملاكهم ونجحت في تهويد القسم الأكبر من ما استولت عليه واستقدمت لذلك المهاجرين الا انها فشلت في استقطاب اعداد كافية من يهود العالم للهجرة الى هذه الدولة الا من يهود البلاد الاسلامية الذين جلبتهم بالتآمر مع حكوماتهم ليشكلوا اليوم ما يزيد على ثلثي التجمع الصهيوني في فلسطين . ومنذ حرب 1973 ووكالات الانباء تحمل لنا من داخل الكيان الصهيوني اخبارا تعبر عن وجود ازمات اجتماعية حادة ، ابرزها تلك الأزمات الناجمة عن انخرام الامن الناتج عن استمرار الثورة الفلسطينية وتلك الازمات الناجمة عن الفجوة الاجتماعية التي تطبع الحياة في التجمع الصهيوني ، وذلك التمييز الذي يقسم التجمع الى قسمين : شرقي كادح ومسحوق وهو ما يسمى باسرائيل الثانية ، في مقابل « اسرائيل الأولى » المؤلفة من اليهود الغربيين الميسورين . ان هذا التقسيم لم يكن تقسيما طبيعيا ناتجا عن تطور طبيعي تاريخي للسكان ولوسائل الانتاج على أرض فلسطين ذلك ان السكان هناك اليوم ، عبارة عن تجمع كيفي لثقافات وعادات ولغات وجنسيات مختلفة زاد عددها على التسعين من ارجاء الكرة الأرضية ، فهم ليسوا شعبا بالمعنى المتعارف عليه للغرب ، ولا امة بالمعنى

المتعارف عليه للأمم ، أي انهم ليسوا افرادا متحدرين من أصول واحدة اقاموا على وحدة من الأرض ، واشتركوا في ممارسات تاريخية وتجارب انسانية مشتركة ، انتجت بتراكمها التاريخي خصائصها المميزة فكريا وحضاريا ، ادبا وفنا اعراقا ، وآمالا وطموحات منسجمة مع مصالحها المشتركة ، بل على العكس من ذلك انما وضعوا هناك خليطا متنافرا من نماذج حضارية وانسانية مختلفة ، حشرت في مآزقها لتلبي الحاجة لخدمة الاغراض الاستعمارية الغربية في المنطقة العربية لكل هذه الاسباب فقد توقفت الهجرة الصهيونية أو تكاد وأصبحت منذ عدة سنوات تدق نواقيس الخطر على ما يحمله ذلك من خطر على وجود الدولة ذاتها ، فقد كتب مئير برتيلي في جريدة داقار في 11/6/1986 ما نصه :

ان وجود اسرائيل مشروط بهجرة كبيرة ، والهجرة ليست امرا مرغوبا فقط ، ولا هي بالأمر الهام جدا فحسب وانما هي موضوع لا يمكننا العيش بدونه ، ان الهجرة هي الاكسجين الذي تتنفسه اسرائيل .... ولا مجال لتطبيق صهيوني اذا لم تكن الهجرة هي حجر الأساس في ذلك .... وفي كل الاحوال ، دون هجرة واسعة الابعاد ، فاننا سنواجه « مشكلة ديمغرافية » صعبة مهما كانت حدود اسرائيل ، وهذه البلاد سوف تكون يهودية فقط فيما لو جاء اليها ملايين اخرى من اليهود لأن المشكلة ليست في الحفاظ على غالبية ما بين السكان . وان ضرورة الهجرة في الحقيقة مصدرها لاننا لم نتوصل حتى الآن الى ما يسمى « **الكتلة الحساسة** » **اي حجم السكان اليهود الذين يمكنهم الابقاء على دولة يهودية على المدى الطويل . هذه هي المشكل الديمغرافية الحقيقية الخطيرة ، وليس العلاقة فقط بين عدد اليهود وعدد العرب** » .

ويقول يهو شعفاط هركابي في كتابه خيارات مصيرية :

« هنالك اليوم (في فلسطين) 000 348 طفل عربي مقابل 000 359 طفل يهودي من عمر اربع سنوات فما دون » وفي عام 1985 سجلت 000 81 ولادة عربية مقابل 000 75 ولادة يهودية » واذا ادركنا ان نسبة السكان اليهود في الضفة الغربية لا تزيد عن 4٪ بعد عشرين سنة من الجهد الحكومي والحزبي وجهد الوكالة اليهودية والمساعدات الامريكية للاستيطان ، واذا ادركنا ان الحكومة الصهيونية تعجز بكل مشاريعها ومؤامراتها عن ضمان التوازن الديمغرافي في منطقة الجليل المحتلة منذ عام 1948 والتي بلغت نسبة السكان العرب فيها 53٪ ؛ واذا ادركنا انه منذ عدة سنوات وميزان الهجرة يميل الى خارج فلسطين بمعدل 11 الف مهاجر سنويا وانه لم تفلح جميع جهود الوكالة اليهودية والمنظمة الصهيونية العالمية وحكومة اسرائيل بمنع النزوح عن البلاد ، وانه كما قالت رينه بارتال .... سكرتيرة الهندروث لجريدة هارتس في 29/2/1988 من ان 17٪ من الاكاديميين الاسرائيليين قد هاجروا من اسرائيل الى الولايات المتحدة الامريكية ، وان حوالي 200 اكاديمي اسرائيلي

يهجرون البلاد سنويا ، وبحسب احصاء اجرته جامعة حيفا ونشر في جريدة الوطن يوم 25/11/1987 فان 65٪ من المهاجرين الى الولايات المتحدة هم من اليهود الغربيين ، وان الغالبية العظمى للمهاجرين يبلغ سنهم ما بين 19/38 سنة ، وان 20٪ من الشباب في اسرائيل يفكرون في الهجرة النهائية من اسرائيل . ندرك كيف ان استمرار الكفاح المسلح الفلسطيني قد قلب النظرية اليهودية رأسا على عقب ، فبعد ان بنت الدعاية الصهيونية منطقها على ان لليهودي الملاحق باللاسامية في جميع انحاء العالم ، الحق في ان يعيش بأمان في دولته الخاصة به حيث يستطيع ان يمارس شعائره الدينية بأمان ، اثبت استمرار الرفض الفلسطيني لهذا الوجود الدخيل ان اليهودي يستطيع ان يكون أمنا في اي مكان في العالم اكثر منه في اسرائيل التي اغتصبها من سكانها الشرعيين ، مما عكس سيل الهجرة فأصبحت من فلسطين الى خارجها واصبحت تطلق على فلسطين الأرض الملعونة بدل ارض الميعاد وارض اللبن والعسل واصبحت الولايات المتحدة اكثر جاذبية لهجرة اليهود من فلسطين التي لا تربطهم بها سوى مجموعة من الأساطير التي لا تَمُتّ الى الواقع بصلة ..

يقول حاييم لانداو في عال همشمار في 9/6/1986 : « لم تعد الهجرة (من فلسطين) تقف عند سقط الناس كما قال رئيس الحكومة في السابق ، ولا هو نزوح داعرات ، ولا من رجال العالم السفلي ، وانما هو نزوح لأناس طيبين ابناء لأناس طيبين ، من المادة التي تكون منها المجتمع الاسرائيلي ، وعليها علقت آمال المستقبل المشرق » . ويضيف « والهجرة أيضا ـ ان كانت موجودة ـ شبيهة بما كانت عليه في مرحلة ما قبل الصهيونية حيث يأتي الشيوخ ليموتوا هنا ، ويأتي الفتيان للدراسة في المدارس الدينية ، ومن الاتحاد السوفييتي تأتي أقلية فقط ممن يخرجون من هناك ، وحتى الذين يأتون لا يستوعبون كلهم هنا ، وتصبح اسرائيل لهم بمثابة محطة انتقال الى الولايات المتحدة الامريكية » .

الخلاصة : نستطيع القول اذن ان الصهيونية لم تكن ايديولوجية شعب نحت وتطور نتيجة ممارسته التاريخية الطويلة على أرضه ، وانما هي في نشأتها وتطورها ليست سوى فكرة غربية ، أملتها الحاجات السياسية الاستعمارية لدول الغرب ، ثم جرى البحث عمّن يعتنقها من افراد الطوائف اليهودية في الغرب الاستعماري . كما نستطيع القول ان الصهاينة الأول الذين روجوا للفكرة واوجدوا لها مقومات تطبيقها كانوا ولما يزيد عن نصف قرن من الصهاينة غير اليهود . وان الصهيونية لم تنتشر بين اليهود الا بعد ان انشئت مدارس « الاليانص » التابعة للاتحاد الاسرائيلي العالمي ، والتي وحدت لغتهم وأحيت مواتها ، وزيفت تاريخهم ، وقضت على شخصياتهم القومية ، وقطعت جذورهم التاريخية والحضارية في أوطانهم ، وغربتهم عن مواطنيهم ، فقامت بصناعة جيل كامل مبتور الجذور في وطنه تمهيدا لاقتلاعه ونزعه الى أراضي غريبة عنه ، ينفذ فيها مصالح الاستعمار العالمي ضد السكان الأصليين الذين

هم الشعب الفلسطيني ، وقد احتاج هذا الأمر الى تنظيم المذابح ضد الجاليات اليهودية لاجبارها على الهجرة الى فلسطين . ومع ذلك ورغم نجاح الامبريالية العالمية في انشاء الكيان الصهيوني الاستيطاني منذ اربعين سنة ، الا انها مازالت عاجزة عن ترسيخ جذور هذا الكيان في الأراضي المغتصبة عام 1948 فأحرى بعجزها عن التواجد في الأراضي المحتلة عام 1967 . وبالرغم من ان هـذا الكيان قـد وصل الى درجـة الاشباع في تكـديس السـلاح والعسكـرة واستخدام الطاقة البشرية المحدودة لديه في خدمة المؤسسة العسكرية ، فان مقاومة الشعب الفلسطيني واستمراره في الكفاح المسلح الطويل النفس وصولا الى الثورة الشعبية العارمة التي يقودها اطفال الحجارة والعـزل من النساء والاطفال ، قد أوقعت هذا الكيان في ازمات بنيوية حادة لا فكاك له منها ، حتى اصبح يعاني اليوم من نضوب الهجرة وازدياد موجات النزوح وتفاقم ازماته الداخلية السياسية والاقتصاديـة والاجتماعيـة والاثنية بشكـل لم يسبق له مثيل ، وتفجرت نتيجة ذلك ازماته البنيوية ، وتناقضاته النابعة من كونه تجمع مهاجرين يضم فئات ومجموعات اثنية وعرقية تنتمي الى ما يزيـد على خمس وثمانين بلدا تتعايش في تجمع طفيلي يعيش أساسا على المساعدات الخارجية .

ان هذه المشكلات والتناقضات التي يفجرها بالدرجة الاولى انعدام الأمن الذي يخلقه استمرار الكفاح المسلح ، والتي تراكمت على مدى أربعـة عقود انمـا تجسـد الافـلاس السيـاسي والايـديـولوجي لهـذا المشـروع الاستعمـاري الاستيطاني ، وللحركة الصهيونيـة التي دخلت مرحلة الشيخـوخة قبل ان تستكمل بنيانها القادر على البقاء الذاتي والتي دخلت أزمتها التاريخية العامة وتحاول معانـدة حركـة التاريـخ بالاتجـاه نحو العسكرة والتطرف الفـاشي العنصري ، في الوقت الذي تبرهن فيه يوميا عن عدم قدرتها على اداء دورها الوظيفي في خدمة الامبرياليـة العالميـة ، انه المصـير المحتوم الذي لابـد من الوصول اليه والذي تحاول الولايات المتحدة تأجيله من خلال كامب ديفيد مرة ، أو من خلال مشروع ريغن ، أو مشروع شولتز التي تسعى جميعا الى تمييع نضال الشعب الفلسطيني ، والقضاء على شخصيتـه السياسيـة التي تشكل نقيضا حتميا لهذا الوجود المصطنع على ارض فلسطين وشعبنـا الفلسطيني الذي عركته التجارب ، وخبر جميع هذه المؤامرة الرجعية والامبريالية ، عندما يتصدى لكل هذه المؤامرات انما يصر على بناء شخصيته السياسيـة ، ونيل جميع حقوقه الوطنية بما فيها الحقوق الوطنية الثابتة غير القابلة للتصرف ومنها حقه في العودة الى وطنه ، وتقرير مصيره فوق ارض آبائه واجـداده ، وحقه في انشاء دولته الوطنية المستقلة ، دون ان يكون في ذلك مساس بحقوقه التاريخية في وطنه فلسطين ، وهو يعلم تمام العلم انـه ينـاضـل مع الاتجـاه الطبيعي للتاريخ ، وان العد العكسي للمشاريع الاستعمارية والصهيونيـة قد ابتدأ ولن يتوقف سواء كان ذلك في فلسطين أو في أي مكان على وجه الأرض .

هل لميخائيل نعيمه نقد .. قبل الغربال .؟
أو
في تأصيل شخصيته النقدية

الحبيب محمد علوان

لم يتعرض أحد* من الذين كتبوا عن « نقد » ميخائيل (1889 ـ 1988) الى اثارة هذا السؤال : « هل لميخائيل نعيمه نقد .. قبل* الغربال . ؟ » وكأن النقد لديهم لا يعني معاشرة الاعمال الادبية ، وملاحظة أو معاناة الظواهر والحقائق الفنية ، والحكم لها أو عليها حكما ما ، اذ « نتوقع من الاوصاف التي تضاف الى عمل أدبي ، أن تكون حكما عليه من حيث هو عمل أدبي »[1] .

وسنعثر على كثير من هذه الأوصاف التي هي أحكام جزئية صدرت من ميخائيل بطريقة عفوية ، أثناء معاناة « تجاربه الشعرية » أو بعد اطلاعه على بعض الأعمال الأدبية . وهذا يذكر بما قيل من « ان قراءة عمل أدبي ، هي التزام بمشروع ، وحينما نعود القهقري لنتأمل ذلك المشروع : يبدأ النقد حقيقة »[2] .

واذا لم يكن لميخائيل النضج الفكري المطلوب ، الذي يمكنه من القيام بهذه المهمة ، على وجهها الأكمل ، فقد كان منتبها الى هذا النقص فيه آنذاك عندما قال « ... ولكن قبل أن أهيىء لعقلي الفتي المؤونة الضرورية له من الخبرة والمعرفة »[3] و « هذا الاستعداد قابل للنمو اذا أخذه صاحبه مأخذ الجد وأعطاه التمرينات المناسبة »[4] فالحس النقدي تكون لميخائيل منذ حداثته عن طريق التأمل والملاحظة والاطلاع ، والخبرة والمعاناة والمقارنة : « هذا بيت ! ولماذا لا يكون لنا بيت مثله ؟ وأشعر لأول مرة بالفوارق بين حظوظ الناس »[5] .

« وقفت بي أمام المرآة ... انها المرة الأولى التي فيها رأيت وجهي . فأنا أعبس ، وآونة أبتسم ، ويزعجني من ابتسامتي أنها تبدو كئيبة . ومن بشرتي أنها سمراء ، وكنت أودها شقراء »[6] .

أما عن عملية الخلق والابداع ، وعن لحظات مباشرته التجربة ـ وهو ما يزال تلميذا بالناصرة ـ فيقول : « ... ولكم كان يسعدني أن أنسى نفسي اذ أنكب بكل فكري وقلبي وعضلاتي على خشبات في يدي ، أنا بالمنشار ، وآونة

بالمنجر أو بالازميل ، فـاذا بها تتحـول بالتـدريج اسكملة أو طاولة أو اطارا لصورة ... انني أخلق من أشياء موجودة ، أشياء لم يكن لها وجود ، فلا أنتهي منها حتى أعود أتأملها ، فاذا جاءت كما أردتها ، وكانت خالية من العيب ، أشاعت في نفسي البهجة والغبطة ، انها بهجة الخالق وغبطته بجمال ما خلق »[7]

هـذا الموقف من ميخـائيل الذي تحـدث فيه ـ بـالـتـرتيب ـ عن لحـظات « الخلق » ومباشرته انجاز عمل ، يكتمل بين يديه شيئا فشيئا . « متأملا » وآملا أن يكون له في وجدانه مثال وصورة ، « خالية من العيب » . فاذا تم له ما أراد ، تأتي المرحلة الأخيرة : « الحكم له « وهو الرضى » ... بجمال ما خلق « حيث » تشع في نفسه ، علامات البهجة والغبطة ،، . يبدو هذا الموقف قريبا أو متأثرا بأول حكم نقدي صدر في التاريخ كما جاء في سفر التكوين : « في البدء خلق الله السموات والارض . وكانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلمة وروح الله يرف على وجه المياه . وقال الله ليكن نور فكان نور . ورأى الله النور **أنه حسن** »[8]

فالموقفان أخبرا عن عناية وجدانية ، بما يعتمل داخل النفس ، ازاء ما يجب أن يكون . وسكتا عما يقال عندما يكون الفعل غير مرغوب فيه .

فهما اذن اعتنيا بالايجاب وأغفلا السلب (« خالية من العيب » . « أنه حسن ») فلو كان بالاشياء عيب لم يقل ماذا سيكون الحكم ؟ ولو لم يكن النور حسنا لم يقل ماذا سيكون الحكم ؟

ولعل هذا ظل لطبيعة النظرة النموذجية الفردية ، ذات البعد الواحد التي تريد الكمال دائما . وبالنظر الى شخصية ميخائيل وطبيعة تكـوينها لا يبـدو الموقف غريبا لأن اتجاه ميخائيل يسير صوب الواحد « المطلق » : « اني أفتش عن شيء كبير ، شيء بعيد ، شيء مبهم » . « هدفي كان دائمـا الى الابعد الى الأندر الى الاشق » .

ومن هنا كانت نظرته الى الحياة والاشياء من حوله حذرة ، مترقبة ، قاتمة جادة ، متأملة ... متخذة موقفا . ويحتكم ميخائيل في ذلك كله الى وجدانه وميله الخاص ، لذلك يقول عن نفسه في ذلك الوقت : « لو سئلت حتى ذلك الزمان عن أي القصائد التي حفظتها هي الأحب الى نفسي لاجبت دونما تردد أنها :

غير مجد في ملتي واعتقادي
نوح باك ولا ترنم شاد .

فقد كنت أميل الى الشعـر الذي يدفعني الى التـأمل في مشكـلات الحياة والموت ، أكثر مني الى الشعر الذي يدغدغ عاطفتي »[9] .

أما الشعر العاطفي الذي يروقه ويميل اليه فهو : « ... غزل لطيف عفيف ، فيه لوعة صادقة ، كالغزل الذي ينسبونه الى قيس بن الملوح العـامري ، أو نجوى بعيدة القرار أو شكوى لقلب يفتته الاسى »[10] .

ولم يتكون لميخائيل ـ آنذاك ـ مقياس أو معيار فني عام يرجع اليه في تفضيل نوع من « الشعر » عن سواه ، ولكنه كان يفضل من الشعر ما يوافق طبيعته ، ويتجاوب عفويا مع ميوله : « ... في طبيعتي ما يتجاوب عفويا مع الحزانى والبائسين والمظلومين والمنسيين »[11] . لكن مع تقدم ميخائيل في دراسته بالناصرة ، وبداية اطلاعه على الأدب الروسي على الرغم من شعوره بالنقص في معرفته باللغة الروسية ، فان مطالعاته بهذه اللغة أشعرته بأن مجالا جديدا ينفتح اليه وعالما آخر يخالف الأول تماما أثار اعجابه به وحسرته على الأول : « ان مطالعاتي الروسية ... لم تلبث أن أثارت اعجابي بالادب الروسي ، وحسرتي على الأدب العربي بالنسبة اليه »[12] .

عندئذ لم يبق ميخائيل يستند في حكمه أو في ميله .. الى طبيعته الخاصة ، ومشاعره الذاتية لان خواطر أخرى وأراء جديدة بدأت تساهم في تكوينه الأدبي وفي توجيه تفكيره ، فشرع في ضوء ذلك يغير من نظرته الى طبيعة الأدب وعمل الادباء ، متخليا عن أمنيته في أن يكون أحد الادباء العرب المعروفين ، اذ بات يخجل منهم متمنيا لو يستطيع أن يكتب « ... كما يكتب هؤلاء الروس ... » بعد أن تكشف له « ... فقرنا الفاضح الى أدب ينبع من الحياة وأدباء لا يتلهون بالقشور عن اللباب ... »[13] .

« أدب ينبع من الحياة » و « أدباء مهتمون بالجوهر واللباب » . هاتان الحقيقتان افتقدهما ميخائيل فيما اطلع عليه ودرسه من الأدب العربي بالناصرة فيما بين (1902 ـ 1906) .

فنحس كأن صدمة أفاق عليها متمثلة في ضحالة الأدب العربي وفقره الفاضح أمام الأدب الروسي . وكأنه يريد دفع هذا العار أو تلافي هذا النقص في أدب وأدباء أمته ، بعد سفره الى « روسيا » واطلاعه الأعمق على الأدب الروسي فكتب : « أريد أن أنشر في بلادي روحا تتحسس القيم الانسانية العالية ، وتنهج نهجا اشتراكيا في حياتها »[14] .

ومن هنا رأى مثله الأعلى « ... أن أخدم الغير بقلمي خدمة شريفة نزيهة ..»[15] وهذه الرؤية لرسالة الأديب وأدبه ، أو الفنان وفنه تبدو طبيعية بالنسبة لواقع ميخائيل آنذاك ، وهو الذي يعيش في روسيا وينهل من فكرها وأدبها ، ويجلس على مقاعد الدراسة فيها . فاشتد تعلقه وتأثره بمجالات الحياة المختلفة الجديدة عليه وأجوائها الثقافية ، فالناقد الروسي « تشير نيشفسكي »* (1828 ـ 1889) كان يلتزم بهذه الرسالة للادب والفن : « ان المهمة الرئيسية للادب والفن هي خدمة الشعب[16] ومن أجل ذلك قيل عنه أنه : « وجه نقدا عميقا للجماليات المثالية وصاغ المبادى الرئيسية للفن الواقعي »[17] وقال عنه « جان فريفيل » : « ... فقد أرسى في مؤلفه : (العلاقات الجمالية بين الفن والواقع)[1835] أسس علم جمال واقعي ، هدفه النفع الاجتماعي . فالفن في نظره لا يجوز أبدا أن ينفصل عن الحياة . والجميل لا

يرتد الى مجرد تعبير موفق عن الفكرة بالصور ، أو الى توفيق العبقرية . الجميل هو الحياة . وكل نظرية « تشيرنيشفسكي » الجمالية تقوم على أسـاس حب الواقع والحياة . »[18]

فنيشفسكي عمل على ارساء نظرية جمالية جديدة تنهض على أسس واقعية مادية في التعامل مع الحياة وفي فهم وظيفة الفن . لذلك يقول : « انطلاقا من تعريف الجميل بأنه الحياة ، ينجم ان الجمال الاصيل ، السامي ، هو بالتحديد الجمال الذي يلاقيه الانسان في عالم الواقع ، وليس الجمال الذي يخلقه الفن ، ومن الواجب البحث عن أصل الفن في مكان آخر غير المكان الذي جرى فيه البحث عنه حتى الآن ، اذا كان المنطلق هو مثل ذلك التصور للجمال ؛ واذا ما فعلنا ذلك تبدى المدلول الاساسي للفن في مظهر جـديد »[19] فهـو هنا « يقيم البرهان على أن الفن يتغذى بالحياة ويجعل من الواقع عماد جماليته المادية . فقد ربط .. الفن بنضال الشعب التحرري ... » المصلحة العامة : ذلك هو مضمـون الفن .. »[20] كما قـال عنه الكـاتب الروسي » ج . جريجـوريان » : « جاهد تشير نيشفسكي » ليضع الفن بأكمله في خدمة صراع روسيا الأكبر في سبيل التحرر »[21] . أما الناقد الروسي الأشهر « بيلينسكي »• (1811 ـ 1848) ـ والذي يعتبر تشيرنيشفسكي مستأنفا السير في الطريق التي مهدها هذا الأديب الديمقراطي الثوري كما يقول ج . جريجوريان »[22] . ـ فيرى : » ان الأديب يجب أن يعبر عن روح أفراد الشعب الذين نشأ بينهم »[23] .

لقد كان الناقد بيلينسكي من المثقفين الروس الذين وقفوا للدفاع عن حقوق الفلاحين ، دفاعا ثوريا ديمقراطيا اشتراكيا »[24] . حيث أقام النقد الأدبي في روسيا على نظرية واقعية ثورية : « ان تجريـد الفن من حق خدمـة المصالح العامة انما يعني محو أساسه لا الانتفاع به[25] . ومن هنا نجده لا يقول بنظرية « الفن للفن » تلك النظرية التي ظهرت في القرن التاسع عشر في فرنسا ، وكانت تدعو الى تخليص الفن وتحريره من الاستغلال الجماعي والفردي ، لينطلق حرا في مجالي الطبيعة ، متجها الى تصوير ما فيها من جمال ، فالجمال وحده هو الغاية التي لا تشترك معها غاية لكل عمل فني جيد . فالادب .. يجب أن يكون غاية يسعى اليها الشاعر والناثر ، لا أن يظل وسيلة للافصـاح عن الشعور الجماعي أو الاحساس الذاتي ...[26] .

فالناقد « بيلينسكي » بدعوته الى ارتباط الفن بالحياة الواقعية وبمصالح جماهير الشعب ، قد وجه ضربة ساحقة ـ كما قيل ـ للاستطيقا المثالية لنظرية الفن للفن »[27] .

لقـد كان « بيلينسكي » اذن من ذلك التيـار الذي وجد بعـد فشل ثـورة الديسمبريين سنة(1825) بروسيا » تيارا .. جعل الواقع موضوعـه ، والفن للحياة شعاره ، وكرامة الانسان رسالته »[28] .

وانطلاقا من هذه النظرة الملتزمة بقضايا الانسـان والراعية لمصـالحه في

الحياة الاجتماعية نجد للعمل الفني معناه المحدد عنده ، فهو « حكم تحليلي للمجتمع أو صرخة ألم ، أو ترنيمة فرحة ، وهو سؤال أو اجابة عن سؤال »[29]

هذه النظرة ذات الاتجاه الواقعي الاجتماعي لمفهوم وظيفة الأدب والفن في الحياة لدى كل من بيلينسكي وتشيرنيشفسكي أفاد منها ميخائيل في تكوينه الفكري ، والأدبي وسار على هديها ، وهو بصدد كتابة محاولاته وتجاربه الأولى في الخلق الأدبي ، وفي الملاحظات والانطباعات التي تبدو عليها سمة « النقد » لما يطالعه ، كما سنرى في مذكراته . وهو الذي وقع تحت تأثير مختلف مجالات الحياة في روسيا ، لهذا قال عن نفسه بعد ذلك : « أعرف من عاداتها وأخلاقها وتاريخها مثل ما يعرفه رفاقي وأكثر . وقد ساعدني في ذلك ما رحت أطالعه بنهم من الأدب الروسي . فبت كما لو كنت قد ولدت وترعرعت في روسيا »[30] .

واذا كان ميخائيل لا يذكر العبارة صريحة في تأثره فكريا بالناقد « بيلينسكي » عندما أجاب على سؤال وجه اليه بمن تأثر من النقاد ـ فقال : « ... أما في النقد فقد وجدت في بيلينسكي امام النقاد الروس مثلا رائعا للنقد الرفيع »[31] ـ فلانه كان يفهم من « التأثر » غير ما يفهمه عامة النقاد ـ كما قال ـ وكأنه لا يريد تفسير عملية « التأثر والتأثير » بالاخذ والعطاء ـ حيث يقول : « ... الا ان ما أفهمه بالتأثر هو غير ما يفهمه عامة النقاد ، فما من كاتب استطاع أن يعطيني شيئا لم يكن عندي ، بل كان كالشرارة توقظ الشرار الذي في داخلي أو كالمفتاح يفتح أبوابا موصدة في نفسي ، ولكنه لا يضيف شيئا الى ما في خزانة نفسي ولا يبدل شيئا في ترتيبها »[32] .

ولعل هذا الموقف الذي اتخذه من مفهوم التأثر ـ وهو في مرحلة نضجه وشهرته ـ ساهم في تكوينه ، قوله بوحدة الوجود آنذاك . لأن رأيه في الاستعانة بتجارب الاخرين وبخبراتهم كان صريحا اذ يقول : « ... مهما تكن طبيعة الانسان غنية فلابد لها لتصبح شاملة من الاستعانة بتجارب الغير »[33] . لكننا نلاحظ ان ميخائيل تزحزح عن جذوره الروحية والمثالية وعن سيطرة الغيبيات والعواطف الرومانسية التي كان عليها قبل سفره الى روسيا ، واقعا تحت تأثير هذه الدعوة الواقعية الاجتماعية لوظيفة الأدب والفن ، التي نادى بها وتزعمها بيلينسكي وتلاميذه مثل « نيشفسكي » في النقد الأدبي . اما في الابداع الادبي فقد كان « ايفان تورجنيف زعيما ومروجا لها »[34] .

ولهذا نجد ميخائيل يقول : « انتهيت منذ يومين من نظم قصيدة « دفن الحب »* وفي الواقع جاءت قصيدة لا بأس بها ، أما اليوم فاني أفتش عن موضوع أوسع وأعمق وأجل ، موضوع أستطيع أن أعطيه من نفسي ومن وقتي بغير حساب ... »[35] . في هذا القول نحس أن ميخائيل بدأت تدور بذهنه خواطر جديدة ، تعكس لنا تحولا وتغيرا في اهتمامه بمضمون تجربته الشعرية اولا . ثم في انطباعاته واحساسه النقدي ثانيا .

فلعنوان قصيدته هنا معناه . فهو يشير الى بداية مرحلة جديدة تقام على

انقاض الأولى ، لا سيما وهو يضع أمامنا أوصاف الموضوع الذي يفتش عنه لتجربته او لمرحلته الثانية : « أوسع ، أعمق ، أجل » .

نلاحظ الترتيب أو البعد الفكري لهذه الكلمات الثلاث : الاتساع والعمق والجلال . لماذا ؟ ليعطيه من نفسه ومن وقته بغير حساب .

ولعله وجد موضوعه ، وقد توفرت فيه الشروط المطلوبة ـ حسب رأيه ـ فيما يذكره : « ... بدأت مشروعا شعريا كبيرا ، انه قصة بعنوان « صيادو السمك »* بخاطري أن اصور فيها حياة المعذبين في الارض بالنسبة لأهل الترف والبطر ، وأن أظهر مفاسد* المدنية الحاضرة »[36] .

فهو هنا **يتأثر** بالاتجاه الواقعي الاجتماعي لوظيفة الادب والفن : خدمة المجتمع والتعبير عن مشاكل الانسان في الحياة الواقعية ، ذلك الاتجاه الذي انتهى اليه بيلينسكي في قوله : « ان صالح الكائن البشري الحي يجب أن يكون أساس الفلسفة العملية[37] » . « كما قد رآه » تشير نيشفسكي » : « ان للفن وظيفة نفعية » .[38] وهو الاتجاه نفسه في الابداع الادبي « الرسالة الاجتماعية »[39] . التي كان من ممثليها تورجنيف (1818 ـ 1883) والتي امتازت بالدعوة الى التصوير الواقعي ... وانسانيتها المقرونة بالغنائية وعرضها الرائع للمناظر الطبيعية »[40] .

ولهذا نجد ميخائيل يحدد مفهومه للشعر ، وهو يجيب عن سؤال وجهه لنفسه : « انني لا اعترف بالشعر فنا لأجل الفن »[41] . وانما للشعر وظيفته المحددة في الحياة الانسانية ـ فهو يخدمها ـ ويضع كلمة « أومن » تؤكد كلمة « لا أعترف » حيث يقول : « اومن به (اي الشعر) فنا يلتصق مباشرة بالحياة ويخدم أغراضها ، فهو فن جميل ونافع اذا ما اهتم بتصوير آلام الناس وأحزانهم ومشكلاتهم ، ليوقظ الغافل في ضمائرهم ، ويخلق الشوق الى حياة لا تكون غريبة فيها كلمات من نوع حرية مساواة اخاء »[42] .

فالشعر عند ميخائيل ـ في ذلك الوقت ـ « فن جميل ونافع . يلتصق بالحياة مباشرة ، ويخدم أغراضها » ومن هنا عليه أن « يهتم بتصوير آلام الناس وأحزانهم ومشكلاتهم » .

هذا جانب مبدئي للموضوع أو مقدمة وهو الاساس الذي اشتمل على التقرير والتشخيص ، للواقع البشري ، من جانبه المظلم ، البائس . ليتيسر بعد ذلك « ايقاظ الغافل في ضمائرهم ، وخلق الشوق فيهم الى حياة لا تكون غريبة فيها كلمات من نوع حرية ، مساواة ، اخاء » وهو الجانب ـ المنتظر ـ التربوي ، التنويري ، التحريري ، والذي يكون ميخائيل قد تأثره من الجو العام لمدرسة ومنهج الواقعية النقدية في الفن حيث « يلعب نزوعها الرئيسي ـ الذي يتجه نحو كشف شرور المجتمع البورجوازي والتغلب على تناقضاته ـ دورا هاما في تطوير فكرة تحرير الانسان اجتماعيا وروحيا ، وفي تأكيد المثل العليا الاجتماعية الديمقراطية في أذهان الناس »[43] . ومن هنا « يعد الفن أداة للاصلاح

الاجتماعي والاخلاقي »[44] لان ميخائيل قد قرأ لـ « ... غوغول وتورجنيف وجو نشاروف وسالتيكوف شيشيرين ونكراسوف وليتولستوي ... وغيرهم (الذين) نددوا بحكم ملاك الاراضي الجائر وبالغرائز الوحشية للبورجوازية ، وتعصب الكنيسة ، وفجور المسؤولين البيروقراطيين ، كما صوروا احتجاج ونضال الشعب »[45] . كذلك نجد في تحديد ميخائيل لمفهوم الشعر ووظيفته في الحياة ما يتصل في جوه العام بمنهج « الواقعية الاشتراكية »* من حيث انه « يتطلب القيام بعملية عكس صادق ومعيد للواقع ...»[46] . فالفن الذي يلتصق بالحياة مباشرة ويخدم أغراضها ، يكون عكسه للواقع وتعبيره عنه صادقا ، جاعلا اهتمامه به في مجال ثوري تقدمي .

ومن هنا كانت « الواقعية الاشتراكية » « ... استمرارا منطقيا وتطورا لأفضل التراث الواقعي في فن الماضي ... جوهرها الاخلاص لحقيقة الحياة بصرف النظر عن مدى ما قد تكون عليه من جفاء »[47] .

أما « الجانبان النوعيان لعلاقة الانسان بالواقع »[48] وهما « الجمالي والاخلاقي » ورد التعبير عنهما من ميخائيل بـ « جميل ونافع » وكما قيل فان « وحدة الجمالي والاخلاقي مبدأ بالغ الاهمية في الواقعية الاشتراكية »[49] « العمل الفني الجميل ... ينسخ الواقع بصدق »[50] ليتيسر بعد ذلك بناء المجتمع بناء لائقا بكرامة الانسان وجلب الخير والنفع له . حيث أن الجمال ـ في رأي بيلينسكي ـ هنا « شقيق الاخلاق ، فاذا كان عمل فني ما ، فنيا حقيقة فهو اخلاقي بنفس المعنى »[51] . ومن هذا المنطلق « فان وحدة الجمالي والاخلاقي هي أساس الدور التربوي ودور التحويل الايديولوجي اللذين تقوم بهما الفنون في الحياة الاجتماعية[52] » فالشعر فن جميل ونافع ، لأنه يوقظ الغافل في ضمائر الناس ويخلق فيهم الشوق الى حياة كريمة مقامة على أسس ومعان أخلاقية منها إخاء ، مساواة حرية . وهو ذلك الفن الذي يلتصق بالحياة مباشرة ويخدم أغراضها . وهذا يذكر برأي بيلينسكي في الشعر ووظيفته عندما يقول : « ... ان الشعر الواقعي هو شعر الحياة ... انه لا يعيد تسجيل الحياة بل يصورها ويبدعها من جديد »[53] ولذلك « رحب بيلينسكي بالتصور الاشتراكي لمجتمع عادل حيث لا يوجد غني أو فقير ، ولا يوجد قياصرة أو رعية ، بل يوجد اخوة وبشر »[54] وهذا يذكرنا بما قاله تولستوي في « الفن » بعد ذلك : انه « ... ينبغي أن يجعل الحب الأخوي .. هو الشعور المعتاد للناس جميعا ، والغريزة المتأصلة فيهم (فهو) يعمل على تحطيم الحواجز التي تفرق بين الناس »[55] وهو يتفق مع المبدأ الاخلاقي الذي نادى به قبل ذلك « تشير نيسفسكي » جاعلا اياه اساسا لنظريته الجمالية : « على الفن أن يسهم في تحسين العلاقات بين بني البشر »[56] .

فبيلينسكي يرى أن للفن دورا ايجابيا وخلاقا في الحياة، فهو مسؤول ولذلك يقول : « ان الفن لا ينحصر في دور تصوير الحياة والطبيعة على نحو

تسجيلي وغير مبال ، وهو دور سلبي ، اذ يجب أن يكون ثمة تفكير شخصي حي في التصوير ، تفكير يعطيه هدفا ومعنى »[57] .

فيشترط بيلينسكي في « الفن » اذن ألا يكون دوره في تصوير الحياة الطبيعية دورا تسجيليا غير مبال ، لان هذا دور سلبي ، وانما يجب أن يتمتع الفن بتفكير شخصي ، حي في التصوير ، ليكون له هدف ومعنى في الحياة ، وهو ما يمكن التعبير عنه بـ « الموقف المسؤول » أو « الفن الهادف » ابتعادا عن « الفن لاجل الفن » وهو بذلك اراد الوصول الى القول : « لقد امتزج العنصر الفكري الان ، بالعنصر الفني نفسه[58] .

ومن هنا يمكن أن نتصور تغلب أو اعتبار الجانب « الاخلاقي الاجتماعي » لوظيفة « الفن » على الجانب « الجمالي » مثلما يذهب الى ذلك تولستوي في كتابه : « ما الفن » ؟. « شأنه شأن جميع النقاد الاخلاقيين ، ينظر الى الفن في اطاره الاجتماعي »[59] ولذلك فهو لا يسمح الا بنوعين من الفن « ... ذلك الذي يعبر عن انفعالات المسيحية ، وذلك الذي يعبر عن المشاعر البسيطة للحياة المعتادة »[60] ، وهو يستخدم صفة « الديني » للدلالة على فكرة « معنى الحياة » ومثلها العليا »[61] معتبرا « التأثير الاخلاقي و « الديني » للفن هو مقياس جودته »[62] .

ويرى الناقد « الجمالي » جيروم ستولنيتز : « أن كتاب « ما الفن ؟ » سيظل واحدا من اكثر الكتب غرابة في تاريخ علم الجمال والاخلاق . فاتجاهه خاطىء الى أبعد حد في استبعاده للقيم الجمالية للفن ، ومبالغته في قيمته الاخلاقية »[63] وهو الأمر الذي لم يتورط فيه « ميخائيل » - آنذاك - في نظرته « المبكرة » الى وظيفة الفن في الحياة ، بالرغم من اقتدائه بتولستوي ، واعجابه به وتأثره بتفكيره الديني والاجتماعي والاخلاقي . حيث يؤكد في نظرته لوظيفة الفن على الناحية « الجمالية » مقدما اياها على الناحية « النفعية » : « أخلاقيا واجتماعيا » ولكنه يعطفهما على بعضهما في سياق واحد : « .. جميل ونافع ... » معتبرا اياهما عنصرين أساسيين في مفهوم الفن (الشعر) .

فهو اذن اذا اعتبر معه « النفع » للفن « خالفه وأضاف عليه « الجمال » ورآهما مترابطين متجاورين ليقوم هذا « الفن » بوظيفته وهي : « ... تصوير آلام الناس وأحزانهم ومشكلاتهم ... الخ ... » حيث هو : « يصور » ويوقظ » و « يخلق » وقبل هذا كله « يلتصق مباشرة بالحياة ، ويخدم اغراضها » .

* * *

ومن هنا فقد أدرك ميخائيل مبكرا قيمتين للادب هما « المتعة » و « المنفعة » و « منذ القدم ... لا نكاد نجد أحدا يخرج عليهما ... وكل ناقد يريد أن يصدر حكما لابد أن يكون قد فرغ من تحديد موقفه ازاء هذين النوعين من القيم »[64]

ولعل ميخائيل حضره معنى امتزاج العنصر الفكري بالعنصر الفني نفسه بعد حديثه عن تصوير آلام الناس واحزانهم ومشكلاتهم ، فأشار الى ايقاظ الغافل في ضمائرهم وخلق الشوق فيهم الى حياة بها معان كثيرة من نوع الحرية والمساواة والاخاء حيث امتزج أو تعاون الجميل والنافع . وبذلك أعلن عن موقف مسؤول للفن متجاوزا الوقوف عند التصوير والتسجيل المجردين . كما أنه لم يكن مكتفيا بتلك الكلمات الثلاث » حرية مساواة ، اخاء » لهذه الحياة الجديدة . وهي الشعارات التي نادت بها الثورة الفرنسية (1789) ، ويظهر أن ميخائيل تلقاها ـ ضمن ما تلقى وتأثر به من تعاليم ومبادىء وأفكار أدبية ونقدية ـ من « دعاة التغريب » في روسيا ، والذين كان منهم تورجنيف وبيلينسكي وغيرهما . ذلك الاتجاه الذي يريد جماعته أن يغرفوا من الغرب ، وأن يتعلقوا بحضارته ومدنيته وبأفكاره الخيرة »[65] وكما قيل عن بيلينسكي « ... ولما كان متحررا متطرفا ، ومن دعاة التغريب ، ووطنيا ، فقد آمن بان روسيا يجب ان تنشد خلاصها في انتصارات المدنية والثقافة الانسانية[66] ، ويقول هرزن (1812 ـ 1870) ـ وهو من أصدقاء بيلينسكي ومن المتأثرين به والمعجبين بأفكاره الثورية ـ « ... كنا جميعا مؤمنين بالديسمبريين** وبالثورة الفرنسية »[67] .

وليس بغريب على ميخائيل اذا أقبل على ما في الحياة الروسية من أصيل ودخيل ، وهو الذي وجد نفسه آنذاك في عالم يعج بالمغريات ، وبه نهم هائل الى التهام كل جديد فيه وجميل ... وقد بهرت (ـه) هذه السعة في حياة الفكر والقلب والجسد »[68] .

أفاد ميخائيل اذن من هذا الاتجاه الواقعي الاجتماعي في فهم وظيفة الادب والفن في الحياة ، الذي اجتذب كثيرا من الكتاب والفنانين في أوروبا وروسيا في منتصف القرن التاسع عشر تحت عنوان « الواقعية النقدية » كما أرخ لهذا بعد ذلك « مكسيم جوركي » (1868 ـ 1936) في الخطاب الذي ألقاه في المؤتمر الأول للكتاب السوفيات سنة 1934 . يقول : « ان الفكرة الاساسية في الأدب الأوروبي والروسي في القرن التاسع عشر كانت الفرد ضد الجماعة والدولة والطبيعة . وكان السبب الأول لمعارضة الفرد للمجتمع البورجوازي هو رغبته في حشد انطباعات سلبية مناقضة لأفكاره الطبقية وأسلوبه في الحياة ... ولكن هذا الشكل من الواقعية لم يصلح ـ ولا يمكن أن يصلح ـ لتربية الفردية الاشتراكية ، **لانه اذا نقد كل شيء** لم يثبت شيئا .. »[69]

ومن هنا « فالواقعية النقدية تدور حول محور رئيسي : وهو الفردية البائسة التي ترى عيوب مجتمعها ، ولكنها لا تقدر على تغيير هذا المجتمع لأنها لا تلتحم بالقوى القادرة على تغييره ، وهكذا ينتهي تمردها اما باليأس واما بالخضوع »[70]

وفي بداية القرن العشرين نشأت « الواقعية الاشتراكية » في ظروف أزمة الرأسمالية واندلاع الصراع البروليتاري والاعداد للثورة الاشتراكية في روسيا »[71] وكأنها لتنهض بما وقفت دونه « الواقعية النقدية » اذ كانت « تعلن أن الحياة هي النشاط والخلق اللذان يرميان الى تنمية أعظم القدرات الفردية قيمة لدى الانسان ... من أجل سعادته العظيمة في العيش على الارض التي يرغب - مع النمو المستمر لاحتياجاته - أن يجعلها مسكنا طيبا للبشرية ، وقد توحدت في أسرة واحدة »[72] .

وهكذا تكون « الواقعية الاشتراكية محورها ... الفردية الاشتراكية التي تنمو في ظروف العمل الجماعي ، وهي فردية ايجابية[73] متفائلة « ولو لا هذا الاتجاه الذي وثق صلة الادب والفن بالحياة لكان « العمل الفني عديم النفع ، بل ربما يكون لا أخلاقيا في انعدام فائدته ما لم يكن مؤيدا على نحو مباشر بالحياة أو الواقع بأبسط مفاهيمهما التجريبية »[74] ، وهو كذلك جوهر المنهج النقدي عند بيلينسكي ، وتشير نيشفسكي ، ودبروليبوف ، الذي هو الربط بين الحياة والادب ، بين الاصل والصورة التي تنعكس عنه »[75] .

ويعتبر مؤرخو الأدب الروسي أن الناقد الديمقراطي الثوري بيلينسكي الذي وضع للنقد الادبي الروسي في القرن التاسع عشر اتجاهه .. مسؤولا الى حد كبير عن سيطرة (هذا) الاتجاه الاجتماعي » « وبفضل ذلك اكتسب التقدير والشهرة في عهده ، فكان الشباب الروسي المثقف ، ينتظرون مقالاته بلهفة منذ الخامس والعشرين من كل شهر ويظلون يترددون على المقهى عشرات المرات كل يوم يسألون عن وصول المجلة التي ينشر بها مقالاته ، فاذا وجدوها ظلوا يتجاذبون مجلدها الضخم من يد الى يد ويتساءلون هل فيها مقال لبيلينسكي . ؟ »[77] .

وهذا التقدير الذي كان يحظى به بيلينسكي لدى الشباب التقدمي في روسيا آنذاك ، فلأنه نفسه كان تقدميا ومن دعاة التطور الأدبي الدائم الملائم لحاجات الحياة »[78] .

والملاحظ ان بيلينسكي ابتدأ حياته الفكرية مثاليا رومانسيا . كان يرى في الشعر والادب تعبيرا عن الروح العالمية وعن جوهر العالم الخالد »[79] . وكان اهتمامه بقصيدة ، أو لحن ، أو مناقشة نظرية ، أكثر من اهتمامه بعوارض هذا العالم الحقير ، مثل الواقع السياسي أو الاصلاح الاجتماعي[80] . وكما يقول « جون فريفيل » : « أصر بيلينسكي الذي كان تطوره الفكري يتجه من المثالية الوهمية الى الواقعية المادية على رفض أسس الجمالية الهيجلية . فالفن ليس استعراضا للفكرة ، ولكنه انعكاس للحقيقة ، وهو يولد خارج الحياة ولكنه ينبع منها ويبتدع أصدق النماذج لظواهرها »[81] ويقول جورج لوكاتش في منهجه النقدي : « أما الموضوع الصحيح للنقد فهو العلاقة بين هذا العمل الفني والواقع الذي يعكسه »[82]

وإذا كان في أول حياته تأثر بالفلسفة المثالية الألمانية ، ففي آخرها تأثر بالاتجاهات الفلسفية الوضعية ، ورأى كغالبية معاصريه في الاشتراكية نوعا من الديانة الجديدة »[83] .

وقد كان ايمانه بمستقبل روسيا عظيما حيث كتب سنة 1840 يقول : « ... اني أحسد أحفادنا وأحفاد أحفادنا الذين سيقدر لهم رؤية روسيا عام 1940 حين تقف على رأس العالم المثقف وتقدم قوانين العلم والفن ، وتتلقى تقدير العالم المستنير وعرفانه »[84] .

***

لعل ما تقدم يساعد على مشروعية طرح السؤال السالف الذكر : « هل ليخائيل نعيمه نقد .. قبل الغربال ؟ » من خلال مواقف له أيام دراسته بالناصرة . أو وهو يكتب مذكراته ، ويتدرب على كتابة الشعر أثناء الدراسة بروسيا ، متعطشة نفسه الى مجد الكاتب وحظ الشاعر »[85] .

وأحسبني لم أتعسف ، ولم أتسرع أيضا اذا رأيت مفهومه للفن تطور من الوقوف به عند حدود « البهجة والغبطة بجمال ما خلق » الى وظيفة « خدمة الغير .. » متجاوزا ذاته وما تريده طبيعته الخاصة ومزاجه ، الى التفكير في نفع الاخرين . وأملي إذا اكنت قد أصبت - وللقارىء رأيه - لما حاولت الوصول بمفهومه للفن وبوظيفته في الحياة الى تأثره بالاتجاه الواقعي الاجتماعي في الأدب والنقد لدى « تورجنيف » و « بيلينسكي » و « تشير نيشفسكي » في هذه الفترة المبكرة من حياته الادبية والفكرية مع مراعاته الناحية « الجمالية » وفيما يلي سأحاول التعرف على طبيعة هذه الاحكام الجزئية أو « الاوصاف » التي كانت تتلقاها منه بعض الاعمال الادبية ، بعد اطلاعه عليها ، وما لهذه من اتصال بمفهومه لوظيفة الأدب والفن في الحياة .

ومنذ البدء نلاحظ ان التسمية بـ « ابداء الرأي » أقرب الى طبيعة ما سميناه باحكام جزئية و « أوصاف » لانه دون مستوى هالة او مسؤولية « الاحكام » ، وهو فوق تواضع كلمة « أوصاف » من حيث قابلية النقاش ، وتعليل وجهة النظر أو الرأي المذكور أحيانا .

وقد وقفت له على ثلاث طرق في ابداء رأيه :

أولا - يبدي رأيه في كلمات استحسان واعجاب واندهاش : « ... اطالع هذه الايام « الشيطان » وأشياء اخرى من نظم ليرمونتوف* . يا له من شعر ،.! يا لها من نفس سامية .! الله كم حرك هذا الشاعر في داخلي من أحاسيس وكم أثار في من أفكار وأحلام .! ... منذ أن قرأت ليرمونتوف تولتني رغبة لا تقهر في الشعر . »[86] .

هذه الطريقة في ابداء الرأي وهذا الاسلوب في الاستحسان نجده عند بيلينسكي عندما تحدث عن « بوشكين » سنة 1840 » ان بوشكين* سيدفعني

الى الجنون ، فيا له من عبقري .! ويا لها من فطرة شاعرية حقا .! اني أخضع لسحره تماما .»[7]

نلاحظ التقارب بينهما في ابداء مشاعر الاستحسان والاعجاب ، خاصة اذا علمنا أن الشاعر ليرمونتوف يتـأثر بـوشكين ـ أيضـا ـ ويعجب به حتى أن بعضهم قال عنه « خليفة بوشكين »[88] .

كما أن اعجاب بيلينسكي بالشاعر ليرمونتوف لا يقل عن اعجابه ببوشكين ، ومقالاته تكاد تتساوى في الروعة والحماس لهما ... تجد نماذج للتفكير العميق وكذلك للكتابة الحية المهمة ، المفعمة بالشاعرية ، وبتلك العاطفية السامية عن فهم عميق للشعر واحساس صادق به »[89] ، وقيـل ان بيلينسكي هو الذي اكتشف ليرمونتوف سنة 1840 ونادى به نجما من نجوم الأدب المبرزين »[90]

واذا كان هناك فرق بين رأييهما ، فهو : أن « نعيمه ، يتحدث بذلك ويكتبه لنفسه في مذكراته ، بكل عفوية وسذاجة ، .. وعجلة ايضا . أما بيلينسكي فهو يتحدث الى الاخرين حيث يعلم أنهم ينتظرون حديثـه أو مقالتـه . فتحضره اليقظة ، والاحساس بالمسؤولية . بالاضـافة الى أن « نعيمـه » مدفـوع الى مطالعة آثار ذلك الشاعر أو غيره من أجل تنمية ذوقه الأدبي وارهاف حسـه وارضاء متعته الجمالية باعتباره قارئا أولا . أما بيلينسكي فدافعه الدراسة والنقد واستيضاح مخبآت شعر هذا الشاعر والكشف عنها بـاعتباره نـاقدا أولا .

ومن هنـا فقد اكتشفنـا « الاستعداد او الحس » النقـدي في ذهن نعيمه وتكوينه الفكري ـ على الاقل ـ اذا لم نستطع القطع بأنه تأثر في هذه الطريقة وفي هذا الاسلوب ببيلينسكي في ابداء الرأي ، لاسيما وكل واحد منهما يقرن استحسانه واعجابه بالاثر وصاحبه ، فلا يغطي احدهما عن الاخر ـ تقريبا ـ وهذا اتجاه في النقد له مخاطره .

ثانيا : قد يبدي « نعيمه » رأيه بموافقة الكاتب ، دون تعليل او تبرير لهذه الموافقة ، ذلك لأن « التعليل أمر عقلي لا يستطيعه الا تفكير مكون »[92] ـ وهو لم يصل الى هذا المستوى بعد ـ كما فعل مع تولستوي « قرأت رسالة مطولة لتولستوي بعنـوان : « الخطيئـة الكبرى » وهـو يعالج فيهـا قضية الأرض والاجحاف في توزيعها ، فلم يكن في مستطاعي الا موافقته في رأيه »[93] .

في الحقيقة لنعيمه ـ هنا ـ تبريره وتعليله لهذه الموافقة ، ولا أعتقد انها فلتت منه دون استحضار مفهومه لوظيفة الأدب والفن الاجتماعية ، ونحن نذكر كذلك احترامه لتولستوي واقتداءه به في حل معضلاته الفكرية .

لكن يبقى السؤال مطروحا : لماذا لم يشر الى انه يوافق تولستوي على رأيه ، لانه ـ أيضا ـ يفهم وظيفة الأدب والفن في الحياة بمثل ما عالج به تولستوي موضوعه في الخطيئة الكبرى ؟ ويزداد السؤال الحاحا عندما ننتبه الى تعبير : « فلم يكن في مستطاعي الا موافقته » . وخاصة ايراد لفظ « .. مستطاعي » في

سياق النفي المستثني . وكأنه مرغم على الموافقة ارغاما ، فجاءت بعد صراع فكري عنيف . وافتكها منه تولستوي بوسيلة ما ، وتعبيره المختصر لا يمكننا من اكتشاف هذه الوسيلة !.

لكن نعيمه لم يكن غافلا ولا منغلقا رجعيا ، أو أوتوقراطيا ، أو بعيدا عن قوى التقدم الفكري والتحرر الاجتماعي ، حتى لا يكون على وعي كامل بالقضية التي عالجها تولستوي في رسالته . كذلك لم يكن نعيمه من عائلة اقطاعية تملك الارض وفلاحيها ، وانما هو من عائلة كادحة فقيرة « تعيش من الارض وعليها » وهو الذي كان يتطلع الى بلاده بهذه الروح « أريد أن أنشر في بلادي روحا تتحسس القيم الانسانية العالية ، وتنهج نهجا اشتراكيا في حياتها »[94] .

وقد تشتد حيرتنا عندما نجده مع تولستوي نفسه في قضية ثانية ، يوافقه ثم يتبع ذلك بتعليل موافقته ، لان رأيه يوافق رأي تولستوي كما سنرى .

واذا كان لابد من حل لهذا الاشكال فأجدني أميل الى القول بأنه أخطأ في التعبير عن رأيه ، واكتفي بالاختصار .

ثالثا : قد يبدي نعيمه رأيه بموافقة الكاتب مبررا ومعللا هذه الموافقة : « انهيت الحرب والسلام* من زمان .. اني اوافق المؤلف في رأيه عن نابليون لاني أكره الحرب ، والذين يدعون لها ويقومون بها .. »[95] .

يظهر أن نعيمه مقتنع بهذا الموقف من أعماقه ، لأن له وجهة نظر محددة من الحرب ومن الداعين لها . ولم يشر الى « الفردية » او الانانية في شخصية نابليون باعتبارها دافعا قويا حمسته لاشعال تلك الحرب ضد روسيا .

أما تولستوي فكان موقفه العدائي من نابليون نابعا من وقوفه ضد الفردية وضد عبادة الابطال* ، كما يؤكد احترامه وعبادته لـ « روح الجماعة » الثابتة والجماهير غير المتمدينة المتشابهة »[96] . لكن نعيمه لم يتناول الموقف من أساسه ، وانما لهث وراء جانب من جوانبه أو النتيجة المترتبة عن القضية الاساسية التي هي « الفردية » في حين أن تولستوي يرى أن على الفرد أن يضحي لمصلحة الجنس والنوع واعلاء شأن استمرار الحياة »[97] .

ولكن شعور نعيمة بـ « الفردية » واحساسه بـ « التفوق » حالة وجدانية تلازمه باستمرار . لقد كان يميل كل الميل الى « التفوق » على رفاقه بالمدرسة « فما كنت أطيق أن يكون في صفي من هم أكثر حظوة مني في عين المعلم »[98]

بل ان نزعة التفوق هذه كانت تشغله حتى مع نفسه ، لقد تغلب على شهوته عشية خروجه مع رفيقة له الى الغابة طلبا للنزهة ، فراودته .. تمضي أناملها تتلمس الحلال والحرام في جسدي ... ويكاد زمام نفسي يفلت من يدي ، لولا صوت في داخلي لا ينفك يردد : لا تستسلم ، لا تنهزم ، لتكن عفتك أقوى من شهوتك !. وانتصرت العفة على الشهوة بعد صراع مرير .. وكان آخر ما قالته لي : « أنت ملاك »[99]

نلاحظ هنا ، أنها هي التي « راودته » وشعوره الداخلي يعكس « تفوقاً » و « ترفعاً » . ثم كأن قوى حدس هائلة في ذهنه ووجدانه ، بها تشوف خاتمة الصراع في تلك الجملة السماوية : « أنت ملاك » لذلك صبر للنهاية وسمعها ! وقد نجد ما يبرر ذلك « الترفع » أو ما يؤكده في قوله : « في طبيعتي ما يطلب السمو الى أقصى ما يمكن أن يبلغ السمو »[100] وقد قاده هذا الموقف بعد ذلك الى القول بـ « وحدة الوجود » والحلول : أقصى ما يمكن أن يبلغه من السمو والعلو والتفوق والفردية والبحث عن المطلق . فهو اذن قد « ... استبدل الارضاء السريع بأهداف أسمى غير جنسية .. (حيث) تتسامى الطاقة الجنسية من البداية الى حب الاستطلاع والبحث ... »[101] .

لقد تغافل عن « الفردية » التي كرهها تولستوي ووقف ضدها في الحرب والسلام » صادرة عن « نابليون » في غزوة لروسيا ، وانتبه لاحدى نتائجها قائلا : « لأني أكره الحرب » ولم يقل ـ مثلا ـ لأني أكره الفردية أو الذاتية ، ولأنه ينظر بعين الريبة الى الجماهير مانحا ثقته الى الانسان الفرد المتفوق : « جميل ولذيذ أن يتفرد الانسان وأن يسمو فوق الجماهير »[102] .

ولعل اهتمام ميخائيل بالنزعة الفردية وبالميل الى التفوق وملاحظة ذلك في طبيعته وتكوينه النفسي ، يعلل بالبيئة الجبلية التي قضى فيها سنوات طفولته وبعضا من سنوات المراهقة حيث يكون الانسان فيها جادا ، معتمدا على نفسه ، متغلبا ، منطويا على قوى تحدٍّ هائلة ، من هناك يأتي دوران الانسان حول ذاته ، متخذا اياها في مواقف كثيرة مقياسا أو مصدرا ، وقد كان نعيمه هذا الانسان الذي « عاش يستمد كل وحيه من نفسه في أحوالها المتفاوتة بين صعود وهبوط وقوة وضعف »[103] .

***

اما طبيعة الموقف او الاتجاه ـ اذا امكن ـ الذي كان يحدد لميخائيل طريقة ابداء رأيه ، فيما اطلع عليه من اعمال ادبية ، فتظهر من خلال الملاحظات الاتية :

أ ـ النزعة الذاتية او المشاعر التأثرية او الروح الانطباعية التي اتسمت بها هذه الطرق الثلاث في ابداء الرأي مكتفية بذلك عن اي شرح او تفسير موضوعي او تعليل عام ، لما قيل . شأن ميخائيل في ذلك شأن النقاد التأثريين « اذ يكتفون بأن تلتقي مشاعرهم مع النصوص الادبية ، على نحو فيه تأثير ينشأ سريعا وساذجا ... واداتهم النقدية تقتصر على ما يجدون في النصوص من ذكريات جميلة ، يستعرضها مؤلف مثقف »[104] .

وكما قيل عن هذا النوع من النقد : « تهتز نفسه لنغمة الألفاظ او لبراعة الصور ، فيصيح : ما أروع الموسيقى ! ومـا أبدع الخيـال ! ولا يحاول أن يبحث عن سر الروعة في الموسيقى أو سر الابداع في الصورة . هذا هو النقد

الانطباعي او التأثري او النقد الذاتي ، الذي يشبهونه احيانا بكتابة الترجمة الذاتية »[105] . فالنقد التأثري اذن « يبدأ بالضرورة بقراءة هذا العمل (الأدبي) أي بتعريض صفحة روحنا له وتلقي التأثيرات والانطباعات التي يخلفها عليها ... ومن هنا تأتي حتمية المنهج التأثري كخطوة أولى في النقد ... »[106] وبهذا الاعتبار يكون ظهور « النقد » في أول الأمر في صورة تأثرات عفوية تلقائية لفنون الأدب الأخرى ... »[107] .

وقد وجدنا ميخائيل يقول : « كم حرك هذا الشاعر في داخلي من أحاسيس ! وكم أثار فيّ من أفكار وأحلام ! » ويقول : « لأني أكره الحرب ، والذين يدعون لها ويقومون بها » .

فتحريك الاحاسيس في داخله ، واثارة الافكار والاحلام في نفسه ، ليس بخلق أو ابداع جديد ، وانما ايقاظها وقد كانت نائمة ، راكدة في أعماقه . فالموقف التأثري يعني التجاوب والاتفاق ، وكأنه يقرأ ما بأعماقه في كلمات غيره أمامه ! وكذلك كراهيته للحرب لم تخلق فيه آنذاك ، وانما هي حالة هاجعة في وجدانه ساكنة ضميره : سابقة على اللحظة .. فتذكرها آنئذ حسب نظرية التداعي النفسية . وكأن النقد لديه كما قيل : « مهما كان منهجه لا يعدو أن يكون تحديد الأثر الذي يحدثه النص في نفوسنا »[108] .

ب ـ تنقل أو تنوع ـ أو تطوّر ـ أو تحرك ميخائيل خلال هذه الطرق الثلاث ـ في ابداء رأيه ـ في حدود النزعة الذاتية ، التأثرية :

1 ـ وقف عند كلمات الاستحسان والاعجاب والاندهاش أو ابتدأ منها . وهي حالة أو وضع ملائم له كمنطلق . بل حتى بالنظر الى الاطار : « مذكرات » والى عمره الزمني ـ في مقتبله ـ وعمره الأدبي ـ قبل النضج ـ والمراهقة ـ فترة الاحلام والخيالات ، وافساح المجال للذات ـ فما هو بين أيدينا اذن يعتبر باكورة تجاربه ، بالاضافة الى ما كان يسوّده من أشعار باللغة الروسية والتي عرّفنا منها ـ فقط ـ على قصيدة « النهر المتجمد »* التي كتبت سنة (1910) ر ترجمها الى العربية سنة 1917 .

2 ـ حاول تجاوز حالة ـ أو مرحلة ـ الاعجاب والاستحسان والاندهاش ووقف عند التصريح بالموافقة على رأي الكاتب ، حيث تعتبر هذه خطوة محددة واضحة عن الأولى ، لأنه شرع في الرجوع أو الاعتماد على ما بدأ يتكون له من عالم موضوعي وزاد خارجي .

3 ـ تجاوز حالة ـ أو مرحلة ـ الموافقة على رأي الكاتب الى مسؤولية التبرير والتعليل .

ج ـ ان هذه الطرق الثلاث في ابداء الرأي من ميخائيل فيما يطلع عليه من أعمال أدبية ـ في اطارها الذاتي التأثري ـ تنفصل في الظاهر عن مفهومه لوظيفة الأدب والفن الاجتماعية في الحياة ، حيث لم يظهر الحاحا على اهتمامه بما تقدمه هذه الاعمال الفنية من « خدمة الغير » حسب تعبيره . ولعل هذا

راجع الى طبيعة ما يكتبه : « مذكرات لنفسه » ثم لانه ـ كما قيل ـ « ... ليس من دأب التأثيريين ... اطالة الوقوف أمام النص للظفر بنتائج مبنية على قواعد ومعتقدات سابقة »[109] .

ولكن في الحقيقة نجد اتصالا ـ مهما كان ـ بين هذه الطرق الثلاث في ابداء الرأي ـ وهي تأثرية ذاتية ـ وبين مفهومه لوظيفة الأدب والفن الاجتماعية في الحياة الواقعية .

أليست هذه الأعمال الفنية التي انسحبت عليها تلك الطرق الثلاث في ابداء الرأي ، أعمالا في صميمها تخدم قضايا الناس الاجتماعية التحررية ، وتنير الطريق أمامهم ، وتوقظ الغافل في ضمائرهم ، وتخلق فيهم الشوق الى حياة لا تكون غريبة فيها كلمات من نوع حرية ، مساواة ، اخاء ؟

فموضوع « الخطيئة الكبرى » يعالج فيها تولستوي قضية الأرض والاجحاف في توزيعها . وفي « الحرب والسلام » تصدى تولستوي ـ أيضا ـ لتصوير الحياة شبه الاقطاعية التي تحياها الطبقات العليا في روسيا ، وشهّر بفردية « نابليون » وبأنانيته ، وبفكرة عبادة الابطال ، ليبرز فكرة الاهتمام بالجماعية وبالجماهير الشعبية وحقها في الحياة الكريمة والحرية . وقد قال ميخائيل نفسه ـ بعد ذلك ـ عن تولستوي : « ... وجد معنى الحياة في خدمة الشعب ... »[110] .

أما قصيدة « الشيطان » لليرمونتوف ، ولئن احتوت على تصوير صادق لمشاعره وافكاره ، وارتبطت بنفسه ، فهي أيضا عمل فني يصور جوانب من حياة انسان لاقى العذاب والاضطهاد ـ حالة اناس كثيرين ـ فجاء شعره كما وصفه هو بقوله : « يفيض بالمرارة والغضب »[111] ، ويكفي أن تكون قصيدة « الشيطان » لخليفة بوشكين ـ شاعر روسيا القومي »[112] ، والذي قال عنه ميخائيل ـ بعد ذلك ـ « .. جعل من الأدب ترجمانا للحياة ... »[113] . فهي ولاشك توقظ الغافل في ضمائر الناس وتخلق فيهم الشوق الى حياة خالية من الألم والعذاب والاضطهاد .

رابعا : لعله بتعرفنا على هذه الطرق الثلاث في ابداء رأيه فيما اطلع عليه ، وملاحظاتنا على ذلك ، نكون قد اقتربنا أكثر وحددنا أعمق الاجابة عن السؤال الذي توصلنا الى شرعية طرحه : لميخائيل نعيمه نقد .. قبل الغربال .

ولهذا أجدني أنقل الحديث الى قضية نقدية مهمة ، تشير الى بعض أسباب أعاقت ظهور المسرح العربي وساهمت في تأخره آنذاك .

وما ذكره ميخائيل من معاناة فنية صادقة آنئذ ، لم يزل في تعداد المعوقات التي أخرت تقدم هذا المسرح وازدهاره ، وقد نبه الى أنها كثيرة ، وساق منها خمسا سماها « عقبات » قائلا : « ... هناك عقبات كثيرة تقوم في وجه التمثيلية العربية* .

ـ منها ازدواج اللغة بين الفصحى والعامية

ـ ومنها فقدان الممثلين والممثلات بالاخص .
ـ ومنها أن المستوى الثقافي في البلاد لا يزال منخفضا
ـ ومنها اختلاف الطوائف والعادات واللهجات حتى لتكاد كل قرية تستقل بأشياء غير مألوفة في قرية مجاورة .
ـ أما الفنانون الذين يتولون ترتيب المسرح وتصوير المشاهد فلا وجود لهم »[114]

واذا كان ميخائيل في ذكره لهذه النقاط يعوزه بعض الشرح والتحديد ، فلأن الموضوع جديد عليه وفوق تصوراته ومداركه الحضارية والثقافية ، وانما هو انطلق من المشاهدة والملاحظة والمعاناة* « يقول : « أريد أن أؤلف المسرحية ، وأن أتقن فن التمثيل ، من بعد أن زرت المسرح في بولتافا لأول مرة ، وسمعت ورأيت كيف تكون التمثيليات ، وكيف يكون التمثيل »[115] .

أما عن الاسلوب ، فقد تعرض له بحسب ما يريده هو لنفسه في النثر وفي الشعر : « أريد أن يكون لي في النثر أسلوب مرن رشيق ، وفي الشعر عذوبة وسلاسة وايقاع وموسيقى »[116] .

هذا الاستعداد أو الحس النقدي المبكر ، لدى ميخائيل ، ساهم في تكوينه عاملان :

الأول : عامل فطري .. تيقظه الفكري ، وذاكرته الحادة ، ونزعته العنيفة الى التفوق ، بالاضافة الى ما كان يشعر به من مكانة وحظوة لدى الاخرين ضاعف هذا احساسه بنفسه الى جانب ما في طبيعته من ميل الى التأمل والتفكير الجدي ، والملاحظة والمقارنة ، وحب المطالعة والأدب ، فاحساسه بالتكامل في تكوينه الشخصي ساعده على الرغبة في أن يكون له رأي وقول وأثر .. وإشراف وتوجيه وتنوير .. معتمدا على نفسه في تنمية الذوق الفني (ب) إدمان القراءة والتأمل والتفكير »[117] .

فالذوق الأدبي إذن « ... يأتي من الفطرة .. ثم التعليم والثقافة والخبرات التي يمر بها الناقد الأدبي ، والتي من خلالها يحاول أن ينمي ميوله وقدراته الطبيعية .. »[118] .

وقد أشار ـ بعد ذلك ـ الى أن « هناك خلة لا يكون الناقد فذًا اذا تجرد منها . وهي قوة التمييز النظرية »[119] .

الثاني : الدنيا العجيبة التي فاجأته في كنوز الادب الروسي ، فاحتوته ، وكان قبلا لا يعرف شيئا من ذلك . فنهل بنهم .. وأحس بنفسه انسانا آخر : « ... وفي المدرسة الدينية غرقت في الادب الروسي ، وانفتح أمامي تماما عالم جديد ، مملوء بالعجائب ، ولقد قرأت بنهم ، ولم أترك كاتبا روسيا أيا كان ، الا قرأته ، وعندما غادرت روسيا صدمت بركود الأدب في كل العالم المتكلم بالعربية ...

وأدى هـذا الى انقباض نفسي فكـان مؤلمـا الى أقصى الحدود ، خـاصة للانسان الذي تربى على الفن الرفيع .. وعلى الافكار الأدبية لبيلينسكي .

« ومن هنا يمكنكم أن تفهموا بسهولة السبب في أن أول خبراتي الأدبية باللغة العربية كانت اساسا ذات طابع نقدي »[120] وكانه ادرك ان « الوسيلة الوحيدة للمبتدئ في الدراسـة الادبية هي اذن أن يمـارس القراءة الطويلة مهتديا بهدي من يطمئن اليهم من المعلمين والنقاد »[121] .

واذا كان ميخائيل يعني في النص السابق « نقده » في الغربال ـ وباللغـة العربية ـ غافلا على أنه حاول النقد قبل الغربال في مذكراته باللغة الروسية . فاني أريد استعارة هذه الفقرة للتدليل بها على تكوين الحس النقـدي لديه : « ابتدأت حياتي الأدبية ناقدا ، وذلك يعود الى تعرفي الى الأدب الروسي »[122] كما قال أيضا عن نفسه : « فلولا أنه نهل من معين الأدب الروسي لما كان له أسلوب في النقد »[123] ، وأشار الى نواح ، كشف له عنها « بيلينسكي » معتبرا اياه سيد النقاد الروس بلا منازع ، فقد كشف لي عن مواطن الصدق والقوة والخير والجمال في العمل الأدبي ، وعن سمو وظيفة الأديب اذا هو أحسن تأديتها بالنسبة الى نفسه والى الحياة حواليه ، والى الذين يقرؤونه »[124]

ويمكن استنتاج عامل ثالث ساهم في تكوينه النقدي ـ بل في تطور حسـه النقدي وذوقه الفني ـ وهو ما لاحظه وتأمله من ركود وجمود في الأدب العربي بعد مغادرته روسيا ، اذ يقول ـ بعد ذلك ـ اجابة عن سؤال : لماذا اتجهت الى النقد ؟

« بدأت حياتي الادبية ناقدا ، لانه كان يضايقني جـدا أن أرى الجمود يسيطر على الأدب العربي ـ في بداية القرن ـ حتى لا تكاد تكون صلة بينه وبين الحياة التي يحياها الناس والادباء أنفسهم »[125] . فدفعته غيرتـه وثقافتـه حينئذ لينقد ويغير ما يمكن نقده وتغييره . فكتب مقالات في مناسبات متفرقة بأميركا جمعت ـ بعد ذلك ـ في كتاب سماه « الغربال » .

الإحالات

* عرف ميخائيل ناقدا ، بالغربال ، وفي الغربال ، وبعده . وهذا الفصل يتحسس الحديث عنه ناقدا ، قبل الغربال .

* ما عدا ما أشار اليه الدكتور انس داود في مقدمة كتابه « التجديد في شعـر المهجر » ، دار الكاتب العربي 1967 ـ القاهرة .

* سأحاول الاجابة على هذا السؤال من خلال : (1) ما اختاره ميخائيل نفسـه وترجمـه عن الروسية من مذكراته التي كتبها في الفترة ما بين 1908 ـ 1909 بروسيا أنظر « سبعون » ج 1ص 179 ـ 194 ، 222 ـ 243 ويذكر ان هذه المذكرات تعد قرابة 750 صفحة (2) .

(1) مجلة المجلة العدد 160 ابريل 1970 (المقال : « عن النقد التفسيري » الدكتور شكري عياد) .

(2) مقالة في النقد ص 8 غراهام هو . ترجمة محي الدين صبحي 1973 ـ دمشق .
(3) سبعون ج 1 ص 210
(4) العبقرية في الفن ص 64 الدكتور مصطفى سويف . المكتبة الثقافية . القاهرة 1967 .
(5) سبعون ج 1 ص 28 ما يتبين لي من بعض المواقف أو الملاحظات في سيرة حياته « سبعون ج 1 . كما تشير الى ذلك الإحالات .
(6) المصدر السابق ص 27
(7) المصدر السابق ص 148 .
(8) الكتاب المقدس : العهد القديم : التكوين . الاصحاح الأول . طبع بالقاهرة 1963 .
(9) سبعون ج 1 ص 145 .
(10) سبعون ج 1 ص 145
(11) المصدر السابق ص 145
(12) أبعد من موسكو ومن واشنطن ص 64
(13) المصدر السابق ص 64 (ينسب الى نفسه هذا الكلام وهو بالناصرة ودون العشرين من عمره خلال الفترة من 1902 ـ 1906) .
(14) سبعون ج 1 ص 229 .
(15) المصدر السابق ص 222 .
* أنظر ترجمة لحياته ولاهم اعماله وافكاره ، حيث كان احد الرواد البارزين للديمقـراطيين الروس ، والذي تابع باصرار « فكرة كفاح الجماهير من أجل الاطاحة بجميع السلطات القديمة » ـ الموسوعة الفلسفية ص 113 ترجمة سمير كرم . دار الطليعة ، بيروت 1974 .
(16) مجلة الشرق ، اكتوبر 1964 .
(17) الموسوعة الفلسفية ص 114 .
(18) الفن والتطور المادي للتاريخ ، ص 14 ، جورج بليخانوف ، ترجمة جورج طرابيشي ، بيروت 1977 .
(19) انظر : المصدر السابق ص 15
(20) نفسه ص 15 .
(21) مجلة الشرق ، العدد الخامس ، اغسطس 1957 (المقال : واقعية الادب والفن والاخلاق عند تشيرنيشفيكي) .
* ترجمت له باختصار « موسوعة الهلال الاشتراكية » ص 82 .
اما الموسوعة العربية الميسرة فقد حاولت التعريف بـه باختصـار كذلك . واشـارت الى تأثره بالفيلسوف هيجل (1770 ـ 1831) في أول حياته ، ثم اصبح بعدها ماديا واقعيا .
الا ان الموسوعة اخطأت في تاريخ ولادته ووفاته . ص 405 طبعة أولى 1956 .
اما « الموسوعة الفلسفية » فقد توسعت في الترجمة له باعتباره « ديمقراطي ثوري .. وناقد أدبي ومؤسس علم الجمال الواقعي الروسي ، كما تعرضت الى تصوره للمجتمع الاشتراكي العادل : حيث لا يوجد غني او فقير ، ولا يوجد قياصرة او رعية ، بل يوجد اخوة وبشر » . كما تعرضت الى النزعة التاريخية ـ وانفردت بذلك ـ باعتبارها من خصائص احكامه الجمالية ... ص 80 ـ 82 .
اما كتاب « مجمل تاريخ الأدب الروسي » تاليف مارك سلونيم ، ترجمة صفوت عزيز جرجس . الالف كتاب 1967 ، فقد اهتم بتقسيمه لمراحل تفكيره : 1) مثاليا : يرى في الادب تعبيرا عن الروح العالمية وجوهر العالم الخالد ـ 2) تأثره بهيجل وفهمه الفلسفي الذي يقوم على القيم المطلقة ـ 3) نبذه كل ذلك واصبح ماديا واقعيا . انظر ص 74 ـ 77
وهذا التسلسل لتتبع تطور التفكير الجمالي لدى بيلينسكي نجده بطريقة أوضح في كتاب : « الفن والتطور المادي للتاريخ » لجورج بليخانوف : « كان بيلينسكي قد بدأ بمثالية شيلينغ وفيخته ، ثم شغف بفلسفة هيجل ، لينتهي أخيرا الى مادية فيورباخ . وفي حقبته المثالية بشر بالفن الخالص ، وبدءا من عام 1840 عزا الى الفن وظيفة اجتماعية » ـ انظر : ص 13 .
(22) المصدر السابق .

(23) مجلة الشرق العدد 61 ، ابريل 1962 (المقال : بيلينسكي رائد النقد الأدبي في روسيا) .
(24) موسوعة الهلال الاشتراكية ص 82 دار الهلال 1968 .
(25) V.G. BELINSKY SELECRED PHILOSOPHI CAWOVKS (F.L.P.H.) : WLIV ترجمة بشير السباعي ـ القاهرة ـ
(26) معالم النقد الادبي ص 200 ، الدكتور عبد الرحمن عثمان ، دار المعارف 1968 .
(27) V.G. BELINSKY SELECRED PHILOSOPHI CAWOVKS (F.L.P.H) P : XLIV
(28) تجارب في الادب والنقد ص 120 دار الكاتب العربي 1967 .
(29) V.G. BELINSKY SELECRED PHILOSOPHI CALWOVKS (F.L.P.H.) P : XLV
(30) أبعد من موسكو ومن واشنطن ، ص 70 ـ 71 .
(31) مجلة الفكر شهر اكتوبر 1961 ـ تونس .
(32) النثر المهجري ج 2 ص 216 عبد الكريم الاشتر معهد الدراسات العربية (من رسالة بعث بها المؤلف بتاريخ 9 كانون الأول (ديسمبر) 1958
(33) سبعون ج 1 ص 211 .
(34) مجمل تاريخ الأدب الروسي ص 82 .

* نلاحظ أنه لم يورد لنا شيئًا من تجاربه الشعرية آنذاك ، ويذكر خلال مذكراته أنه كان يلقى التشجيع والاعجاب من زملائه ، ومن استاذه « فرامنكو » حتى أنه نسخ له طائفة مختارة من قصائده وكتب عليها الأهداء له . ـ سبعون ج 1 ص 242 .

(35) سبعون ج 1 ص 183 .

* هذا العمل الشعري الذي لم نره ، يذكرنا عنوانه ومضمونه ـ تقريبا ـ بعمل أدبي (قصة) لتورجنيف تحت عنوان « مذكرات صياد » . يقول « يانكولافرين » عنه : « ... كتاب غالبية فصوله عن الفلاح أو على الاصح عن الفلاح ومالك الارض في اتصالهما المتبادل . » ـ تعريف بالرواية الروسية ص 76 . الالف كتاب 1962 . محي الدين حقي ناصف .

وانظر ايضا : رواية دخان لتورجنيف (المقدمة ص 9) ترجمة الدكتور شكري محمد عياد . روايات الهلال العدد 239 سنة 1977 .

انظر كذلك : مجمل تاريخ الادب الروسي ص 83 مارك سلونيم : ترجمة صفوت عزيز جرجس .

* نلحظ هنا تأثره برأي روسو (1712 ـ 1778) وتولستوي (1828 ـ 1910) من حيث ان المدنيّة اضرت بالانسان ، فناديا بالعودة الى الطبيعة . يقول ميخائيل : « ..جرنا الحديث الى المدنيّة الحاضرة ، فرحت أهاجمها بعنف ... كنت من حيث لا أدري ادافع عن نظرة روسو وتولستوي ، لانها تتفق ونظرتي .. » ـ سبعون ج 1 ص 35 .

(36) المصدر السابق ص 240
(37) مجمل تاريخ الادب الروسي ص 75
(38) الفن والتطور المادي للتاريخ ص 20 .
(39) المصدر السابق ص 84 .
(40) المصدر السابق ص 84 .
(41) سبعون ج 1 ص 236
(42) المصدر السابق ص 236
(43) الموسوعة الفلسفية ص 528 وضع لجنة من العلماء والاكاديميين السوفياتيين ترجمة سمير كرم ، دار الطليعة بيروت 1974 .
(44) النقد الفني ص 526 . جيروم ستولنيتز (ترجمة) د . فؤاد زكريا . القاهرة 1974 .
(45) الموسوعة الفلسفية ص 528

* يفضل « ارنست فيشر » استخدام عبارة « الفن الاشتراكي » لأنها في رأيه : « ... تشير بوضوح الى موقف لا الى أسلوب ، وهي تؤكد النظرة الاشتراكية ، لا المنهج الواقعي » .

كما يقول : « الواقعية الاشتراكية » وبعبارة اوسع الأدب والفن الاشتراكي في مجموعه ... تتضمن **الموافقة** الاساسية من جانب الكاتب أو الفنان على أهداف الطبقات العاملة والعالم

الاشتراكي الناهض » فكأنه يعني ان الفنـان ليست له الاصالة فيمـا يعبر عنـه وانما هـو ينقل ويسجل . .

بخلاف « الواقعية النقدية » بل وبعبارة اوسع الأدب والفن البورجوازي في مجموعه ، (أي كل أدب وفن بورجوازي عظيم) ، تتضمن **نقدا للواقع الاجتماعي المحيط بالفنان** فكأنه يعني ان الفنان له الاصالة فيما يعبر عنه ، وليس بناقل او بمسجل .

ـ انظر : ضرورة الفن ص 140 ترجمة اسعد حليم . الهيئة المصرية العامة 1971 ، ولعلني ذهبت مع استعمال « الواقعية الاشتراكية » معتمدا عـلى الاقتناع بـالواقع المعبـر عنه من طرف الفنان ، كما اني اعتبرتها خطوة لاحقة او نتيجة للواقعية النقدية وباعتبارانها فلسفة اجتماعية تهم المجتمع كله فجانب القناعة او التلقائي اوفر نصيب ، فاعتبرنا التسمية موقفا وأسلوبا .

(46) المصدر السابق ص 526 .

(47) الموسوعة الفلسفية ص 526 .

(48) المصدر السابق ص 153 .

(49) المصدر السابق ص 153 .

(50) المصدر السابق ص 154 .

(51) المصدر السابق ص 153 .

(52) المصدر السابق ص 153 .

(53) V.G. BELINSKY SELECRED PHILOSOPHI CALWOVKS (F.L.P.H.) P : XLIV MOS-COW 1956

(54) الموسوعة الفلسفية ص 81 .

(55) النقد الفني ص 528

(56) الفن والتطور المادي للتاريخ ص 16 .

(57) V.G. BELINSKY SELECRED PHILOSOPHI CALWOVKS)F.L.P.H) P : XLIII

(58) المصدر السابق

(59) النقد الفني ص 526

(60) المصدر نفسه ص 528 .

(61) نفسه ص 526 .

(62) نفسه ص 526 .

(63) نفسه ص 530 .

(64) الأدب وفنونه (دراسة ونقد) ص 85 د . عز الدين اسماعيل . القاهرة 1965 .

* يقابل هذا التيار تيارا آخر « دعاة السلافية » ، يرى ان الثقافة الروسية دينية في جوهرها ، وانه لابد من الوقوف في وجه الحضارة الغربية المادية والابتعاد عن مدنية الغرب » ـ انظر : مجمل تاريخ الأدب الروسي ص 77 ـ 78 .

(65) المصدر السابق ص 53

(66) المصدر السابق ص 76 .

* هي الحركة الثورية التي قام بها جماعة من الثوريين الروس النبلاء في ديسمبر من عام 1825 ضد الحكم القيصري المطلق . ولقد فشلت هذه الحركة ، وحكم على قـادتها بـالاعدام والنفي في سيبيريا .

ـ انظر دراسات في الواقعية الاوروبية ص 272 .

وانظر كذلك : الادب بين المادية والمثالية ص 12 ، بليخانوف . ترجمة حامد احمد حمداي . مكتبة المعارف بيروت 1956 .

(67) مجلة الشرق العدد 61 ، أبريل 1962 .

(68) سبعون ج 1 ص 175 ـ 176 .

(69) الادب في عالم متغير ص 120 ـ 121 (المقال : حدود الواقعية الاشتراكية) الدكتور شكري عياد . القاهرة 1971 .

(70) المصدر السابق ص 121 .
(71) الموسوعة الفلسفية ص 526 .
(72) الأدب في عالم متغير ص 121 .
(73) المصدر السابق ص 121 .
(74) دوستويفسكي ص 53 . رينيه ويليك . ترجمة نجيب المانع . المكتبة العصرية بيروت 1967 .
(75) دراسات في الواقعية الأوروبية ص 135 . جورج لوكاتش . ترجمة امير اسكندر القاهرة 1972 .
(76) مجمل تاريخ الادب الروسي ص 77 .
(77) مجلة الشرق . العدد 61 (من فقرة طويلة لهرزن بمقال : بيلينسكي رائد النقد الأدبي في روسيا) .
(78) مجلة الشرق العدد الثالث سنة 1958 (المقال : امتحان للادب الروسي المعاصر . ترجمة وتعليق محمد مفيد الشوباشي) .
(79) مجمل تاريخ الادب الروسي ص 74 .
(80) المصدر السابق ص 74 .
(81) الأدب والفن في ضوء الواقعية ص 25 . ترجمة محمد مفيد الشوباشي . دار الفكر العربي . بدون تاريخ .
(82) دراسات في الواقعية الأوروبية ص 137 (جورج لوكاتش) ترجمة أمير اسكندر . القاهرة 1972 .
(83) مجمل تاريخ الادب الروسي ص 75 .
(84) مجلة الشرق ، العدد 61 أبريل 1962 (من فقرة له بمقال : بيلينسكي رائد النقد الادبي في روسيا) .
(85) سبعون ج 1 ص 179 .

* ميخائيل ليرمونتوف (1814 ـ 1841) بدأ كتابة الشعر وهو في الثانية عشرة من عمره ، وأحبَّ بعنف وهو في العاشرة ... واكتسب على الرغم من قبحه شهرة « دون جوان » . وأدى نزاعه مع صديق له على فتاة كانا يحبانها للمبارزة ، فقتل ، وكان عمره انذاك سبعة وعشرين عاما ، وعندها خرجت احدى الصحف محاطة باطار اسود معلنة : « شمس الشعر الروسي قد غربت » ونشره كذلك لا يقل روعة عن شعره .

« الشيطان » قصة شعرية طويلة تضمنت تصويره لمشاعره وافكاره ، وظلت ايضا أكمل تعبير عن الرومانسية الروسية ... وهي تتسم بسحر الاساطير الشرقية ، وتصور مشاعر الكبرياء والحب والثورة العنيفة وسط المناظر الطبيعية المهيبة الغريبة في جبال القوقاز ... » ـ انظر مجمل تاريخ الادب الروسي ص 43 .

(86) سبعون ج 1 ص 179 ـ 181 .

* اسكندر سيرجيفتش بوشكين (1799 ـ 1837) هو الشخصية التي يدور حولها الأدب الروسي جميعا منذ عهد بطرس الاكبر (1672 ـ 1725) ـ وهو قيصر عنيف أسس الامبراطورية الروسية واخضعها للتأثير الغربي ـ وسمي بوشكين شاعر روسيا القومي . وشاع القول بان كل تيارات القرن الثامن عشر تؤدي الى بوشكين ، وان كل انهار القرن التاسع عشر تنبع منه . وهوظاهرة ثقافية وشاعر لا مثيل له في الأدب الروسي . ليس هناك ميدان من ميادين الكتابة لم يترك فيه نماذج فذة . نادى بالحرية ، وهاجم الاسترقاق وسخر من نظام الحكم الاستبدادي . يؤمن بالنزعة الانسانية . ولا يحتوي شعره اطلاقا على نبرات دينية . وثني اكثر منه مسيحي ، ومفكر حر اكثر منه مؤمن » ـ مجمل تاريخ الادب الروسي ص 99

(87) مجلة الشرق ، العدد 61 ابريل 1962 ، القاهرة .
(88) تعريف بالرواية الروسية ص 33 .
(89) مجلة الشرق العدد 61 ابريل 1962 .

(90) تعريف بالرواية الروسية ص 33 .

(91) سبعون ج 1 ص 192 .

(92) النقد المنهجي عند العرب ومنهج البحث في الادب واللغة ص 17 ، الدكتور محمد مندور . النهضة مصر 1969 .

(93) سبعون ج 1 ص 190 .

(94) المصدر السابق ص 229 .

* كتب تولستوي (1828 ـ 1910) الحرب والسلام فيما بين 1862 ـ 1869 وهي سجل تاريخي عائلي لثلاث عائلات ... تمثل الاعيان والملاك والاشراف ... ولهذا لا تعد قصة تاريخية بالمعنى المتعارف عليه لكنها قصة عظيمة . جوهر هذا العمل الخالد هو وصف الحياة شبه الاقطاعية التي تحياها الطبقات العليا . وقد صورها بلذة ونضارة ، حتى انه حول حفلات الغداء ومآدب عيد الميلاد .. أو مجون الضباط السكارى الهمجي أو قصص حب الفتيات المراهقات العاطفية الى صور تشع بالتألق والسحر ... وقد اختار لها الفترة التاريخية سنة 1812 وهي فترة غزو نابليون لروسيا ، والشيء الذي لم يطقه تولستوي انانية الكورسيكي المتضخم : نابليون البطل وقائد الرجال ، وقد اتاحت له الحرب والسلام فرصة للتشهير به .. » . ـ تعريف بالرواية الروسية ص 149 وما بعدها وكذلك : مجمل تاريخ الادب الروسي ص 147 .

(95) سبعون ج 1 ص 189 .

* انظر ما يقوله « توماس كارلايل » (1795 ـ 1881) في « نابليون » (1769 ـ 1821) : « ... ضابط صغير على طائفة من جند المدافع ، هذا هو ظاهر نابليون ، ولكنه مع ذلك قد أصاب من طاعة رجاله وتقديسهم اياه ما لم يصبه كثير من الانبياء وجبابرة الملوك » ـ كتاب الابطال ص 73 ، ترجمة محمد السباعي .

الكاتب توماس كارلايل من القائلين بمبدأ الفردية ، ومن المدافعين عن فكرة الفرد البطل في التاريخ ، حتى قيل عنه :

« كان مفرطا في ايمانه بالفردية » ـ مبادىء النقد الادبي ص 365 ، رتشاردز ترجمة الدكتور مصطفى بدوي 1961 القاهرة .

(96) تعريف بالرواية الروسية ص 152

(97) المصدر السابق ص 152 .

(98) سبعون ج . ص 82 .

(99) المصدر السابق ص 193 .

(100) المصدر السابق ص 153 .

(101) ليوناردو دافنشي (دراسة تحليلية لفرويد) ص 53 ـ 56 . ترجمة احمد عكاشة .

(102) سبعون ج 1 ص 231 (هذه العبارة جاءت في مذكراته بروسيا ، وقد استمر معه هذا الرأي . حيث يقول في سنة 1956 » لنا في حياة العظماء معين لا ينضب من الخبرة والعبرة والايمان والامل . فهم القمم التي نتطلع اليها بلهفة وشوق ... وهم الذين يجددون ثقتنا بأنفسنا وبالحياة وأهدافها البعيدة السعيدة . ولو لاهم لتولانا القنوط في كفاحنا مع المجهول ... » ـ في الغربال الجديد ص 221 ، طبعة اولى 1972 بيروت) .

(103) الشعر العربي في المهجر ص 191 . د . احسان عباس . د . محمد يوسف نجم .

(104) معالم النقد الأدبي ص 210 . الدكتور عبد الرحمن عثمان .

(105) مجلة المجلة . العدد 160 ابريل 1970 (المقال : « عن النقد التفسيري ») د . شكري محمد عياد .

(106) الادب وفنونه ص 139 د . محمد مندور . دار النهضة . لم يذكر تاريخ الطبع

(107) المصدر السابق ص 137 .

(108) معالم النقد الأدبي ص 211 .

* انظر الحديث عنها بكتابه : سبعون ج 1 ص 257

(109) معالم النقد الأدبي ص 211 .

(110) في الغربال الجديد ص 8

(111) مجمل تاريخ الادب الروسي ص 43 .

(112) المصدر السابق ص 21 .

(113) في الغربال الجديد ص 73 .

* جاء ذلك تحت عنوان : « الرواية التمثيلية العربية » تحدث عن هذه النقاط وبين وجهة نظره فيها بشيء من التفصيل والتركيز على اهمها وجعل ذلك مقدمة لروايته « الاباء والبنون » التي طبعت بنيويورك سنة 1917 ثم نفس المقدمة ادرجت بعد ذلك ضمن مقالات « الغربال » الذي طبع بالقاهرة سنة 1923 .

(114) سبعون ج 1 ص 224 .

* يقول : « ... بدأت اليوم اكتب تمثيلية عربية ... » - سبعون ج 1 ص 223 .

(115) سبعون ج 1 ص 175 .

(116) المصدر السابق ص 210

(117) وظيفة الادب بين الالتزام الفني والانفصام الجمالي ص 78 د . محمد التويهي . القاهرة 1967 .

(118) مجلة العربي - ديسمبر 1976 (المقال : مفهوم النقد عند محمد مندور عبد الوهاب علي الحكم) .

(119) الغربال ص 17 .

(120) مع المخطوطات العربية ص 125 . المستشرق كراتشوفسكي

(121) وظيفة الادب بين الالتزام الفني والانفصام الجمالي ص 79 .

(122) مجلة شعر العدد 39 صيف 1968 .

(123) مجلة الحديث ، كانون الثاني (يناير) 1949 (المقال : ادب المهجر) .

(124) ابعد من موسكو ومن واشنطن ص 73 .

(125) الهلال . العدد السادس . يونية 1967 . القاهرة (مقابلة اجراها معه احمد ابو كف) .

أول ذكرى لابن رشيق

الشاذلي عطاء الله

كانت جمعية الشباب الرشيقي نظمت سنة 1937 ذكرى لابن رشيق فأحببنا أن نعطي لمحة عما جرى في الذكرى الأولى لشاعر القيروان. وأعاننا على ذلك الشاعر القيرواني الشاذلي عطاء الله متعه الله بالصحة وكان في تلك الفترة هو الكاتب العام لجمعية الشباب الرشيقي لذا يجد القارىء ما وصلنا من هذه النصوص تعميما للفائدة وقد مدّنا بها مشكورا السيد الشاذلي عطاء الله بمناسبة أول ملتقى لابن رشيق يعقده اتحاد الكتاب التونسيين وذلك في مارس 1975.

وبالتأكيد فان الدراسات اللاحقة قد تجاوزت معلومات هذا الملف الصغير ... ولكننا أردنا أن ننشره كوثيقة من وثائق الأدب التونسي ومدى حرص الأجيال على العناية بأدبائه ... والاهتمام باحياء ذكراهم ...

وباعتبار هذا الملف وثيقة ... فاننا لم نحاول إصلاح ما تضمنه من آراء أو نتائج ... فهي منسوبة لأصحابها ولعصرهم لكن بعض التعليقات كانت ضرورية ... فوضعنا كلمة « المسار » للدلالة عليها.

« المسار »

« رسالـــة »

الحمد لله وحده

الى حضرة الأستاذ رئيس اتحاد الكتاب التونسيين

تحيّة طيّبة

أما بعد فقد علمت أن اتحادنا سيقيم مهرجانا لابن رشيق الشاعر الناقد القيرواني بمناسبة ذكراه الألفية . واني لا أملك الكلمات التي تفي بـالثناء

عليكم لقيامكم بهذه البادرة التي إن دلت على شيء ، فانها تدل على إخلاصكم للأدب وتقديركم لرجاله . وإني لموقن أن هذه المفاجأة الطيبة ستتلوها مفاجئات جريئة ترفع من شأن بلادنا ورجالها ، وتنفض عن كنوزنا الثمينة ما علق بها من غبار ، وتقدمها للعالم كبراهين على ما لتونس من أفذاذ قدموا للعلم والمعرفة أعظم الخدمات .

وبهذه المناسبة أحببت أن أطلعكم على موضوع يرجع تاريخُه إلى سنة 1937 . هو موضوع إقامة مهرجان لاحياء ذكرى شاعرنا بمناسبة مرور تسعة قرون على وفاته ، وكان ذلك باشراف « جمعية الشباب الرشيقي » بالقيروان ، وتألفت للغرض لجنة لم يبقَ من اعضائها إلا الأساتذة : محمد الحليوي أستاذ ـ التابعي الأحمر محامي ـ محمود عبد الله أستاذ[1] وكاتبها العام محرر هذه الكلمة . وأُعْلِن عن المهرجان فوق أعمدة الصحافة التونسية . ووجِّهت الدعوة إلى العديد من الأساتذة وذوي الاختصاص من تونسيين وغيرهم للمشاركة ، وتلقت اللجنة عددًا من الردود كلّها تحمل الاشارة بالموافقة . وكانت الردود تحمل عناوين المواضيع التي سيساهم بها أصحابها في مهرجان الذكرى . وقد بعث فريق منهم بالنصوص التي سيشاركون بها .

وهؤلاء هم الأساتذة :

محمد المأمون النيفر ـ قصيد : تونس

نورالدين بلحسن بن محمود ـ تونس ابن رشيق والمعز بن باديس

عبد الكبير بن عبد الحي الكتاني ـ الرباط ابن رشيق الشاعر الناقد

الدكتور الطاهر الخميري ـ هامبورغ مؤلفات ابن رشيق

وقد احتفظت بهذه الدراسات حتى تهيأت الفرصة والحمد لله فرأيتُ من الأمانة إذ لم يعد أيٍ حق الاحتفاظ بها ـ ومن الوفاء لأصحابها أن أخرجها إلى النور . وما النور إلاّ في هذا المهرجان المتألق الأضواء والذي سيشرف عليه ـ بجدارة ، اتحاد كتابنا التونسيين .

وها أنا أبعث بها اليكم رجاء تقييمها وإعطائها ما هي خليقة به من العناية والتخليد .

أمدكم الله بعونه وتوفيقه

والسلام عليكم

القيروان في 7 مارس 1975 .

---

1) توفوا ثلاثتهم عليهم رحمة الله . (المسار) .

ابن رشيق الشاعر الناقد

عبد الكبير بن عبد الحي الكتاني

أنّى لمن خدمته القوافي خدمة العبيد ، أن يجيد بما أوتي من شعر فياض ، تصوير عبقرية وشاعرية ابن رشيق ـ وأنّى للكاتب الذي انساق له السحر في البيان أن يحلّل ترجمة شاعرنا الافريقي العظيم . وما سأتكلم عليه الآن هو نظرة سريعة الى أدب ابن رشيق ونقده الحلو

سادتي

نشأ ابن رشيق قريبا من الأشجار الملتفة التي تخيل الى الناظر إليها أنها جنّة الدنيا ، في قطر حيطانه أغصان ، ولكنها أغصان الياسمين ،(1) بين الأشواك ولكنها أشواك الورود والرياحين . وأن قطرا كهذا لخليق بأن يثير في الشاب عاطفة الشعر ، وإنّ شاعرنا لشاب ، فإذا أنشد الشعر وتربت فيه ملكة الخيال التي هي وحي الشعراء جاء شعره كلّه حكمة وحلاوة وطربا ، وكله حزنا وأسى شأن الشاعر الفذ .

تعلّم وقرأ وصاحب الملك ، فلم يكن شعره بشعر صعلوك ، لأن الشعر من أعظم ما ينمّيه حالة الشاعر كما علمتم ، وأنه لخال من الحشو فيه الروعة والخيال ـ ولكم أعزائي ـ أن تتخذوا دليلا على ما قلنا ، هذه النتفة التي أنشدها وقد غاب المعز وكان المطر ينزل بكثرة واليوم يوم عيد الفطر (ولا شك أنكم ستقاطعونها بالتصفيق الحاد)

تجهّم العيدُ وانهلّتْ مدامعُهُ
وكنت أعهد منه البشرَ والضحكا
كأنما جاء يطوي الأرضَ من بُعُدٍ
شوقا إليكَ فلما لم يجدك بَكَى

ومن قبيل الشيء الكثير شعره الذي يقطر حلاوة كما في هذه القطعة :

من ذا يعالج عنّي ما أعالجه
من حر شوق أذاب القلب لاعجُهُ
ومن يكن لرسيس الشوق داخله
يحكي لفرط الصِّبى والسقم خارجُه
كادت خلاخلُ من أهوى تبوحُ به
سرّا وغصّتْ بما فيها دمالجُهُ

1) الإشارة هنا لمدينة جلولا ، تلك المدينة التي كانت جنة بذلك القطر

لقد سار شعر ابن رشيق شوطا بعيدًا نحو المثل الأعلى ، ولا عجب ، فقد نشأ في مدينة القيروان التي هي كما وصفنا في جلب الشاعرية للشـاعر ... وفي العلم ، يحكى عنها ابن ناجي ويقول « حكى ابن غانم : أنه انصرف من صلاة الجمعة بجامع القيروان الأعظم ، ـ فدخل عليه بعض ـ أصحابه ، فسأله ابن غانم : حَضرت اليوم الجامع ؟ قال : نعم : قال : كيف رأيته ؟ قال رأيت ـ أصلحك الله ـ به سبعين قلنسوة تصلح للقضاء وثلاثمائة قلنسوة فقيه . فترجَّع ابن غانم وقال : مات الناس » إنها لجديرة بأن تنجب شاعرا يختصر الموطّا ،[9] ويؤلف التآليف التاريخية المفيدة » .

وإذا أردنا معرفة ناحية خاصة يحسنها ابن رشيق في الأدب العربي رأيناه يحسن ناحية جديدة في الأدب إذ ذاك ألا وهي ناحية النقد ، إذ الأمة العربية لم يكن معروفا عندها بقواعد معلومة نقدُ الشعر . أما النقد ، فهو في غـرائزهم مركب في طبائعهم . وكان لنقد الدراهم عندهم مكان كبير في النقد ، فكان يعرف بأساليب المزيف والصحيح منها . أما نقد الشعر من قوافيه إلى عروضه إلى وزنه ولغته ومعانيه وأسلوبه وخصوصا خياله الشعـري : فلم يكن معروفـا بقواعد ، إلاّ أنه كان قديما في الأدب يتصل بصدر الاسلام ، حتى انه كـان يجري في العهد الأموي الشيء الكثير من المشاحنات حول من هو أشعر شاعر ، ولقد خُصَّ لنقد الشعر جماعةٌ من المؤرخين الاعلام كابن سلاّم الجمحي . ألف طبقات الشعراء وصدّر تأليفه بمقدمة في النقد . ومن أكثرهم نقدا وتمحيصا ابن قتيبة في كتابه الشعر والشعراء ومنهم حسن بن بشير الآمدي وضع كتابا في الموازنة بين أبي تمام والبحتري وغيرهم . ولكن جميع ما أتى به هؤلاء ظاهر النقص أمام كتاب العمدة الذي طابق اسمه مسمّـاه ، فهو عمـدة الأديب في صناعة الشعر ونقده . ذلك الكتاب الذي حق لافريقية أن تفتخر به وتباهي به المشرق . ويذكر في طليعة ما كتب شعراء وكتاب إفريقية ، ذاك الكتاب الذي إذا عرف ابن رشيق بنواة فكرية فهي هو ، وبها يعرف ذالك الكتاب الذي شهد كل من رءاه بأنه أعظم تأليف في هذا الفنّ على هذا الشكل . هاكم ـ أعزائي ـ على سبيل المثال شهادة أكبر مؤرخ تعتمد عليه إفريقية في فلسفة التـاريخ ـ ابن خلدون في مقدمته بباب الشعر ـ قـال ، « هو الكتـاب الذي انفرد بصنـاعة الشعر ، وإعطاء حقها ولم يكتب أحد قبله ولا بعده مثله » إن هذه لشهادة ترفع رأس شاعرنا عاليا وقد ارتفع حتى وصل إلى قمة العلياء .

ولقد اعتنى الناس بهذه العمدة ، هذا السجل العام والديوان المنتقى ، حتى اختصره الصفدي وسمّاه العدة ، واختصره موفق الدين البغدادي ، وانتقده وعارضه أبو عبد الله محمد ابن أبي سعيد بن أحمـد ابن شرف الجـذامي

---

9) ينظر عن نسبة هذا الكتاب انموذج الزمان ، المقدمة ص 18 ، المسار ،

القيرواني ، الشاعر المعاصر لشاعرنا الذي كانت بينه وبين صاحبنا خصومة معلومة . ولكن شتان بين ابن رشيق وابن شرف .

وليست العمدة وحدها كتاب ابن رشيق في النقد ، بل هي أجمع كتبه في الفن ، لأن شاعرنا حبس جميع أدبه على النقد ، ولك أن تقول هو أعظم كتاب ألف في الفن كما قالها غيرك . وابن رشيق ناقد يشهد له بذلك كتاب العمدة الذي اشتهر به ، وقراضة الذهب في نقد اشعار العرب ، ونقد كثيرا من القصائد بلطيف من الرسائل

سادتي

إن في نقد ابن رشيق روعة التصوير ، وسلامة الأسلوب ، ولذة الدعابة كما يتجلى فيما ستسمعون من نقده لشاعر اندلسي فحل قال على سبيل التوطئة هذا التشبيه البديع (اللفظ جسم وروحه المعنى ، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم ، يضعف بضعفه ويقوى بقوته ، فاذا سلم المعنى واختلّ بعض اللفظ كان نقصا للشعر وهجنة عليه كما يعرض لبعض الأجسام من العرج والشلل والعور وما اشبه ذلك ، من غير أن تذهب الروح » . ثم تخلص للنقد فقال –وهم فرق : قوم يذهبون الى فخامة الكلام وجزالته على مذهب العرب ، وفرقة أصحاب حلية وقعقعة بلا طائل معنى ، إلا القليل كأبي القاسم وما جرى مجراه الخ » وعلى هذا النمط العجيب يسير ابن رشيق في سائر كتبه في النقد . وبأسلوب العالم الناقد يسير في كتاب العمدة الذي هو مفخرته وبه سمّي ناقدا حتى كان نقده يغلب على شعره . وبهذا يقال له الناقد لا الشاعر على أن جميع من ترجمه يعتمد على شاعريته ونبوغه في التعريف به مع أنه في طليعة النقاد في العالم الاسلامي ولا يوجد من كتب في النقد مثله ، وان وجد فهو صورة مصغرة من نقد ابن رشيق كما يظهر ذلك جليّا في كتبه خصوصا العمدة . عمدة الأديب وحق لها ذلك ولقد اشتهرت وتداولتها الأيدي في الشرق والغرب ، وقل مكتبة بارزة ألا وفيها منه نسخة أو أكثر ، فان الباحث يجد منه نسخة بدار الكتب المصرية بخط عادي كتبها السيد أحمد بن محمد الديروطي ، وفرغ من كتابتها يوم الجمعة الثامن والعشرين من شهر ذي القعدة سنة 1298

وأخرى يخصها الجزء الأول بقلم معتاد تم نسخه في منتصف يوم الاربعاء الثامن عشر من شهر ذي الحجة سنة 689 ومنه نسخة خطية نفيسة بمكتبتنا الكتانية ، كتبها بيده أبو الحسن علي ابن مصباح الزرويلي أحد كبار أدباء وكتاب القرن الثاني عشر[1]

---

1) وهو مؤلف كتاب سنن المهتدى في اخبار الوزير اليحمدي وكتاب انس السمير في نوادر الفرزدق وجرير .

أما طبعات هذا الكتاب القيم فقد طبع منه الجزء الأول بتونس في صفحات 207 وطبع في جزءين سنة 1325 وطبع طبعة أخيرة أنيقة على ورق بمصر سنة 1353 .[1]

أعزائي الحاضرين .

لقد أراد الله أن يكون ابن رشيق شاعرا نابغة أنشد الشعر من الحكم ومن الوصف والمدح . وانتقد فصار « واضع علم النقد بافريقية » وأنشد في الخمريات مما يشهد لنا بنبوغه ، وقال في آخر موته ما يهيىء له النعيم :

إذا أتى الله يوم الحشر في ظلل ... وجيء بالأمم الماضين والرسل
وحاسب الخلق من أحصى بقدرته ... أنفاسهم وتوفاهم الى أجل
ولم أجد في كتابي غير سيّئة ... تسوءني وعسى الاسلام يسلم لي
رجوت رحمةَ ربي وهي واسعة ... ورحمة الله أرجى لي من العمل

فلقد ادخر بما قال في هذه الأبيات تعميما دائما لا ينقضي مما لم يبقِ لعدو ما يقول .

فحق لكم أعزائي الافتخار به وإن كره المنافقون . فعليه رحمة الله من شاعر نابغة . ولكم الشكر من أدباء عاملين . وإلى الأمام في إظهار مجدكم وسلام عليكم . من صوت يحييكم بفاس .

1) انظر طبعات اخرى في انموذج الزمان ص 13 ، المسار

ابن رشيق والمعزّ بن باديس

نورالدين بلحسن بن محمود

نعرف عن المعزّ أنه واسطة البيت الصنهاجي فضلاً وأدباً وكرماً وبذاخةً غير أن الظروف لم تساعده . وقد صفت له أولا الاحوال ، فرتع في بحبوحتها ما شاء وعاش في رخاء ودعة ، آمنا من ريب الزمان ، لا يخشى غائلة ، ولا يخاف عاقبة ، حتى قطب في وجهه ما كان ضاحكا ، وبقي يعاني الدهر ، والدهر إذا اعرض مرض مزمن فتاك ... إلى أن جاءه حمامه ببلد المهدية سنة 453 ودفن برباط المنستير .

ونظير المعز في تقلب الدهر عليه ابن عباد ملك إشبيلية . غير أن صاحبنا أحسن حالا وأحمد مآلا . لأن ابن عباد شاهد زوال ملكه من أساسه ، وعاين اقتلاع أضراسه ، وذاق ذل الأسر وطعم مرارة الفقر ومات شريدا في جوف الصحراء .

أما المعز فإنه رأى استنسار البغاث ، وانتقاض الأطراف ، وتنمّر الضعاف ، غير أنه لم يفقد عزه ، ولا أضاع ملكه ، بل أبقاه لبنيه راجيا انقشاع الغمة ، والتفريج على الأمة ، من أولئك الأعراب ، عنوان الخراب ، ووباء إفريقية ، والرزية التي لا تماثلها رزية

كان المعز أيام الدولة قائمة ، والدهر مبتسم ، وذلك من سنة 407 الى سنة 435 ، ينتقي خيرة العلماء والأدباء ، ويصطفي الصفوة من الكتاب والشعراء ، حتى غدا بلاطه مؤئلا لكل عالم وأديب ، ولكل ناثر وشاعر . وهنالك سوق العلم نافقة ، وتجارة الأدب رابحة . قال ابن خلكان : كان بلاطه محط الآمال يضم أكثر من مائة شاعر يشار اليهم بالبنان ، وسارت بشعرهم الركبان ومنهم أبو الحسن علي بن أبي الرجال الشيباني الذي أهداه ابن رشيق كتابه الذائع الصيت ـ العمدة في صناعة الشعر ونقده ـ وهو مربي المعز وكاتب سره . وكانت منزلته منه منزلة الوزير . ومحمد بن أبي سعيد بن شرف القيرواني صاحب أبكار الأفكار ورسائل الانتقاد . وأبو إسحاق ابراهيم

الحصري وبيته كما هو معلوم منتدى شبان القيروان فعنده يجتمعون وعنه يأخذون وهو رأس عندهم وشرف لديهم . وهو مؤلف زهر الآداب وذيله – وقد طبعا – والمصون في سر الهوى المكنون . وابراهيم الماردي القيرواني .

وصاحبنا الحسن ابن رشيق القيرواني نشأة ، والاندلسي وفاة (1) ، ، صاحب العمدة – ولو لم تكن إلا هي لكفته – وقراضة الذهب ، وديوان شعر اعتنى بجمعه الرّاجكوتي وهذه كلها مطبوعة . أما التي لم تطبع فأشهرها أنموذج الزمان في شعراء قيروان . وأعرف بعض الأصدقاء جادا في البحث عليه وفقه الله لمبتغاه ورأيته بصدد جمع تراجمه المشتتة في الكتب . وقد جمع نبذة منها الراجكوتي في ترجمة صاحبنا . فعسى أن لا يشذ عنه شيء من تراجم الكتاب الا ما قلّ[2] وله مؤلفات أخرى لا نطيل بها .

اتصل صاحبنا بالمعز فكان يجري منه مجرى الروح هو وزميله ابن شرف حتى كان يطلعهما على دخائله الخاصة . حكى ابن شرف في أبكار الأفكار قال : استخلانا المعز يوما وقال أريد أن تصنعا شعرا تمدحان به الشَّعَرَ الرقيق الخفيف الذي يكون على سُوق بعض النساء . فاني استحسنه وقد عاب بعض الضرائر بعضا به ، وكلهن قارئات كاتبات ، فأحب أن أريهن هذا وأدعي أنه قديم لأحتج به على من عابه ، وأسرّ به من عيب عليه . فانفرد كل منا وصنع في الوقت فكان الذي قلت :

وبلقيسية زُينت بشَعر ... يسير مثل ما يهب الشحيح[3]
رقيق في خدلجة رداح ... خفيف مثل جسم فيه روح
حكى زغب الخدود وكل خدّ ... به زغب فمعشوق مليح
فإن يَكُ صَرْحُ بلقيس زجاجا ... فمن حدق العيون لها صروح

وكان الذي قال إبن رشيق :

يعيبون بلقيسية إن رأوا لها ... كما قد رأى من تلك من نصب الصرحا
وقد زادها التزغيب ملحا كمثل ما ... يزيد خدود الغيد تزغيبها ملحا

فانتقد المعزّ على ابن رشيق قوله – يعيبون – وقال قد أوجدت لخصمها حجة بأن بعض الناس عابه !

يدلنا هذا الاستخلاء على مكانة الشاعرين من نفس المعز . والا كيف يطلعهما على دخائله الخاصة التي يتحاشى الأمراء فضلا عن الملوك من ذكرها ، وينالون من يتطلع اليها ويعدون جُرما أن تجري كلمة من هذا الحديث على لسان .

---

(1) المعروف أن وفاة ابن رشيق كانت بصقلية ، والمتوفى بالاندلس هو ابن شرف «المسار» .
(2) جمع اشتاته من بطون الكتب محمد العروسي المطوي وبشير البكوش وطبع بتونس 1986 « المسار » .
(3) قول هذا اخذا من قول أبي الطيب « وعمر مثل ما يهب اللئام .

وقد مكن هذين الشاعرين من مصارحة المعز بهذا الحديث ليونته وطبعه الرقيق الذي امتاز به . وأدبه الصناعي والخلقي هما اللذان زجّا به في عائلة الأدب . فلم يعد يرى ملكا وسوقة ، وانما يرى أخا وأخا إن فرق بينهم النّسب جمعهم الأدب كما قال أبو تمام :

إليك يُخاض البحر فعمًا كأنهُ ... بأمواجه جيش إلى البر زاحف
ويبعث خلفِ النجح كل مُنيفة ... تريك يداها كيف تُطوى التنائفِ
من الموجفات اللأْءِ يقذفن بالحصى ... ويُرمى بهن المهمه المتقاذف
يطير اللغام الجعْد عنها كأنه ... من القطن أو ثلج الشتاء ندائف
وقدِ نازعت فضلِ الزمام ابن نكبة ... هو السيف لاما اخلصته المشارف
فكيف تراني لو أُعنتُ على الغنى ... بجدّ وإنّي للغنى لمشارف
وقد قرّب الله المسافة بيننا ... وأنجزني الوعدَ الزمانُ المسارفُ
ولولا شقائي لم أغب عنك ساعة ... ولا رام صرفي عن جنابك صارفُ
ولكنني أخطأت رشدي فلم أُصب ... وقد يخطىء الرشد الفتى وهو عارفُ

فهذا الاعتذار شاهد عدل على مكانة ابن رشيق من نفس المعزّ حتى أنه يلومه إذا غاب ويحوجه الى الاعتذار عن الانقطاع عن الديوان .

ولو كانت مكانته منه على حد قولهم إذا حضر لا يستشار ، وإذا غاب لا يسأل عنه كما هي مكانة بعض الشعراء قبلا ومكانتهم اليوم جميعا لم يحتج الى الاعتذار ، وإنما يحتاج اليه إن حضر فإن الكثير من الشعراء يعتذرون في قصائدهم عن الباعث لهم على المثول .

وهنالك مجالس كثيرة تؤيد لنا هذا الرأي منها ما ذكره ابن شرف ونقله في بدائع البدائه قال : استدعاني المعز بن باديس يومًا واستدعى أبا علي الحسن ابن رشيق الازدي ، وكنا شاعري حضرته وملازمي ديوانه . فقال أحب أن تصنعا بين يدي قطعتين في صفة الموز على قافية العين . فصنعنا حالاً من غير أن يقف أحدنا على ما صنعه الآخر فكان الذي صنعته :

يا حبذا الموز وإسعاده ... منْ قبل أن يمضغه الماضغُ

والذي صنعه ابن رشيق :

موزٌ سريعٌ أكلُهُ ... من قبل مضغ الماضغ
مأكلة لك كل ... ومشرب لسائغ
فالفمُ من ليذكه ... ملآن مثل فارغ
يخال وهو بالغ ... للحلق غير بالغ

فامرنا للوقت ان نصنع فيه على حرف الذال ، فعملنا ولم يُرِ أحدنا صاحبه ما عمل . فكان الذي عملته :

هل لك في موز إذا ... ذقناه قلنا حبّذا
فيه شراب وغذا ... يُريكَ كالماء القذى
لو مات من تلذّذا ... بهِ لقيل ذا بذا

وما عمله ابن رشيق :

لله موزٌ لذيذٌ ... يعيذه المستعيذُ
فواكه وشرابٌ ... به يداوى الوقيذُ
ترى القذف العين فيه ... كما يُريها النبيذُ

قال ابن شرف فأنت ترى هذا الاتفاق لما كانت القافية واحدة والقصد واحدًا . ولقد قال من حضر ذلك اليوم : ما ندري مما نتعجب أمن سرعة البديهة ، أم من حسن الاتفاق ؟

يذكر ابن شرف في هذه القصة أنهما كانا شاعري المعز وملازمي ديوانه ولهذا لما دالت دولة المعز فضّلا الغربة عن الاقامة في بلد كان محط عزهم ومرتع لهوهم . وأرى أن ذلك هو الذي جشم ابن رشيق ركوب البحر مع قوله :

خلقت طينا وماء البحر يتلفه ... والقلب فيه نُفُور من مراكبه
فالبحر خير رفيق بالرفيق له ... والبَرّ مثل اسمه بِرٌّ براكبِه

وقوله :

البحر صعب المرام مرّ ... لا جُعِلَتْ حاجتي إليه
أليس ماءً ونحن طينٌ ... فما عسى صبرنا عليه

ومما يستجاد في هذا المقام ما ذكره بعض الأدباء عن ابن حمديس . قال اجتمعت مع أبي : الفضل الكاتب جعفر بن المقترح بسبتة ، فذكر لي بيتي ابن رشيق ثم قال لي أتقدر على اختصار هذا المعنى ؟ قلت أقدر على ذلك وأنشدته :

لا أركب الماء خوفا ... علي منه المعاطبْ
طين أنا وهو ماء ... والطين في الماء ذائبْ

فاستحسن ذلك إذ كان على الحال وأقام عني أياما ثم اجتمعت به فانشدني لنفسه :

إن ابن ءادم طين ... والبحر ماء يذيبُهْ
لولا الذي فيه يتلى ... ما جاز عندي ركوبُهْ(1)

---

(1) يعنى قوله تعالى « وقال اركبوا فيها باسم الله مجراها ومرساها

فانشدته لي :

وأخضر لولا ءاية ماركبته ... ولله تصريف القضاء بما شاء
أقول حذار من ركوب عُبابه ... أيا ربّ إن الطين قد ركب الماءَ

ومما يذكر من مكانتهما وعلى الأخص ابن شرف عند المعز ما رواه في معالم الايمان ، أن المعز لما عزم على تولية ابن القاضي ابن هاشم القضاء ، دخل عليه ابن شرف وأنشده :

كان القضاء وراثةً فرددتَهُ ... شورى ففاز بحقه المردودِ
يا فضلها من سيرة عُمَرية ... هي للعباد رضى وللمعبودِ

فعدل بسبب ذلك عن رأيه وولّى أحمد بن أبي زيد

*
**

ولا نعرف بالتدقيق متى اتصل ابن رشيق بالمعز غير أنا نعرف أول شعر قاله في المعز وكان سبب اتصاله به . قال في الانموذج : ومن مدح القصيدة التي دخلت بها في جملته ونسبت الى خدمته .

لَدْنُ الرماح لما يسقى أسنتها
من مهجة القَيل أو من ثغرة[1] البطلِ
لو أثمرت من دم الأعداء سُمْرُ قنا
لأورقت عنده سُمْر القنا الذبلِ
إذا توجه في أُولى كتائبه
لم تفرق العين بين السهل والجبلِ
فالجيش ينفض حوليه أسنته
نفض العقاب جناحيه من البللِ
يأتي الأمور على رفقٍ وفي دعة
عجلان كالفلك الدوار في مهل

ومن هنا حسنت حاله وعظمت درجته كما اسلفنا . وأظن أن قوله يشكو حرفة الأدب قبل عهد المعزّ أو بعده وهو قوله :

أشقى لعقلك أن تكون أديبا ... أو أن يرى فيك الورى تهذيبا
ما دمت مستويا ففعلك كله ... عوج وإن أخطأت كنت مصيبا
كالنقش ليس يصح معنى ختمه ... حتى يكون بناؤه مقلوبا

(1) في المصادر : مهجة .

ولم تنقطع علاقة المعزّ بابن رشيق حتى الى ما بعد وفاته . فقد رثاه بقوله :

لكلّ حي وإن طال المدى هلك ... لا عز مملكة يبقى ولا ملكُ
ولّى المعز على أعقابه فرمي ... أو كاد ينهدّ من أركانه الفلك
مضى فقيدًا وأبقى في خزائنه ... هامَ الملوك وما أدراك ما ملكوا
ما كان إلا حساما سلّه قدرٌ ... على الذين بغوا في الأرض وانهمكوا
كأنه لم يخُض للموت بحرَ وغى ... خُضرُ البحار إذا قيست به بركُ
ولم يَجُدْ بقناطير مقنطرة ... قد أرعيت باسمة إبريزها السّككُ
راحُ المعزّ وروح الشمس قد قبضا ... فانظر بأي ضياء يصعد الفلكُ

مؤلفات ابن رشيق

الطاهر خميري

أتتني دعوة جمعية الشباب الرشيقي للمساهمة في الاحتفال باحياء ذكر ابن رشيق وأنا لا أعلم عنه سوى أنه أديب تونسي عاش في القرن الخامس للهجرة ، وأن له كتابا إسمه العمدة في صناعة الشعر قرأته منذ عشرين سنة يوم كنت طالبا بالخلدونية وقرأته مرة ثانية بمناسبة ظهور بساط العقيق للأستاذ حسن حسني عبد الوهاب . ثم إمتحنت نفسي وأجهدت ذاكرتي فكان ذلك منتهى علمي ! فأحسست بخجل يشبه الاستخزاء أولا لأني تونسي وثانيا لأني أدعي بعض المعرفة بالأدب العربي وأزعم أن لي بعض الالمام بتاريخه . ولكني مع ذلك ـ او لذلك ـ أجبت الدعوة وشرعت في البحث وإذا بدائرة المعارف الاسلامية تعتبر إبن رشيق « مؤرخا ولغويا وشاعرا » . وشيخ مشايخ المستشرقين « بْرُوكَلْمَان » يخصص له فصلا في كتابه تاريخ الأدب العربي ومثله في الملحق لذلك الكتاب . و« جُولدْ تْسِهَرْ » شيخ مشايخ المستشرقين المجر يحلل نظريته الأدبية في خمس صفحات من كتابه « رسائل في فقه اللغة العربية » . و« نِكِلْسُنْ » أحد كبار المستشرقين الانكليز ينوه بأهمية نظرياته في النقد الأدبي في كتابه تاريخ الأدب العربي . وإذا بترجمة إبن رشيق في الوفيات لابن خلكان ومعجم الأدباء لياقوت الرومي وبغية الوعاة للسيوطي وغيرها من المراجع المعروفة . وإذا بابن خلدون يشير اليه غير مرة في المقدمة والسيوطي يروي عنه في غير موضع من المزهر والمقري يذكره في نفح الطيب والدميري يستشهد به في حياة الحيوان والحاجي خليفة يذكر مؤلفاته في أكثر أجزاء كشف الظنون وإذا بمؤلفاته تبلغ العشرة ! ولذلك رأيت أن أجعل مساهمتي في هذا الاحتفال التعريف بمؤلفات إبن رشيق والكتب التي ذكرت فيها تلك المؤلفات :

1) العمدة في صناعة الشعر ونقده :

ـ ابن خلكان ج 1 ص 165 . القاهرة 1299 هـ

ـ ابن خلدون . المقدمة ص 337 و 339 من القسم الثالث باريس 1858 م

- المزهر للسيوطي ج 2 ص 292 . القاهرة 1325 هـ
- بغية الوعاة للسيوطي ص 220 . القاهرة 1326 هـ
- كشف الظنون للحاجي خليفة ج 4 ص 263 . لندن 1845 م

2) قراضة الذهب في نقد اشعار العرب :

- هي رسالة في السرقات الشعرية من ابن رشيق الى أبي الحسن علي بن أبي القاسم اللواتي - عن دائرة المعارف الاسلامية
- وفي ابن خلكان هو كتاب « لطيف الجرم كبير الفائدة » ج 1 ص 166
- وفي كشف الظنون هي رسالة تبتدىء بهذه الجملة : « أما بعد أَمْتَع الله تعالى اخوانك ببقائك » ج 4 ص 509
- وفي معجم المطبوعات العربية لسركيس أن هذا الكتاب طبع في مصر سنة 1344 هـ في 59 ص .[1]

3) **نبذة من ديوان ابن رشيق** :

- هو مخطوط بالاسكوريال ذكره « بروكلمان » في تاريخ الأدب العربي
- ودائرة المعارف الاسلامية في ترجمة ابن رشيق
- ووصفه « دارنبورغ » في قائمة المخطوطات العربية بالاسكوريال .[2]

4) **كتاب الأنموذج في شعراء القيروان** :

- معجم الأدباء لياقوت الرومي - القسم الأول من الجزء الثالث ص 70 ليون 1910 م
- ابن خلكان ج 1 ص 165
- بغية الوعاة للسيوطي ص 220
- كشف الظنون ج 4 ص 145

5) **كتاب الغرائب والشذوذ** :

- حياة الحيوان للدميري ج 2 ص 96 . القاهرة 1315 هـ
- كشف الظنون ج 5 ص 127[3]

6) **كتاب الشذوذ في اللغة** :

- ابن خلكان ج 1 ص 166
- بغية الوعاة للسيوطي ص 220
- كشف الظنون ج 4 ص 17[4]

---

(1) وطبع بتونس عام 1972 بتحقيق الشاذلي بويحي مع تقديم وفهارس بالعربية والفرنسية « المسار » .

(2) جمع الديوان ونشره عبد الرحمن ياغي - بيروت (لا.ت) « المسار »

(3) كتاب مفقود جمع اشتاته المطوي والبكوش وطبع بتونس 1986 « »

(4) يظن انه والذي قبله كتاب واحد جرى تغيير في عنوانه ببعض النسخ « المسار »

7) **كتاب فسح اللمح** :

ـ معجم الأدباء لياقوت الرومي القسم الأول . من الجزء الثالث ص 73

8) **كتاب ساجور الكلب** :

بغية الوعاة للسيوطي ص 220

كشف الظنون ج 3 ص 572

9) **كتاب ميزان العمل** :

ـ مقدمة ابن خلدون ص 5 من القسم الثالث ـ باريس 1858

ـ كشف الظنون ج 6 ص 285(5)

10) **شرح (او تلخيص) لموطأ مالك** :

ـ كشف الظنون ج 6 ص 265(6)

11) **تاريخ أبي علي حسن بن رشيق القيرواني**

كشف الظنون ج 2 ص 142

ومما يدل على نقص هذه القائمة ما رواه السيوطي عن ياقوت ، **قال** : « كان شاعرا نحويا لغويا أديبا حاذقا عروضيا **كثير التصنيف** حسن **التأليف** ... وبينه وبين ابن شرف الأديب مناقضات **وله في الرد عليه تصانيف منها** ساجور الكلب » عن بغية الوعاة للسيوطي ص 220

(5) في الدراسات اللاحقة لم يثبت انه الف فن التاريخ . وكتاب « ميزان العمل » لابن رشيق آخر . راجع ترجمته في معجم محفوظ « المسار »

(6) كذلك هذا الموطأ ليس لابن رشيق الناقد ، بل لابن رشيق آخر فقيه ، راجع تراجم محفوظ « المسار »

حمدا وصلاة وسلاما

هي ذكراك

محمد المأمون النيفر

هـيَ ذكـراك تـوجـب الاكـبـارَا
وتـهـزّ النـفـوسَ والأفـكـارَا
هـي ذكـرى تـثـير كـلَّ كـمـين
أفـعـمـت هـذه الدّنـا أخـبـارَا
بـك جـرّ النـبـوغ (يـا ابـن رشـيـق)
ذيـلَهُ وازدهـى عُـلاً واشـتـهـارَا
سـنـوات تـتـابـعَـتْ كـنْـتَ فـيـهـا
عـامـلا كَـاثَـرَ الحصى آثـارَا
أنـت فَـرْدُ الزمـان بـالرأي تـبـدي
كـلَّ خَـاف وتـكـشـفُ الأسـرارَا
هـذه الكـتـب آيـة الله حـقًّـا
قـد تـبـدَّتْ تـسـتـوقِـفُ الأبـصـارَا
هـي كـالزهـر فـاح عَـرْفُـهُ يـجـتـا
بُ الدُّنـا هـي بـطِـيـبـه مِـعْـطَارَا
يـبـهـج النـفـس والفـؤاد ويُـحـيـي
كـلَّ قـلب ويـبـعـد الأكـدارَا
أيـن عصر النـبـوغِ أيـنَ سـنـاهُ
وحِـجًـا كـان يـطلع الأنـوارا ؟
فـهـو عصر مضى وأبـقـى حـديـثـا
طائـرًا في ربـوعـنـا سـيّـارَا
حـدث النـفـس عـن مـثـاثِـر قـوم
مَـلأوا الكـونَ كـلَّه أسـفـارَا

وجـهـود جـبّـارة وعـقـول
هـي كـالروض تـنـبـت الأزهـارَا

***

إيـهِ يـا قـيـروان أيـن رجـالٌ
لك أبـقـوا ذكـرًا وسـادُوا فَـخَـارَا
مـنـبـت أنـت للـمـعـالي ومـأوى
الصِّـيـدِ مـن أسـدوا الأيـادي كِـثـارَا
أنـت أهـل الـنـبـوغ في الـشـرق طرًّا
إذْ بـنـوهُ كـانـوا بِـهِ أحـرارًا ؟
عـلـمـاء تـتـابـعـوا وفـحـولٌ
اظهـروا الحـقَّ ، أدهـشـوا الأنـظارَا

***

يـا عـمـادَ الشـبـاب أبـهـجـت روعي
بـاحـتـفـالٍ قـد هـزّني اسـتـبـشـارَا
يـا عـظـيـم آيـاتـه قـد تـوالت
وهـو مـنـهـا قـد طاول الأقْـمَـارَا
ولذا قـد بـعـثـتُ شـعـري وهـيـهـا
تَ أقضِي مـن واجـبٍ مـعـشـارَا
فـعـلـيـك الـسـلام مـا لاحَ نـجـمٌ
لـسـمـاه طولَ المَـدى وتـوارَى

أربعينيــة
محمد محفوظ

القاها : جلول عزونة
[نيابة عن اتحاد الكتاب التونسيين]
بتاريخ 1988/7/15

I ـ تقديم

في السنة الماضية ، اقترحت على منظمي الندوة الأدبية حول : **الأدب في الميزان** أن يبرمجوا لنا خلال الندوة القادمة زيارة لرجل صفاقس الكبير : محمد محفوظ[1] وذلك لا من جانب الواجب والتبجيل والتكريم ولكن بــالخصوص للتعرف على الرجل والتعبير له عما نكنه جميعا من احترام عميق لعمله ومثابرته واخلاصه للفكر والأدب والكلمة . وأبت الصدف إلا أن يتأجل اللقاء ، ولكن محمد محفوظ معنا اليوم ... بما ألفه وبما كتبه وبما تركه فينا من آثار ، نقرؤها ونستفيد منها ونتم ما بدأه ... لأن الرجال أمثال محمد محفوظ **ينسحبون ولا يموتون** . ولكن مع هذا تبقى في الفم مرارة وفي القلب حسرة وكان الأجدر بنا جميعا أن نبادر بالتكريم ـ وإن كـان عرف محمـد محفوظ بعض ذلك ـ وأن نسابق الموت وأن نسبق ملك الموت ... وأن نلتقي بمحمد محفــوظ حيا ، **لأن إكرام الحي أفضل من إكرام الميت** ـ والحمد لله أن ندوة هذه السنة ستكرم عددا من الأحياء هم توفيق بكار ومصطفى الفارسي وعـامر التـونسي ومحمد الشعبوني ـ أقول هذا وأنا أؤمن بالقضاء ، ولكني أؤمن كذلك بالقدر الذي

---

(1) محمد محفوظ : 1923 ـ 1988 . متحصل على الشهادة الإبتدائية ـ دورة جوان 1935 . وكذلك على العالمية وشهادة الحقوق التونسية ـ بدأ الكتابة سنة 1945 بمقال نشره **في الزهرة** . عن **تطور الحركة العلمية بمدينة صفاقس** وواصل الكتابة الى وفاته اي كان يكتب طيلة 43 سنة . وبهذا المقال عن صفاقس يظهر أنه متجذر منذ البداية في تربته ، جمع ما يقرب من 5000 كتاب ، وهذا ثمرة عمره وكان يخصص جزءا من مرتبه كل شهر لشراء الكتب . بُترت ساقاه منذ اكثر من ثلاث سنوات ولزم من اجل ذلك بيته . « الزم نفسه بدراسة مبادىء الإنكليزية واللاتينية واليونانية ليستعين بها في تحقيقاته » (الهادي محفوظ ـ **الصباح** 26/11/1985 ص 4

يقـدِه الإنسان لنفسـه ولبلده فيترك بصمـاته ويفـرض إرادته عـلى مجـرى الأحداث ، وإذا الإنسان بحق بإنسيته ، خليفـة الله في الأرض ، يقبل عـلى الحياة بمسؤولية وببصيرة تنفذ من خلال ضباب الأيام وتناقضات الأحداث .

أقول هذا لعلنا نجتاز مرة واحدة مأساة كتابنا الأحياء وتراجيدية عقـوق مجتمعاتنا نحوهم ، متمنين ، بل عاملين على أن تصبح مقولة علي الدوعاجي المعروفة ، نكتة تندر نتذكرها للتدليل على زمن ولى وانتهى .. وقد نقترح اليوم تخليدا لفقيدنا العزيز إطلاق اسمه على معهد او ساحة او شارع او مكتبة او كلية .(2) ولكن هذا قد لا يعوض كلمة تقدير تقال في الحياة ولفتة اعجاب تلمع بها نظرات ، أو حتى مجرد شعور بالاطمئنان والارتياح يعبر الوجوه أمام ما قدم محمد محفوظ من أعمال .

وهي أعمال تذكر ، لعل أهمها

II ـ مؤلفاته .

1) تراجم المؤلفين التونسيين ـ 5 اجزاء ، نشر دار الغرب الاسلامي ـ بيروت ـ لبنان

- **الجزء الأول** يحتوي على مقدمة بـ 6 صفحات بتاريخ 1978/11/21 ط 1 ـ 1982 ـ 291 ص
- **الجزء الثاني** : 463 ص . ط1 . 1982
- **الجزء الثالث** : 1985 . 467 ص .
- **الجزء الرابع** : 1985 ـ **440** صفحة .
- **الجزء الخامس** : 1986 . ط 1 ـ 284 ص .

2) **ابن أبي الضياف** : **حياته ، نظرات في تاريخه**
تونس ـ دار بوسلامة للمشر ـ 1983 ـ 95 ص .

3) « **أحاديث** » بإذاعة صفاقس ـ عن أمهات الكتب

4) تحقيق : **مشيخـة ابن الجوزي** (أصـل المخطوط من مكتبـة أبي الحسن الكراي ـ ط 1 ـ الدار التونسية للنشر ط 2 ـ دار الغرب الإسلامي

5) تحقيق كتـاب **الأربعين حـديثا** لصـدر الدين البكري النيسـابـوري والدمشقي (أصل المخطوط من مكتبة الشيخ أبي الحسن الكراي)

---

(2) « الاستاذ محمد محفوظ معروف في الشرق اكثر ممـا هو معـروف عندنـا » (رأي أحد اصدقائه المقربين) ـ من استجواب أجراه لمحمد محفوظ رضا القلال **بالصباح** .

6) تحقيق **البرنامج** لابن جابر الوادي آشي [وهو مولود ومتوفى بتونس أستاذ ابن خلدون وابن عرفه 673 ـ 749 / 1274 ـ 1338]

ط 1 ـ بيروت . دار الغرب الإسلامي . 1980 574 ص . [عن قطعة في مكتبة علي النوري وعن النسخة الوحيدة في مكتبة الأسكوريال]

7) تحقيق **غريب ألفاظ المدونة** للجبي ـ نشر دار الغرب الإسلامي (من مكتبة الشيخ علي النوري) .

8) تحقيق **ديوان محمد الشرفي** . نشر تونس

9) **جولة بين الكتب** ـ ج 1 ـ الدار التونسية للنشر ـ 1978

10) **تاريخ محمود بن سعيد مقديش** ، تحقيق محمد محفوظ وعلي الزواري ـ (نشر بيروت)

III ـ خصاله

لكن الأهم أن نذكر في مثل هذا اليوم **بخصال** فقيدنا محمد محفوظ وهي خصال عديدة :

(1) المثابرة : رغم ظروفه الصحية ورغم : « قلة ما لديه من مادة ووسائل » وشعوره « بأن هذا العمل شاق لا آخر له[3] وقد قضي قرابة **14** سنة (من 1964 الى 1986) في تأليف كتابه : **تراجم المؤلفين التونسيين** مع انقطاع دام قرابة ثماني سنوات . ورغم بعض فترات الشك والتردد ، فقد أعاد الكرة ورجع للعمل وهو يعرف أنه لا بد من « الإضافة والتعديل والتنقيح » ، كلما ظهرت بعض المؤلفات والبحوث الجديدة . واضطر أحيانا كثيرة الى اعادة كتابة التراجم « مرتين أو ثلاث » وتساءل في حيرة :

« هذه مشقة أخرى ، مطالعة وانتقاء وإضافة ، متى تنتهي هذه السلسلة المتلاحقة ؟ أما لها من آخر ؟

وكان المرحوم يعرف أن الأمر ـ أي كتابة التراجم ـ لا نهاية له خصوصا إذا اتبع المنهج الذي صار عليه وسعى دائما نحو التحسين والإضافة ...

وهذا ما حققه فعلا ـ فقد طبع مع الجزء **الخامس مستدركا للأجزاء الأربعة الأولى يحتوي على 35 صفحة ثم ملحقا** لمن غفل عن ذكرهم ويحتوى **الملحق** على **41** ترجمة على امتداد **71** صفحة

(3) ص 6 و 7 من مقدمة الجزء الأول من كتابه : **تراجم المؤلفين التونسيين** .
انظر عن هذا الكتاب ما كتبه قريبه الهادي محفوظ ، مقدما ومعرفا بكل جزء عند صدوره وقد نشر سلسلة هذه المقالات **بالصباح** :
ج 3 ـ 22 ماي 1985 ص 9 و 23 ماي 1985 ص 9
ج 4 ـ 26 نوفمبر 1985 ص 9 ...

وهذا دليل على نزاهة مؤلفنا وصبره وحبه لعمله وإتقانه .

2) التواضـع :

يبدو ذلك في المقدمة التي كتبها لتأليفه : **تراجم المؤلفين التونسيين** وفيها يعترف بأشياء اقرب ما تكون **للبوح** .

فهو كالطفل تماما حين يقول :

« ينتابني الفرح والسرور ، إذا عثرت على كتاب في تراجم (التونسيين) أو مقالة في مجلة أو صحيفة » وهذا « من عهد الشباب الباكر »

ثم هو يعترف بضعفه أمام صعوبة العمل ، وهو اعتراف نقدره حق قدره ونعتبره اعتراف الصادق مع نفسه :

« واعترى عزيمتي الضعف ، وساورها اليأس وضؤل نشاطي في التدوين » ؛ ثم هو يضيف ان تأليفه يحتوى « جوانب نقص شعرت بها من أول وهلة » ويقول :

« لا ادعي بأني اتيت بما لم يسبقني به أحد ، (وكل ما قمت بـه أني) يسرت السبيل أمام الباحثين » .

وهو لا يستنكف من القول : « أشعر بأن التراجم متفاوتة في الكم والكيف » لذلك هو يدعو الكتاب « الكرام والنقاد ببيان ما فيه من جوانب نقص » ، وهو يعرف انه سيكون أول المستفيدين

3) الإعتراف بالجميل :

إن محمد محفوظ يذكر اسميا كل من أعانه من أمثال الشاعر محمد الشعبوني ـ وعبد الله الزناد ومحمد الحبيب السلامي ولا يسيء إلى من أساء إليه ويطلب له الرحمة . ومؤلفنا يذكر مصادره ويقر بأنه نقل عن هذا الكاتب أو الكتاب .

4) التسامح :

إن محمد محفوظ يقف دائما ضد التعصب المذهبي الذي جعل الكثيرين مثلا لا يهتمون بتراث اباضية جربة ، يقول : « يبدو أن رواسب الماضي مازالت تعمل عملها بدون شعور أو قصد ، ونرجو أن يقع التدارك في المستقبل القريب بحول الله »

فهو يدعو لتلافي معوقات الماضي ويعطي درسا في التسامي وسمو النفس .
وقد ندد **بالرياء والتظاهر** بسعة الاطلاع على حساب المبادىء ، كان يسطو بعضهم على افكار الآخرين ونصوصهم ونسبتها لأنفسهم كذبا .

IV ـ مقترحات محمد محفوظ ومقترحاتنا :

وأملنا أن تعمل **وزارة الثقافة** والسلط السياسية الجهوية على تحقيق بعض مقترحاته :

1 ـ طبعة ثانية لكتابة تراجم **المؤلفين التونسيين** تضمّ اليها تنقيحاته التي نتخيل انه ما انفك يقوم بها الى أيامه الأخيرة . سيرا على منهجه الذي ذكره هو بنفسه .

2 ـ تخصيص ملتقى ثقافي باسم أحد اعلام جربة من الإباضية (مثلا ابن تعاريت ـ أو الجيطالي أو البرادي) وذلك لما لتراثهم من قيمة في الفكر الديني وبالخصوص الفلسفي وفي التاريخ الإسلامي . وقد أثروا المكتبة العربية الإسلامية .

3 ـ الإسراع بإخراج تحقيقه لتاريخ مقديش

وبالخصوص نشر مخطوطاته وهي كثيرة من دراسات وتحقيقات من ذلك ـ نشر الجزء الثاني من كتابه :

جولة بين الكتب الذي سلمه المرحوم للدار التونسية للنشر منذ سنة 1970 .

واقتراحنا العملي ، هو أن نوصي نحن ، ككتاب ومثقفين ، ووزارة الثقافة وأن نعمل نحن من جهتنا من أجل تحقيق هذا - :

ـ أن تبعث **لجنة** قارة مهمتها متابعة آثار اعلامنا ، المعاصرين منهم بالخصوص ، وأن تخرج مخطوطاتهم للناس ، وان تنشرها النشر الذي يليق بها

فكم من علم مات ومرت السنوات ونعرف اسماء مخطوطاتهم أو بعضها ولا نزال ننتظر بروزها .

ولعل مهمة هذه اللجنة ، قبل كل شيء ، هي تتبع آثار كتابنا قبل الممات وبعده وحفظها ونشرها ، والعمل على **إصدار مخطوطات الأحياء بالتوازي مع اصدار انتاج من غادرونا** .

V ـ خاتمة

يقول محمد محفوظ في حديث أجراه معه أحمد العش ونشر **بالصباح** :

« إن حب الوطن تضحية وعمل دؤوب ونضال » ويقول في مكان آخر من نفس الحديث :

« الموسيقى تنتعش بها نفسي ، وصوت جميل يلامس روحي فيغذيها مثلا الأستاذ محمد عبد الوهاب والموشحات الشرقية والأندلسية والمالوف التونسي والأغنية الهادفة الأصيلة

تلك بعض آراء ومشاعر محمـد محفوظ ، الرجـل ، الإنسان ، الذي آمن بنفسه قبل كل شيء واعتمد عليها رغم قلة الإمكانيات ـ أعطانا دروسا وبدون تبجح ـ وهو بحياته وعمله وإنتاجه قد ترجم قاعدة جوهرية في الحياة وجسمها ـ ولعلها سر الحياة ، **أن الحضارة لا تبنى الا بالعمل والتضحية** ، وأنّ **قدر الإنسان تجاوز المعوقات** ، ولا قدر غيره .

ـ وأن حلاوة الحياة في تجـاوز النفس لحدود النفس ، وفي العـطاء بدون حساب .

نِعم المثل ونِعْمَ العمل .

يقول محمد محفوظ عن مصيبته الجسدية ، أي بتر ساقيـه الى الفخذ : « موقفي كإنسان يتلخص هكذا : الإيمان بما وضـع في نفوسنا الخالق سبحانه وتعالى من قوة نسميها إرادة جبارة »

وسأله أحمد العش : ماذا استخلصت من معاناتك ؟

فأجاب : « عدم الغرور وعدم احتقار الناس » .

ونحن نعتقد ان محمد محفوظ انجاز ثقافي بأتم معنى الكلمة ، وكل انجاز ثقافي هو انتصار في وجه التحديات الداخلية والخارجية ، الذاتية والمفروضة علينا .

والثقافة كما هو معلوم ، قارب النجاة وهي حبل الخلاص ، ولعلنا بها نحقق نقلة نوعية للمثقف العربي وللمواطن العربي عموما عسى أن ينطلق في مناخات أكثر صفاء ونقاء .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

من الباب الصغير

مصطفى الفارسي

« لقد أضعت حياتي ... أذهبتها ولا شك سدى ... لكن اذا أردتم أن أفخر على الأقلّ بشيء واحد فأنا أقول لكم إن هذه الحياة الفاشلة التي كانت حياتي تركت لي لا محالة مفخرة اعتز بها . ذلك اني خفظت الاّ أصيح عندما تلمّ بي الأوجاع . ولقد ساعدني ذلك كثيرا في مواجهتي للصعاب هذه الأيام » .

من يعرف الشاعر الفرنسي الموهوب آراقون يذكر له فيما يذكر هذه الكلمة المأثورة التي قالها يوم توقفت عن الصدور مجلته الممتازة « الآداب الفرنسية » .

ومن قائل ان البشرية عاشت زمنا طويلا دون كتب وزمنا أطول دون أفلام فما ضرّ أن تعود الى سابق عهدها وهل من قبيل الكوارث ان تختفي جريدة ما أو مجلّة ما كانت تتولى التعريف بالانتاج الأدبي والفكري والفني في بلد ما . صحيح ان الأرض لمْ تتوقف عن الدوران عندما احتجبت مجلات وصودرت كتب في تونس في عهد ليس ببعيد .

فما كانت منزلة الكاتب والكتاب في مجتمعنا قبل السابع من نوفمبر والانقلاب المبارك الذي كنّا نحلم به ونتمناه طوال حقبة من الزمن ران فيها الخوف على القلوب وتحنّطت كل طاقات الخلق والابداع .

منذ عشر سنوات أقدمت على تأليف كتاب كنت أنوي به تحريك بعض العزائم والهمم . لا لأني أؤمن أن مجرّد تأليف كتاب من شأنه أن يقلب ظهر المجن ويبدّل أوضاعًا ويبدّد ظلمة ـ فلست مغرورا لأحمّل الكتابة مسؤولية البندقية فلكل ميدان وساحة وغى ـ بل لايمان راسخ في متمكّن بضرورة الشهادة الايجابية الفاعلة بالنسبة الى من قصر عمره على تحمّل أعباء التعبير والتبليغ مهما كلّفه الأمر فكان من عمّال الفكر والقلم ولمّا يزل ولم يك قط تمساحا ولا ببغاء .

كتاب « حركات » صدر سنة 1978 عن الدار التونسيـة للنشر وهي دار حكومية محترمة . ألّفه كاتب تونسي هو مصطفى الفارسي وكان وقتئذ موظفا ساميا بوزارة الثقافة وعضوا نشيطا في الحزب الحاكم مكلفا باعداد محاضر جلسات لجنة الثقافة والاعلام . لكن ذلك لم يمنع بعض المسؤولين في الدولة في الحزب من لومه وحتى من توبيخه على ما اقترف من إثم ومن السعي الى التنكيل به بشتى الوسائل والطرق ... ليُجعل عبرة للغير . من ذلك ـ ولن اذكر هنا الاّ وجها من وجوه المضايقة والنكّال ـ أن رُفعت تقارير ضدّه وضدّ كتابه الذي أبى بعضهم إلاّ ان يسميه بـ « سكّانات » والسكّانة في دارجتنا التـونسية هي البلبلة والفتنة وارادة الشغب . والعياذ بالله .

وقال احد الظرفاء المازحين لصاحبه يسائله عن « السكّانات التي أصبحت في البلد مثال النميمة والخيانة والعيب » وحذّره من مغبّة فعلته بأن قال : « الا فاعلم ايدك الله بروح منه ان لكلّ سكّانة ادبية سكينا تقطع حشاشتها فتخمد أنفاسها ... لأننا قوم نؤمن بأن السكون رحمة من السماء وقد انزل‌الله علينا من السكينة ما جعلنا في غشية من أمرنا » .

كان السكون حركة مألوفة عندنا ولن تبرحنا ما دمنا نقول ، ونردّد « ربّ سكوت من كلام أبلغ » .

سُحبت الثقـة التي كان صـاحب « حركـات » يتأهب بفضلهـا للالتحاق بمنصب سفير لدى الجامعة العربية التي كانت يومئذ مستقرة بالقاهرة فقال لندمائه وخلصائه متندرا « خسرنا سفارة للجاه والمال وربحنا كتابا لا يفي بالتهبّل للعيال » وحفظ منذ ذلك العهد الاّ يصيح عندما تبرّح به الأوجاع وقرأ لمواجهة صعاب ذلك الزمان اكثر من كتاب بينما احتجب كتاب « حركات » لأنه كان في نظر السادة والذادة مثالا « للسفاهة وقلة الدين » .

اردنا أن نذكّر بصعاب واجهناها بصبر وأناة منذ عشر سنوات وكان من بين انعكاساتها ولا شك أن طالبنا مؤخرا بالتقاعد المبكّر اذ لم نعد نتحمّل من المظالم ما تأباه عزّة النفس ويرفضه العقل وحسن التدبير .

وتذكّرت يـــوم غادرت الوزارة ولم أُودّ ع ولا أودّ ع بعد أكثر من ثلاثين سنة من الخدمة والمكابدة والنضال ... تذكرت وأنا أخرج من الباب الصغير لا ألوي على شيء ولا يلوي على أحد قولة « مسرحية » كان يردّدها على مسمعي عمّي الممثل القديم محمد الفارسي رحمه الله وبرّد ثراه : « اللّي يبيعك بالفول بيعو بالقشور » ... هو أيضا خرج من الدار الفانية من الباب الصغير ... لم يترك وراءه لا مالا ولا ولدا ... فلم يودّ ع ولم يودّ ع كوالدي في حرب الريف ضدّ عبد الكريم لم يقتل ولم يقتل .

وها قد أفرج عن العديد من كتبنا تلك التي كانت محجوزة رسميا أو التي أوصي بعدم ترويجها بين الناس كحركات . فما أسعدنا بانفتاح أبواب الفرج على مصراعيها وما أشدّ توقنا الى المزيد من الانفراج .

إننا لنودّ أن يطيب العيش لشعبنا اكثر فأكثر وتعمّ البحبوحة ويعمّ الاطمئنان اكثر فأكثر ليتغنى الكاتب التونسي بفرحة الحياة الحقّ ويصدح بالحبّ والبشر والتفاؤل اكثر فأكثر . إذ ما رأيناه في الحقب التي مرّت على رؤوسنا غيمة دكناء مرخية سدولها على الحابل والنابل الا قانطا متبرّما حنقا مغيظا .

رأينا الشاعر في حركات مدمدما مزمجرا ينذر بالويل : « أنا الغاضب الهادر ... أنا النغم المكبوت ... انا الوتر المغموط ... أنا الضجيج ... أنا الألم ... أنا الفضاء يحلم بفضاء الفضاء ... أنا القضاء ... سيستجيب القدر ... أنا صانع الجمل من دم الجبل ... من حروف النار ... من الأرق من العرق من الدوار ... حروفي صرخات طرقات أنّات ... نغمات ... رموز وإشارات وايماءات ... جملي اسماء ... كلماتي افعال تشهد على الزمان في قوّة وإيمان بالحقّ ... بالانسان .

حمراء حبّتي في لون الحلاّج ... في لون الايمان ... الحقّ ... انا الانسان أنا سيد نفسي ... عبد بني الانسان ... في خدمة بني جنسي ... في خدمة الانسان ... انسيتي انا مصنعُ الانسان ، منجم الانسان ، حفرة الانسان ... قمة الانسان .

اقسم بالدم ... بالجبل ... بالشمس ... بالقمر ... بالأرض الربشاء ... بالنور والنوّار اني ثائر ... وان الحق في قميصي يبكي الحرية ... » .

ورأيناه في « الطوفان » عندما نظر حوله « فاذا الأمر ناقص ابتر » كما يقول المسعدي في « حدّث أبو هريرة قال » رأيناه يصيح مع كهيد :

« نضب المعين يا ولدي وتفاقم الشيب وكرّ ... هذه سنة تقشعر لها الأرض فكيف بالأبدان ... أما رأيت أفقَ السماء ... اغبرَّ واغْبَرَّ الجبل .

لقد عمّ الفسادُ وتنكّرت العباد . سنة تقشعر لها الأبدان فعلا ... يدّعون ان اليوم عيد ... وهل للفقراء من عيد ... العيد لهؤلاء ... أما نحن ... مضى زمان الفضل وانقطع الأمل ... الطالح اليوم أجدى من الصالح ... الغنى اغنى والفقير أفقر ... عمّت الرذيلة وتقلّص العدل ... نحن في همّ لازم وحزن لا ينفد ... هل أتاك حديث الجبل ... نحمل الأطفال تسعا ويميتهم الجبل في كل مغيب ، لنا عيد في السنة ومأتم في كلّ ليلة ... من أين أبدأ ؟ دموع الثكالى .

يأس الرجال ... الفقر والبرد ... الجوع والمرض ... الشمس والظمأ ... تضاعفت الجباية ونضبت الجيوب وفرغت كلّ الأوطاب ... عزّ العيش يا بني ... لا تسمع من هاتف الا لسلب ونهب وابتزاز ... دائما هات ... هات ... هات ... » .

ورأيناه في « البيادق » يروي قصّة الخيبة في حوار بين زوجين مسنين :

هـو : « الخيبة من الرجال لا من الثورات ... الثورة صلاح ... الثورة فلاح ... وتقولين يا خيبة الثورات !!

هي : ثوراتهم كالثمار ... فهي في البداية وعد موعود ... لكن لا يفتأ أن تنخرها الديدان ... تراب الى التراب يعود ... عفن عفن هذه الثورة ... ايضا .

هـو : استحي يا امـرأة وقولي معي لتحيـا الثـورة ... قـاد الأولى ابنـك الأكبـر واستشهد فيها ويقود هذه ابنك الأصغر وانه لفائز ظافر ولا ريب . هذا عهد الخير فاستبشري ...

واننا ونحن نصدر أوّل عدد من فصلية « المسار » لا نتوجّس خيفة من رقابة ولا تهدّدنا اية مصادرة ... قبل لنا ذلك وسجّلناه وسنعمل على ازدهار الأدب في ظل هذه الوعود وفي كنفها وقد قضى زمن التقية وامكن الجهر وسبحان مبدّل الأحوال .

« شغلتنـا عن الجوهـر طوال احقـاب متتـاليـة اشيـاء ... واشيـاء ... وأشياء ... والجوهر هو المصير ... هو الانسان ... لقد تعفنّت الأمور ولا بدّ أن يأخذ كلّ ذي حق حقّه ... لا بدّ ... لا بدّ ... لا بدّ ... » .

(1) كتبنا ذلك سنة 1978 . (حركات ، ص 69)

ولله الأمر من قبل ومن بعد .

المنزه

3 أوت 1988

لن تكون الثقافة حية أصيلة الا اذا كانت ثقافة مناضلة ؟

الطيب الفقيه احمد

من المعلوم ان الشخصية التونسية قاومت الاستعمار اكثر من ثلاثة ارباع قرن مقاومة عنيفة ، لانها شخصية متجذرة في ثقافة عربية اسلامية . ورغم طول هذه المدة لم يتمكن المستعمر من القضاء عليها في اعماق المواطن التونسي . وان قضي عليها قانونياوسياسيا ـ والسبب في ذلك ان المبادىء السامية التي قامت عليها ، ومن اجلها ، الثورة التونسية تتلخص كلها في مفهوم الاصالة . والاصالة بالنسبة للتونسيين مرجعها هو الاسلام والثقافة العربية الاسلامية .

كما ان الثورة الثقافية التونسية بعد ذلك اعتمدت قبل كل شيء على روح الاسلام . ذلك ان دعوة الاصلاح والتجدد ترتكز على العمق في الامة ،وعلى ضميرها الديني الذي هو القوة الدافعة الى العمل بايمان واقناع .

واصل هذه الثورة ، بعث الماضي المجيد ، والاخذ باسباب التقدم . معنى ذلك لا بد لها ان ترتكز على روح الامة ، وان تستمد منها مثلها وقوتها واثرها ، والا فلن يكتب لها البقاء ، ولن تاتي اكلها . لان ثقافة بدون قاعدة دينية هي بمثابة بناء لا اساس له . فالدين هو الشرارة التي تبعث الحركة والنهضة والعمل من اجل الكرامة .

والثورة الثقافية هي وحدها كفيلة بخلق الانسان الكامل ، والمجتمع المتكامل. اما الانصراف عن الثقافة الاصيلة ومقوماتها فانه يؤدي لا محالة الى فقدان الثقة بالنفس وتفكك الشخصية .

فالامة المنكوبة في ثقافتها هي الامة المنكوبة في لسانها . الم يذهب بعضهم الى انه يمكن قياس ثقافة الانسان واتساعها بمقدار ما اختزنه ذلك الشخص من المفردات ؟ ولا تنسى في هذا المجال ان العمل التربوي في المدارس قائم الى حد بعيد على انماء رصيد المتعلم بالمفردات .

ومن الملاحظ أن النهضة الثقافية لدى كل الأمم والشعوب مقترنة دائما بالنهضة اللغوية .

وما النهضة آخر الأمر ؟ أليست هي محاولة اللحاق بركب الحضارة ؟ الا تشتمل هي ايضا على طفرات ونكسات وأزمات وتبدلات جذرية ، ومذاهب ثورية

تتشبث بالسلف الصالح ، ومذاهب تقع بين بين وتدعو الى ما دعا اليه الشاعر الذي قال :

نبني كما كانت أوائلنا تبني ، ونفعل فوق ما فعلوا

ومن هذا يتضح ان الثقافة باعتبارها معنى اجتماعيا هي التي تكسب الشخص فعالية ، وتدفع به الى الاتصال بالمجتمع ، والى تغيير اوضاعه السيئة والخروج به من التخلّف لخلق جو وشروط تمكّنه انشاء حضارة ، وتحقيق ذاته ، لمجتمع جديد بان يشارك في تقرير مصير العالم .

لقد قيل : ان الثقافة تضمن للانسان خلوده في اعز ما يخلق واسمى ما ينشيء : من منظر جميل ، وصوت رخيم ، من سامي الاحاسيس واقوم الافكار . ومن حيث هي النهج الصحيح للحياة والوقوف على مكنوناتها تستجلي الاسرار وتختبر الاحوال . ثم إنّ الثقافة نتاج مشترك وقف على بني الامة توافق بين امالهم والامهم . فهي اذن عامل وحدة واداة عمل . فبالخلق والابداع يستكمل الفرد انسانيته فيتفتح ويتحرك نحو التقدم ، وتفتح البصائر ، وتوسع الافاق ، ويبث نور العلم والمعرفة ... وهي ايضا وبالتالي النظر الصحيح ، والتحليل القويم ، والتعمق في الامور .

ومن بين القضايا الاساسية ، في حياتنا اليوم بتونس ، الثقافة . لما لها من اهمية في مرحلة التطور والنمو التي نحن فيها ، ثم خصوصا لارتباطها بالاتجاهات الروحية التي ينبغي ان نعتمدها لبناء مجتمع متاصل في ماضيه ، ولكن متحرك متوثب الى المستقبل ، يواجه المصير بعزم ومسؤولية .

واذا كانت عناية المسؤولين تتجه الى الثقافة فلانها تعتبر احدى الدعائم التي ترتكز عليها عملية النهوض الشاملة لكل المقومات الاقتصادية والفكرية والروحية معا وعلى السواء .

وبموجب هذا لن تكون الثقافة حية اصيلة ، الا اذا كانت مناضلة لا تعيش بمعزل عن شؤون المجتمع ، ولا يمكنها ، ان ننظر اليها من علياء او عن كثب ، بل هي مدعوة حتما الى اقتحام خضم المعركة التي يخوضها المجتمع باسره ، وهي بالنسبة الينا اليوم معركة النمو والتطور والخروج من رواسب التخلف .

لانه لا سبيل الى اي تقدم وازدهار حضاري الا بالثقافة بمدلولها العام العميق . لانها اساس وقوام كل تنمية مبتغاة في جميع مستوياتها وابعادها ، والوسيلة ذات الاثر النافذ الفاعل في تقويم الانسان وتكوينه وابعاده عن السلبيات .

وهي الى جانب هذا وذاك العنصر الجوهري الذي بواسطته يستطيع أن يعي نفسه ، ويعي ما حوله في المحيط الانساني لتطوير نفسه وبالتالي لتطوير مجتمعه اقتصاديا وفكريا وخلقيا وروحيا ليكون في مستوى الرسالة المثلى التي خلق من اجلها .

واذا كان هذا شان الثقافة فاننا لا نتصور شيئا ياخذ باسباب الرقي الاقتصادي والاجتماعي قبل ان يتمتع بثقافة متميزة ، واستقلال فكري ،

يعطيان للوطن هويته ، وشخصيته المتشبعة بالمقومات الفكرية التي تكون التقييم الاساسي وقاعدة انطلاق لكل تنمية اقتصادية واجتماعية .

وبهذا المعنى ايضا ناخذ الثقافة كرصيد مشترك وكثروة وطنية لكل مواطن الحق في ان ينال قسطه منها بما يضمن له الكرامة ، وللامة الامن الثقافي الذي يقيها مخاطر الاستيلاب والاغتراب الفكري ، والاقتلاع من جذور لا تتغذى الشجرة الوطنية الا منها ، ولا نحميها بدونها

الأقنعـــــة

الميداني بن صالح

غرّد الطيرُ مع الفجر ، وغنّى
لسقوط الأقنعةْ .
فتح الزهر كمامَه ،
راقصا يشدو سلامَه ،
عطّر الأفق البهيج ،
بنسيمات الأريج
يحضن الأرض لعوبا ،
فرحا مالَ طروبًا ...
لغروب المهزله ...
وسقوط الأقنعةْ .
هبّت الرّيح هبوبًا ...
ذات فجر
نوره أشرق بالأفق عذوبا .
حملت سحناتها الشوهاء ،
أشلاء تغطي الأرصفةْ .
بلغ الإفك خريفَهْ ..
سقطت أقنعةُ الزّيف
التي كانت مخيفةْ ...
فضحت أكذوبة الأيدي
« النظيفةْ » ،
ومسوخًا : تدّعي - زيفا -
شريفه ...
وشعارات نفاق ...
سوّدت كلَّ صحيفه .
فهتفنا فجرها بشرا
نغنّي المعجزةْ ...

** **

سقطت أقنعة الزيف
التي يحملها « الحجاب » ،
في قصر « الخليفةْ » .
سقطت في الفجر لمّا
بلغ الافك خريفه ...
فاختفى « الحاوي » ،
عن الركح الذي أرهقنَا
جيلا بملهاة سخيفه ...
وبمأساة مخيفه ...
بلغ الزيف مع الفجر خريفه
أرضت كلَّ سواري
« مسرح » الملهاة والمأساة
في قصر « الخليفه » ...

** **

« شهرزاد » القصر خافت
مطّلت أسطورة الأفيون ،
والأحلام في ليل السّهاد ...

« شهريار » الملك الشرقي ...
ظمآن لكأس من دم الغيد ،
حسانًا ، باسمات ،
راقصات في حداد ...
« شهريار » الملك الموتور
صعب الانقياد ...
روّضت أشواقَه بالسحر
والخشخاش ، فانقاد لها
طفلا مطيعا ، مغمض العينين .،
مشلول العناد ...
صوتها الشعريُّ خمر ...
في كؤوس العسجد الصافي ...
أساطير حبالى ، بمواعيد لقاء ،
عذبة الهمس ...
مع الليل تعاد ...

** **

« شهرزاد » القصر جسم ...
شهرزاد ...
أسرجت زينتها روضَ ربيع ...
وأراحت رأسَها فوق الوساد .
واختفت عاريةً ،
في برقع الأحلام لمّا ،
غازلت أجفانَها النشوةُ ،
همّت ... ثم مالت للرقاد .
أسدلت عن جسمها الملتهب
الشوقَ وشاحْ .
عند إبلاج الصّباحْ .
أذّن الديك وصاحْ ...
صمتت ، والصّمت في القصر
قناع وسلاحْ ...

** **

صمتَتْ ألف الليالي ...
قطرانٌ سال ، غطّى ،
غرفَ القصر سوادًا ...
ومقاصيرَ الموالي ...
« شهريار » الملكُ الشرقيّ
تدريه عنيدا ، لا يبالي ...
لم تقل أيّ كلام ...
لم يكن يوما مباح ...
يزرع الحيرة والخوف رياح ...
وسياطا ونواح ...
وسجونا وجراح ...
وحكت ألف الليالي ...
تـرتـجي ـ خـائـفـة ـ نـور الصّباح .
« شهرزاد » القصر تدري ...
تعرف السيّاف والنّطعَ ،
وأنواعَ السلاح ...

** **

« شهرزاد » القصر أضنتها
تباريحُ الليالي ...
نهشت أعصابَها الأشباح ،
ساقتها سريعا ...
في فخاخ ، نصبت ليلا ...
بتدبير « الموالي » .
هرمت ، صارت ضعيفَةْ ...
لبست ثوب حدادٍ من قطيفَةْ .
خرجت دون وداعٍ ...
من وصيف أوْ وصيفَةْ ...
هجرت ، قصر « الخليفةْ » .
كم بكَت في ليلة ،
كفنها الحزن ظلام ...
لم تقل أيَّ كلام ...
صمتت تشكو الجراح ...
« شهرزاد » القصرِ ،
ما قصّتْ ...

ولا باحَتْ بقولٍ ...
لم يكن يومًا مباح ...

** **

كان شركا ..
بالذي أقطعنا الأرضَ
بساطا وبطاح ...
كان كفرا ...
بالوحيد ، الأوحدِ ، المالكِ ،
أسرارَ النجاحْ ...
كان إلحادًا ...
بمن جمّعنا حبّاتِ رملٍ ،
وهباءات غبارْ ...
من فجاج الأرض سوّانا ،
كما شاء ، رجالا ونساء ،
كان نكرانا ...
لفضل الواهب المعطاء ،
من فجّر في صحرائنا العطشى
ينابيعَ من الماء الصراح ...
كان غدرًا
بالذي وحده يدري ...
سبلَ النصر ، رقيًّا وفلاح ...
بـالذي يـمـلك عـقـلا ، أزليَّ
الوعي ...
نسغًا ولَقاح ...
وحده المنتج والمخصب ...
والجامع والمانع ...
لولاه لما حلّ ربيعٌ ...
وتهادت سحب الخير عطاء ...
بين بستانٍ وواحْ ...
كان إفكاً ، وعتوًّا ،
وغلوًّا وسفاحْ .
« لم يكن بالأمس شيء
من سنا الفكر مباح » ...

غير أن تخفض للذل الجناح ...
في غدوّ ورواحْ ...
ومساءٍ وصباحْ ...

** **

« دنـيـا زاد » الشعـب ، مـا
غابت ،
وعاشت في السرائرْ ..
طهّرت كلّ الضمائر ...
ثم عادت ،
رقصت ، غنّت ، تهادتْ ...
عندما الفجر أطلّ
بجناحين يزفانِ صباحا ،
عطرُه وردٌ وفلّ ،
وحنينٍ واشتياق ...
كحلّ الأعينِ بشرًا وأمَلْ .
وفرفت ، رشّت
أديمَ الأرض طلَّ .
« دنيازاد » الشعب بدرٌ .
هلّ في آفاقنا ، فجرًا نقيًا ،
باسما لمّا اكتمل .
يتهادى ، في جلال ...
ينشر الفرحة حبًا وجمال ...
رتلت صوت ، إلاهِ العدل
من فوق التّلال ...
كان وعدًا ...
من إلاهٍ ، أبدًا ما خان عهدًا ...
وعلى صخر الجبال ،
نقشتْ ما لم يكن بالأمسِ
يُحْكَى أو يقال ...
ثم غنّتْ
لحنَها السحريّ صوتًا ...
كان بالأمسِ حراما ،
كان كفرًا ومحال ...

« دنـيـــازاد » الشـــعـــب لم
تصمت ،
أباحت فجرَها ، يومَ خريف ،
دقّ ، يستأذن رفقا وحنانا ...
هامسا بالحلم الأخضر سرًا ،
ينشر الفرحةَ حبًا ...
وسلامًا وأمانًا .
« دنـيـــازاد » الشـــعـــب لم
تصمت ، —
وحلّت ، فوقَ هاماتِ رُبَانَا ...
أيقظت كلَّ زهور الفل والورد
التي تكسو البطاحْ .
غردت ، قالت كلاما ...
لم يكن يوما مباحْ ...
« دنيازاد » الشعب غنّت
ردّدت لحنًا نقيًا ...
حملتنا بجناحْ ،
وحكت شوقا دفينًا ...
آه كم عشناه قهرًا
وسهادًا وجراحْ ...

ثم حلّت ، عقد الألسن فينَا ...
فهتفنا ... وصرخنا ...
بالذي لم يكُ بالأمس مباحْ .

*** ***

وهبتني « دنيازاد » الشعب
قرطاسًا ، دواةً ، وقلَمْ ...
يوم حلّت عقدة لاكت لساني ...
كبّلت بالحزن أشواقي ...
وحبّي وكياني ...
عشتها رعبا ، وخوفًا ، وألم ...
ثم ضمّـتنـي إليهـا وحـبَتْـنِي
صدرَها
خيمةَ دفءٍ وأمَلْ ...
ثم أهـدتني كتـابًـا ، ضـاع
مني ... —
علمتني سرّ أسرار بقاءِ النّار
في فوهةِ بركانِ الجَبَلْ .

23 افريل 1988

عبور الصحـراء

رياض المرزوقي

1 ـ مسافرٌ أتعبه القدر
رجلاه قد تخشّبت من السفر
وقلبه ذاب على مذابح الضجر
ووجنتاه بلّلهما المطر .
2 ـ يا عينُ ، يا شفّافة النظر
كدمعة الزهَر ،
أين تركتِ الومضةَ البيضاء ؟
بيضاء مثل اسقف البيوت
أين تركتِ ريشَها ، وعينَها الياقوت ؟
3 ـ ترقص تحت زخّات المطرْ ،
كطفلة صغيرة حافية الأقدام
تداعب الخطر
بإصبع نحيلة كرَفّة الأحلام ،
تحلم مثل البوذيين في (فيتنام)
بالانتحار ..
في لهيب النار .
4 ـ بكـلّ مـا يجتـاح مهجتي من الصـراع ،
سـأقصـد البيت الذي يغسله الشعاع ،
وأطرق الباب الكبير ،
بقوّة الذراعْ ـ
5 ـ وأستردّ ناظري الحسيرْ ،
فلا أرى غير السراب ..
يعقب السرابْ ،
وفوق شفتيَّ يحفر العذاب ..
كلمة الحريَّةْ .

تونس ـ جويلية 88

النّارجيلـة

سوف عبيد

صومعةٌ
مئذنتُها الجمرُ
جيدُها البلّورُ والنّحاس
قَدُّها الماءُ والأنفاسُ
مُنتصبةٌ
رقراقةٌ
والشّذى
المتعَبُ المُستريح عندها
كَمَنْ تجلس في حضرته
أَحْلَى النّساء .

بيضاءُ اِمرأةُ الحيّ العتيق
في لحافها الأبيض
تشقّ العتمةْ
بيضاء ساريةُ المرمر
عند قوس الزّقاق
بيضاء عمامةُ الشّيخ
برغم عكّازِ الثمانين
مازال يرفُل في الجُبّة البيضاء
لا ينحني إلاّ لبلغته
عند العتبةْ
فيشرع صبيان الكتّاب
في مَحْوِ الألواح
وغناء البسملةْ .

يا إمرأةَ بُرج النّار
بُرجي بالماء
ما بالُ تاجُك أصبح رمادًا ؟
ما بال صدري أضحى بالخرير ؟

هذا الغلام يَهُبّ بالجمر
والمروحةْ
سيّدي !
تمرُّ العصا البيضاء
بجاه الأولياء الصّالحين
وببركة الجمعةْ
تمرُّ عدسة السّائح
بائع السجائر
بائع عناوين الورقْ
يمرّ الياسمين
في رحلة العرقْ !

شمسُ البلّور بين القباب
بيضاءُ
بيضاءُ أنامل الماءْ
على الحصير
تُمرِّرُ أحلامَها
في الزّاوية
ظلالاً
على جبين الصّيف !

ـ تونس ـ جوان 1988

3 قصائد

حسين العوري

1 ـ حريق

اتّقدتْ غُلمةُ الرّيح ..
لا تفتحي لي بساتينك الآن ..
لا وقت لي .
فالرّفاقُ مَضَوْا
والقصيدة خانت
وللعشب تحت الأنامل طعم
الحريقْ

*** ***

مفردًا .. أتأبّط ناري
أجوس المدائن ..
لا جمعَ يسند ظهري
ولا حكمةٌ أتوسّدها حين أتعبُ
أو نخلةٌ / نجمةٌ في الطريقْ

*** ***

مُثْقَلاً .. والتي ضلّلَتْكَ ،
وضلّت طريق الينابيع
قادت خطاك إلى غابة
اللّيل
واللّيلُ نصفان :
نِصْفٌ يُؤرّقُهُ وَجَعُ الرّوحِ
جَمْرًا على شفتيك
ونِصْفٌ تُؤَثِّثُهُ جوقةٌ من مُوَاءِ
القِطَطْ

2 ـ سديم

عَلاَمَ إذا لامستْ شفتي بعض
هذا الرّكام
تحسّست رائحة الحطب الرّطب
وانعدمتْ قوّةُ الجاذبية ..
أسقطُ في مَهْمَهٍ لا قرارَ له
تَتَلَبّسُنِي هَالَةٌ كالفراغ الرّهيب
فأتهم النّفس بالعقم ..
تسحقُني عرباتُ الظّلام
أحقًا هُوَ العُقْمُ في النّفس أم عُقْمُ
هذا الرّكام ؟!

3 مملكة النّحل

إلامَ على شفةِ الوهم تنتحر
الكلماتُ ؟
تعالَوْا نُطَهِّرْ رُمُوشَ القصائد من
بَذَخِ العصر
نَعْمُرْ بساتين يَألَفُهَا النّملُ
والنّحلُ
ترتاحُ في ظِلِّهَا القُبّراتُ
تَعَالَوْا ..
فكلّ الرّوافدِ للنّهرِ
والنّهرُ للبحْرِ
والبحرُ للغيمة السّاقيةْ

قصيدتان

1 ـ أبابيل الطبور

علالة القنوني

لِعَلِيٍّ صَوْلَةٌ يعرفُها أحْبَارُ يثْربْ
لِعَلِيّ قبلَ حمْلِ السّيْف قلْبٌ وانتقامْ
طائرًا ينزلُ هذَا العربي
في جناحَيْهِ قنابلْ
طائرًا يسحقُ خيْبَرْ
يرسلُ الأهوال من أعلى السّحابْ

... وأبابيلُ الطيور
سَتَعُودْ

أين تمضي اليوم خيبر
من براكين الرّعودْ
قلْ لهذا الحبْر : حصّنْ ما استطعت
وتدثّرْ بالسّدودْ
لِعَلِيّ عندما تنغلقُ الدّنْيَا مجيىء :
منَ وميض النجم يأتي
من هوَاءٍ
من ترابْ
مثلما للسّامِريّ في ابتكارِ «العجْل» وقْتُ
وِلِنَهْب الأرضِ وقْتٌ
واغتيَالِ الرّبّ وقْتٌ ...
لعليّ كلّ يوم وقعةٌ في حصنِ خيبر
أيُّ « طُور » فوقكم يُرفع سيفا
أيُّ وَصفٍ
أي نسف
فهو من كفٍّ عَلي
« لاَ مِسَاسْ »

أحذروا «السّلوى» وأسراب الحمام
أحذروا المائدة التي تنزل منّا
« لا مساس »

أحذروا حتّى الَغمامْ
كل شيء حولكم فيه علي
لن تقولوا : حِطّةٌ » في أرضِ يعربْ
لن تقولوا : عندنا رَبْعٌ ومضربْ
لنْ تكونوا وعليٌّ عربي

2 ـ سحابه هارون

لِمَنْ تَمْطرِينْ
ولا فَيْءَ يأتيَ ولا تنفعينْ ؟!
تُمدُّ الأيادي لتطلبَ خبزا
فيلسعها السّوط خسفا وعسفا
وتمضين نهْبًا الى المُتْخمينْ !!
وينعم كلبُ يزيد بلحم
وتُرمَى العظامُ على الجائعينْ
فسيرى الى حيْثُ شئتِ فسوْف
لِهَارونَ تأتينَ طوْعًا وكُرْها
وتبنين فوق الرّقاب قصُورًا
وفي الخدر عند أفتراعِ الصّبايا
تنامينَ عقدًا على خالِصَهْ[2]
لمَنْ تمطرينْ
وعمارُ[3] يُجلَدُ في كلّ جَمْع
إلى أن يخرَّ على الأرض رَفْسًا
لأنّه يطلبُ حقّ الجيَاعِ من الكانزين ؟!
ويُنْفَيٍ أبو[4] الذرّ وسطَ الصحاري
يموت وحيدا تواسيه عنزُ
ولا عينَ تبكي على الرّاحلينْ !!
ولا سيف يُرفَع يَرْفَعُ رأسًا
ولا أمطرتْ السنُ الرّعْدِ عَدْلا
ولا أنتِ أُنثى
ولا تحبلينْ ...
سحابة هارون مهما هَطَلْتِ
فأنتِ سرابٌ شتاء وصيفا
تزيدين للفقر فقرا وذلاّ
وللأثرياء ثراء وبطشا
هميْتِ خراجًا فأنبتّ شرّا
لتَهْمِي صُخورًا فقدْ تنْفَعِينْ

---

1) * سحابة هارون هي تلك السحابة التي رآها هارون الرشيد من بعيد فقال قولته المشهورة : امطري حيث شئتِ فإن خراجك لي

2) * خالصة هي جارية من جواري هارون ولها قصة مشهورة مع أبي نواس عندما كتب بيته المشهور لقد ضاع شعري

لقد ضاع شعري على بابكم ** كما ضاع عقد على خالصة

الذي غيّره خوفا من الخليفة بقوله : لقد ضاء شعري على بابكم * كما ضاء عقد على خالصه

3) * عمار بن ياسر وقد عانى كثيرا في خلافة عثمان بن عفان لمطالبته الخليفة بالمساواة

4) * ابو ذر الغفاري وقد نفى في الصحراء ومات وحيدا كما أخبره بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم .

عقدةُ الكلب

المولدي فروج

كلّما ينبحُ كلبٌ ويتبعُهُ الآخرون
اشترى خِرْقَةً من حياءٍ
لأحشرَ وجهي
وتَجْتَاحُنِي عُقَدِي القروية
وارسُمُنِـي شكـلَ حَبْـلِ غَسِيـلٍ
لكل الطيور الغبيّة
فهل ساءك بالإلاَهَ الغَبَاوة ؟
حتّى الطيور الغبيّة
تمسخُهَا قططًا وكلابا

لِمَ الشعبُ ، هذا القطيع الذي
كم تورَّطْتُ فيه يُورِّطني ؟
ولماذا ؟
إذا قام في الأرض كلبٌ
أصابه داءُ النُّبَاح
لماذا ، إذا عَضّه الجوعُ في القلب
كمْ يستلذُّ الجراح ؟
وحبلُ الغسيل لماذا
تزقّ عليه النسورُ
ولا تشتهيه الرياح

أنا لم أنلْ غير حظّي
وهَاتُهمتِي في يدي
وافْضَحُنِي ، مفلسًا بعتُ أرضي
ولم امتلك حفنة من تراب
عقدة الكلب إنضَحَكتْ في فمي
وفي الرّأسِ شرَّحْتُ تِلك الكلاب
المريضة ؟!!

أنا من قطيع المحبة والاعتذار
إذا ما تعذّب جيلٌ وجيل وجيل
فمن قال عنّا ورثنا المذلّة
وأعناقنا ، تلك حبل الغسيل
ننكسُها عُقدةً واختيارا
لنا عقدةُ الكلب
والكلب علمنا الانحدارا
وعلمنا وجبةً في الوفاء ـ الغباء
وكيف نلوك المرارة تلو المرارة

البرادعة ـ أوت 1988

الجنرال حسين يكتب

أول قصة أطفال في تونس الحديثة

محمد الهادي المطوي
رقادة (القيروان) في 1987/3/4

من المعروف أن أدب الطفولة أصبح اليوم يحتل منزلة كبرى في حياتنا ، نظرا الى ما يتطلبه الطفل من عناية منا ورعاية ، أمام التطور الذي شمل الأسرة المعاصرة ؛ فالأم فضلا عن الأب يتطلب منها العمل والشواغل الاجتماعية المختلفة التي التزمت بها في نطاق ما يسمى بحرية المرأة أن تقضي أكثر وقتها بعيدا عن طفلها . ووسائل الاعلام الجديدة كالاذاعة والتلفزة قد قضت على ليالي السمر المحببة الى الأطفال ، والذين أدركوا بعضا منها يتحسرون اليوم على زوالها . وربما ينقمون على هذه الآلة التلفزية التي حجرت الجو الأسري ، وقضت على ذلك الدفء العائلي ، لما تفرضه على المتفرج من صمت يكبل الأصوات ، ويقضي على حركية المخيلة والعقل ، ويعطل ملكة الطفل التعبيرية ، وحذقه للقراءة والكتابة ، أدوات كل كاتب مجيد . هذا دون أن نغمط فضل التلفزة في التثقيف والتربية والتعليم ، بما تبثه من برامج طفولية ، شرط أن نحسن استخدامها وتوظيفها لذلك ، لكنها تبقى مع ذلك دون حرارة الأسمار الليلية وتشويقها . وشتان بين الآلة الباثة الجامدة والانسان الحاكي الحي .

وأمام هذا التطور الذي استوجبته الحياة العصرية ، والذي نتج عنه أن الآباء فقدوا اليوم القدرة على القص ، وصرفتهم الشواغل عن حفظ ما كان يتناقله الآباء والأجداد ، أقبل المؤلفون على أدب الطفولة يعوضون به تلك الأسمار ، فنشروا الكتب وأصدروا المجلات وتباروا في ذلك أيما تبار كان لفائدة الطفل تارة ، وعلى حسابه تارة أخرى ، حتى ظهر منا اليوم من نادى بواجب العناية بأدب الأطفال الذي اختلط فيه الغث بالسمين والضار بالنافع ، وضرورة حمايته من تطفل أدعياء الأدب الطفولي . وهو ما كان موضوع مقولة الأستاذ محمد العروسي المطوي ، التي كتبها بتاريخ 26 فيفري 1987 في ركن « كل خميس » الذي يحرره أسبوعيا للعمل الأدبي

ولكن الناس الذين يرون اليوم هذا السيل من كتب الأطفال ، لا يعرفون في تونس على الأقل من هو أول من فكر في الكتابة لهم ، ولم يعملوا على البحث عن ذلك الكاتب الأول ، الذي تنازل إلى حين من دنيا الكبار إلى دنيا الصغار ، دون أن يرى في ذلك صغارا له ، ولا حطا من قيمته ، ولا ضياعا لوقته . وغاية ما يعرفونه أن هذا الأدب هو تقليد للغرب ، أو هو جري على خطى أخوتنا في المشرق وخاصة كامل كيلاني رائد أدب الأطفال في البلاد العربية ، الذي ترك لنا مكتبة كاملة من القصص لمختلف سني الأطفال ودرجاتهم العلمية . وهي مكتبة ما زال الاقبال عليها شديدا رغم تطور كتابة هذا الأدب وتقدم صناعته .

ولكن التاريخ ، ولحسن الحظ أنه قوي الذاكرة أحيانا ، قد كشف لنا أخيرا أن أول قصة كتبت للأطفال قد مضى على عمرها اليوم ما يفوق قرنا وعقدا من السنين . وأن كاتبها هو شخصية إصلاحية خطيرة الشأن في الحياة السياسية التونسية خلال القرن الماضي ، قد عمل جنبا الى جنب مع المصلح الكبير خير الدين التونسي ومساعديه من أمثال رستم وزير الحرب في حكومته ، ومحمد العربي زروق ، والشيوخ سالم بوحاجب ومحمد بيرم الخامس ، ومحمد السنوسي ، وغيرهم . وأن الصعوبات الداخلية التي تخبطت فيها تونس وقتئذ والأطماع الخارجية التي كانت تتآمر على استقلالها وشخصيتها الاسلامية العربية ، والمشاكل الخاصة التي كانت ترهق هذا المصلح شديد الارهاق سواء كانت أمراضا او اسفارا لم تلهه عن التفكير في الطفل التونسي والاهتمام بشأنه والكتابة له .

هذه الشخصية الخطيرة هو حسين التونسي ، المعروف لدى التونسيين بالجنرال حسين . (1820 ؟ ـ 27 جويلية 1887) وهو مملوك من أصل شركسي ، قدم الى تونس حوالي سنة 1835 ليتربى في قصور البايات الحسينيين . ثم أدخل الى المدرسة الحربية بباردو ، التي أنشأها المشير أحمد باشا (1806 ـ 1855) سنة 1840 ، حيث تتلمذ للشاعر محمود قبادو (1814 ـ 1871) شيخ الاصلاحيين التونسيين . ولما خرج من هذه المدرسة ، تقلّب في مناصب سياسية عديدة نذكر منها رئاسة المجلس البلدي بتونس العاصمة سنة 1858 . ومدير الشؤون الخارجية سنة 1860 ، ومدير المطبعة الرسمية والرائد التونسي في نفس السنة أيضا . ورئاسة المحكمة الجنائية سنة 1861 ، ووزارة الاستشارة سنة 1873 ، ووزارة المعارف العمومية والنافعة في نوفمبر 1874 وذلك في عهد خير الدين التونسي . كما نذكر أنه رقي إلى رتبة أمير الأمراء سنة 1861 . وسافر الى أوروبا كثيرا مع خيرالدين ، وأقام سنوات بايطاليا للدفاع عن تونس في قضية نسيم شمامة ... الخ . وهو إلى كل هذه المسؤوليات وغيرها يعدّ من أبرز رجال الثقافة في تونس حتى عد زعيمهم وممثلهم ، كما أنه كان يملك مكتبة ضخمة وله ، فضلا عن محرراته في الرائد التونسي ، مشاركات علمية وأدبية وتآليف نذكر منها ما يلي :

ـ حسم الألداد في نازلة محمود بن عياد . وهو في ثمانين صفحة . طبع بتونس سنة 1875 .

ـ القسطاس المستقيم في اختلال الحكم بنفي جنسية القائد نسيم في 24 صفحة طبع بتونس أيضا في ماي 1873[1].

وإلى جانب هذا الانتاج الذي يحق لنا أن نضعه في باب النثر السياسي والاجتماعي ، نذكر له ما اعتبرناه أول قصة أطفال في تونس ، وهي القصة التي كتبها فيما ذكره محمد السنوسي في كتابه الرحلة الحجازية سنة 1288 (1871 ـ 1872) بمناسبة حديثه عن المسارح في الآستانة ، وما تقدم فيها من نوادر ومشاهد مضحكة للتربية والتسلية ، فذكرته في النادرة التي « وضعها ـ كما قال ـ المكلف بالمعارف العمومية بالدولة التونسية أمير الأمراء حسين من إنشائه ، وأتحف بها نخبة أبناء الملوك ، الهمام المرفع شأنه سيدي الناصر باي ، عند اعتنائه بانتقاء لطائف الأدبيات وحفظه للمقامات »[2] ولولا هذه المناسبة لكنا خسرنا هذه الوثيقة الهامة في الدلالة على أولية أدب الأطفال في تونس من جهة ، وعلى شخصية مؤلفها الاصلاحية من جهة أخرى .

ونسبة هذه القصة إلى حسين التونسي لا ريب فيها ، فقد كان السنوسي أستاذا لمحمد الناصر باي (1855 ـ 1922) ، وهو ما يتضح لنا من كتاباته عنه في رحلته ومراسلاته له ، ولعله استقاها منه ، أو على تقدير آخر من حسين نفسه إذ كان كثير الاختلاط به ، تجمع بينهما المبادىء الاصلاحية التي رأيا فيها سبيلا لنهضة تونس وتقدمها .

وقارىء هذه القصة لا مهرب له من اعتبارها من قصص الأطفال ، وبالتحديد أطفال المرحلة الثانية ، لأن من كتبت له كان في السادسة عشر عاما ، وذلك لما حوته من خصائص تجعلها جديرة بهذا النعت وبالقصص الهادف الذي ننادي به اليوم كما ورد أول هذه الكلمة .

وتبدو خاصيتها الأولى في كونها كتبت على ألسنة الحيوانات ، ذلك الأسلوب المحبب سواء الى الأطفال لما يثيره فيهم من ألوان المتع بصوره الغريبة وخياله المدهش ، أو الى الكبار لما يبعثه فيهم من الاعتبار والاتعاظ والتأمل في شؤون الحياة والاحياء ، أو إلى المؤلف نفسه لما يتيحه له من حرية الحركة في التعبير عن مقاصده ، خاصة في ظروف هيمنة الاستبداد والرجعية ، وذلك بما يعتمده فيه من وسائل الرمز والايحاء والاثارة . وقد ألّف بهذا الأسلوب كما نعلم كتاب عدّ من أشهر كتب الانسانية قاطبة وأخلدها ، نعني كتاب كليلة ودمنة الذي جرى على نسقه في الآداب العالمية كثيرون ، علما بأن هذا الأسلوب لم يوظف للأطفال إلا حديثا لأن كتبه لم تؤلف أولا للأطفال فيما نرجح .

وبالرغم من أن هذه القصة تبدو لنا اليوم موجزة مكثفة تنقصها التقنيات الحديثة ، إذ كان بامكان صاحبها أن ينوع أحداثها الثانوية تمهيدا للحظة تنوير الحدث الرئيسي ، وأن يضفي عليها ألوانا أخرى من التشويق والخيال

وبالرغم من أنها كتبت بأسلوب مسجع ، فان سجعها جاء خفيفا رشيقا ، قصير الجمل واضح المقصد ، غير ملتزم دائما ، فضلا عن كونها كتبت لعصر يتماشى ذوقه الفني وهذا الأسلوب ، فان المهم فيها هـو أنها من الأدب الاصـلاحي الخالص . هذا الأدب الذي كان محور الحياة الفكرية في تونس والعالم العربي خلال القرن التاسع عشر . وما يؤكد لنا ذلك فضلا عن موضوعها هو أن محمد السنوسي ربط بينها وبين حالة البلاد عندئذ فقـال : « وأشار المنشىء بهـاته النادرة إلى بعض أحوال أهل الدولة التونسية في ذلك التاريخ سنة ثمان وثمانين ومائتين وألف »[3] .

ومن المعروف أن الأوضاع التونسية في حدود هذه السنة ، أي سنة 1288 (1871 ـ 1872) وبالتحديد منذ سنة 1870 ، كانت تمر بفترة خـطيرة وأزمة حادة ، إذ كان الصراع على أشده بين الوزير الأكبر مصطفى خزنة دار (ت 1878) رمز الفساد الاداري وسوء التصرف المالي ، وصهره الوزيـر المباشر المصلح خير الدين التونسي الذي ما عتم بعد أن تم خلع الوزير الأكبر سنة 1873 ، وذلك لعرقلته أعمال اللجنة المالية التي كان يتولاها خيرالدين بصرفها عن مراقبة الاقتصاد وميزانية الدولة ، ولاتهامه باحتجاز ألفي سهم من قرض سنة 1863[4] ، أن تولى الوزارة الكبرى مكانه .

وواضح أن حسين التونسي رمز بالرأس والذنب في أقصوصتـه إلى هذين الوزيرين فخزندار هو الذنب لكونه كما تقول خاتمة القصة من الجهلة السفلة ، وخيرالدين هو الرأس لكونه ، مع التشديد هنا على التوريـة ، من « الأخبار الكملة » . وما يؤكد هذا المغزى ذلك البيت الشعري الذي ختمت به القصة ، وهو للشاعر الأفوه الاودي[5] . وشتان بين أمة يقودها رأسها وفيه العقل والرأي والتدبير ، وأمة يقودها ذنبها وفيه الجهل والعمى والغرائز الحيوانية .

ويبدو أن فكرة إصلاح الأمة التي شغلت حياة المؤلف في كل أطوارها ، قد انبنت من خلال هذه القصة على إصلاح الانسان أولا ، وعلى مرحلة معينة من عمره وهي مرحلة الطفولة والصبا ثانيا ، فاذا تم هذا الاصلاح المبكر صلح المجتمع كله من أبناء الملوك إلى أبناء الشعب ، وإن كانت القصـة من خلال توجهها إلى ابن ملوك قد ناطت إصلاح الأمة باصلاح أبناء الطبقة الحـاكمة ووجوب إعدادهم لهذا المنصب حتى إذا وصلوا اليه وجدوا في تربيتهم وتكوينهم الفكري والسياسي ما يعينهم على تلك المسؤولية الصعبة . ومن هذا المـنظور يمكن اعتبار هذه القصة من أدب الملوك والرؤساء ، كما هو شأن كليلة ودمنة ، الذي ألّف بطلب من الملك دبشليم ليكون دستورا لمن يليه من الملوك والحكام ، فيتوخوا العدل والنصف في سياسة الأمة ، ويحذروا البطش والجور كما كان شأنه هو أول ولايته الحكم .

ويؤكد التاريخ بعد نظر حسين التونسي وصحة نظريته الاصلاحية ، ذلك أن قصته هذه قد أتت أكلها ، فان محمد الناصر باي الذي تـولّى عرش تـونس

من 11 ماي 1906 الى 10 جويلية 1922 كان يتعاطف مع الحركة الوطنية، ويرفض ما ترفضه من إصلاحات. ولما أرادت السلط الفرنسية أن تفرق بينه وبين رموز هذه الحركة، هدّد بالتنازل عن العرش في 5 أفريل 1922 لولا تراجع السلط الاستعمارية، وترضيته بتكذيب الشائعات التي دبرت ضده من أنه ساخط على الوطنيين ناقم عليهم ويتهمهم بالشيوعية.

كما أن ابنه محمد المنصف باي (1881 - 1948) كان مثالا للوطني الغيور في فترة حكمه من 19 جوان 1942 الى 13 ماي 1943، حتى أن السلط الاستعمارية، لوطنيته، اتهمته بالتعاون مع قوات المحور أثناء الحرب العالمية الثانية واتجهت بعد دحر هذه القوات بالتعاون مع الجيوش الانقليزية والأمريكية الى الانتقام منه وخلعه، لكنه رفض توقيع التنازل عن العرش فنفي أولا إلى واحة الاغواط بالجنوب الجزائري، ثم نقل الى مدينة بو في جنوب فرنسا حيث توفي هناك.[6] ولهذه المواقف تبوأ في تاريخ الحركة الوطنية التونسية منزلة الملك الوطني الشهيد.

ونحن نفضل أن نترك القارىء بعد هذه التوضيحات يستكشف بنفسه الأبعاد الاصلاحية، والأهداف التربوية من هذه القصة، مع الملاحظة أن العنوان قد وضعناه نحن وليس موجودا بالأصل. وهذا هو نصها كما أورده محمد السنوسي في الرحلة الحجازية[7]:

[الرأس والذنب]

« يحكى أن رأس الحية وذنبها تنازعا لدى دولة الدهر، فقال الذنب، إن الرأس لا يزال يتقدم علي وأنا أقطع الفراسخ في خدمته. واستحصال شهوته، وكأنه يرى أني خلقت عبدا ملزما بالخضوع لأمره. وباتباع سيره. مع أني خلقت أخاه. وأسد مسده في كل ما يتوخاه. حيث إني من دم أبيه وأمه. وأحمل سما ناقعا مثل سمه. فاقض بيننا بحكم الإنصاف. المبني على ما تعلمه فينا من الأوصاف. بأن تجعل لي نوبة أتقدم فيها على أخي المذكور. وأسعى أمامه بسعي مشكور. فاستجابت حكومة الدهر دعوى الذنب. وعكست بينهما الترتيب في الرتب. فكان ذلك موبقا لكل منهما. ومعطلا لمواد الرشد بينهما. حيث صار الذنب يخبط في سيره خبط عشواء. لا يعبر سيئا إلا إلى ما هو أسوأ تلطمه تارة حجرة. وتدميه شوكة وتخدشه شجرة حتى هوى بالرأس في المهالك. وكان سوء العاقبة غاية ما هنالك. فما أشقى الممالك التي في مثل هذا الغلط حاصلة. ولهاته الغايات الوخيمة واصلة. التي لا سبب لها إلا تأخير الاخيار الكملة وتقديم الجهلة السفلة

لَا يَصْلُحُ النَّاسُ فَوْضَى لَا سَرَاةَ لَهُمْ
وَلَا سَرَاةَ إِذَا جُهَّالُهُمْ سَادُوا »

ويشاء محمد السنوسي لاعجابه بالقصة وطرافة موضوعها وهدفها فيما يبدو أن ينظمها شعرا . وبذلك سبق هو أيضا شعراء العصر الحديث مثل أحمد شوقي الذي عرف بهذا النوع من الشعر . وهو نوع كان قد عرفه العرب قديما مع ابن الهبارية (1105/509) في كتابيه نتائج الفطنة في نظم كليلة ودمنة (ط ، بعبدا في لبنان سنة 1900) والصادح والباغم الذي نظمه في ألفي بيت من الشعر على مثال كليلة ودمنة أيضا (ط . مصر 1936)[8] ولم يظلوا ينتظرون العصر الحديث حتى يعرفوه عن طريق مترجمات الشاعر الفرنسي لافونتين وغيره من الأدباء الأجانب ، وهذه هي قصيدة محمد السنوسي التي وضعنا لها نفس العنوان السابق أيضا[9]:

الرأس والذنب

قَدْ غَالَطَ الدَّهْرَ تَمْوِيهٌ ، فَوَا عَجَبَا
لِمَا نَرَى وَامْتِثَالُ الْأَمْرِ قَدْ وَجَبَا
تَشَبَّهَتْ دُوَلُ الْإِسْلَامِ قَاطِبَةً
بِحَيَّةٍ ، قَدْ سَعَتْ تَبْغِي بِهِ أَرَبَا
وَافَتْهُ سَاعِيَةً ، وَالرَّأْسُ يَقْدُمُهَا
بِمَا لَهُ مِنْ عُيُونٍ تَتَّقِي الْعَطَبَا
فَاسْتَظْهَرَ الذَّنَبُ الدَّعْوَى بِأَنَّهُ لَمْ
يَزَلْ يُتَابِعُ سَيْرَ الرَّأْسِ مُحْتَسِبَا
وَطَالَبَ الدَّهْرَ يَوْمًا أَنْ يُقَدِّمَهُ
إِذْ كَانَ كَالرَّأْسِ يَحْوِي السُّمَّ وَالنَّسَبَا
فَأَبْرَمَ الدَّهْرُ حُكْمًا فِي تَقَدُّمِهِ
وَسَارَ بِالرَّأْسِ لَا يَدْرِي لِمَا ذَهَبَا
حَتَّى هَوَى الْكُلُّ فِي الْمَهْوَاةِ عَنْ غَلَطٍ
فِي حُجَّةِ الذَّنَبِ الْجَانِي بِمَا طَلَبَا
وَهَكَذَا غَلَطُ الْأَيَّامِ أَجْمَعِهَا
مَهْمَا تُسَوِّ بِرَأْسِ الدَّوْلَةِ الذَّنَبَا

وواضح من البيت الأخير أن السنوسي يذكرنا بقصيدة للحطيئة مدح فيها بني أنف الناقة لاكرامهم إياه ، وعرّض بالزبرقان بن بدر عامل عمر بن الخطاب على اليمامة لبخله عليه حتى قال فيه :

قوم هم الأنف والأذناب غيرهم   ومن يسوي بأنف الناقة الذّنبا[10]

فهل استوحى حسين التونسي قصته من هذا البيت أيضا ، أو من بعض الأمثال الشعبية التي تعني تقدم الأذناب وتأخر الرؤوس والتي ما تزال تروج إلى اليوم على الألسنة ، أو من بعض الأمثال والحكم القديمة خاصة ذلك البيت الشعري الذي ختم به قصته ؟

وعلى أية حال فنحن بنشرنا اليوم لهذه القصة ولنظمها شعرا نود التذكير بمحاولات الرواد السابقين الذين طواهم الزمان ، وإبراز النموذج الهادف لأدب الطفولة كما كان يفهمه كتاب القرن التاسع عشر ، والتأكيد على أن أدب الأطفال هو أدب متأثل فينا نحن التونسيين ، جارينا فيه طريقة أمثال كليلة ودمنة وأسلوب المقامات المسجع ، وكلاهما متأصل في تراثنا العربي وليس واردا إلينا من الغرب كما يتبادر إلى الأذهان عادة ، ولو أتيح اليوم لهذه القصة أن تنشر في كتيب باخراج جديد وألوان وصور كما نفعل اليوم لاعتبرت قصة ناجحة كما أن لا شيء يمنع من إدراجها في كتاب مدرسي نصا أدبيا ممتازا ، فهي تفوق نصوصا كثيرة ضحلة مما تحفل به كتبنا المدرسية ، كما أن أسلوبها المسجع يعوّد التلاميذ على التعامل مع هذا الأسلوب الذي تزعم النثر العربي طوال عهود من تاريخه ، ويمكّنهم من التكوين اللغوي الذي كان ابتداع هذا الأسلوب هدفا من أهدافه عندما أنشئت المقامات أول مرة .

وكان علينا بعد هذه التجربة الفريدة التي قام بها حسين التونسي سنة 1288 هـ أن ننتظر عقودا وعقودا ، لنرى أدب الطفل . يعنى به وينال منا الاهتمام والتشجيع أفرادا ومؤسسات ، سواء بإصدار مجلات للأطفال مثل روضة الأطفال التي صدرت سنة 1950 ، وعرفان سنة 1966 والرياض وشهلول سنة 1968 .. الخ[11] أو إصدار كتب موضوعة ومترجمة ، وأن نرى عديد الكتاب من مستويات مختلفة ولدوافع متباينة يهتمون بهذا الفن الجديد الخطير نورد منهم ذكرا لا حصرا الأساتذة محمد العروسي المطوي والطيب التريكي ومصطفى خريف ومحي الدين خريف ومحمد الحبيب بن سالم والمختار جنات ، ومحمد الدواس ، ومحمود الشبعان وحمودة الشريف ومصطفى المدايني وعبد الجبار الشريف وعبد المجيد عطية وغيرهم كثير .

الهوامش

1) انظر عن حسين التونسي (الجنرال) محمد محفوظ ، تراجم المؤلفين التونسيين . بيروت - دار الغرب الاسلامي 1982 : 2/65 - 66 .
2) محمد السنوسي . الرحلة الحجازية . تحقيق علي الشنوفي . تونس - الشركة التونسية للتوزيع 1981 : 2/83 .
3) ن م : 2/83 - 84 .
4) بيرم الخامس ، صفوة الاعتبار نسخة مصورة ، بيروت ، دار صادر : 2/44 - 46 و 62 .
5) الافوه الأودي (ت : 56) شاعر جاهلي اكثر شعره في الحماسة والحكمة وقبل هذا البيت أو بعده قوله وهو من مشهور شعره ،

والبيت لا يبتنى إلا له عمد ولا عماد إذا لم ترس أوتاد
فان تجمع أوتاد وأعمدة وساكن بلغوا الأمر الذي كادوا

وله ديوان نشر في « الطرائف » بالقاهرة سنة 1937 . انظر عنه عمر فروخ . تاريخ الأدب العربي : 1/133 - 134 .
6) انظر عن قضية تنازل محمد الناصر باي عن العرش أحمد توفيق المدني : حياة كفاح الجزء الأول - الجزائر ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ص 247 . وعنه وعن ابنه محمد المنصف باي انظر كتاب : مأساة عرش . اللجنة التنفيذية للحزب الحر الدستوري - القاهرة محرم 1367 . وكتاب : صلاح العقاد : المغرب العربي ، القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية 1969 ، ط ، 3 ص : 353 - 354 و 367 - 368 . وكتاب محمد الصالح مزالي : الوراثة على العرش الحسيني ومدى احترام نظامها ، تونس الدار التونسية للنشر 1969 ص : 41 - 42 و 48 - 49 الخ .
7) السنوسي : ن م : 2/84 .
8) ابن الهبارية (ت : 504 / 1105) من نسل عيسى ابن أخي جعفر المنصور ، كان شاعرا مكثرا هجاء ماجنا . وشهرته إنما هي في الشعر القصصي الحكمي له ايضا أرجوزة في الشطرنج وكتاب فلك المعالي . انظر عنه عمر فروخ تاريخ الأدب العربي : 3/222 - 224
9) السنوسي ن م : 2/84 .
10) الحطيئة (ت : 678) شاعر مخضرم عرف بالهجاء ، انظر عنه زيدان تاريخ آداب اللغة العربية (دار الحياة 1778) : 1/146 - 148 . والبستاني سلسلة الروائع عدد 29 (ط : 3) .
11) تنظر أسماء الدوريات الخاصة بالاطفال التي صدرت بتونس إلى حدود سنة 1975 بالبيبليوغرافيا القومية - الدوريات العربية 1860 - 1975 ، دار الكتب الوطنية مصلحة التوثيق - تونس 1975 .

لَوْحة قصصيّة

« رَيَّــــا »

البشير بن سلامة
صيف 1987

وُلدتِ الأميرةُ « رَيَّا » في السّلمِ والرّخاء . وتَرعرَعَتْ في قَصْر أبيها زَهرةً ريّانة ، بل رَيْحَانةً تعدّدتْ ألوانهَا ، وتدَاخَلَتْ أَشْذاؤُهَا ، فَهيَ زَبَرْجَدٌ ، ويَاقُوتٌ ، ولُؤلُؤٌ والماسٌ : شدَّتْها خُيوط من فضّةٍ وذهبٍ ، ونضّدتْها يدُ القدير : رشَاقةً ، وتناسُقا ، ورقّة .

وانشغلَ أبوهَا الملكُ بالحرْبِ والقَمْعِ وسفْكِ الدّماء: يبيتُ لَيلتهُ مُتوجّسا الغدر ويَضْحُو نَهَارَهُ مُطارِدًا كلّ من تنْبُضُ فيه الحياة : مُروءَة وفُحُولةً وشهَامَة . ولَمْ يَبْقَ لهُ إلاّ « ريَّا » يتنقل بِرُؤيتِهَا إلى عَالمِ الخَيْر والجمال ، والسّعادة .

ولكِنَّ « رَيَّا » لَفَحَهَا لهيبُ هَذَا الشّرّ المُسْتَشري وأظلمت نفْسُها بهذَا الظُّلم المُظلم الظّالم ، ولَسَعَهَا بُخَارُ الدّماء الفوّارةِ : جَوْرًا وجبروتًا وجُنونًا .

وَاعْتَلّتْ « ريّا » .

ظنّ أبوها ، أنّهُ الحُبُّ بدأ يناغي قلب ابنته الصّغير : فراشةٌ مُوشّاةٌ قَرنفلا ، وأقَاحِيَ وخُزامَى وورودًا من كلّ شكلٍ ولوْن ، تُعالجُ بُرعمًا مضمومًا ، وُصُولا إلى الرّحيق ، وانتشاءً بطعمِه اللّذيذ ، وريحه العطر ولونِـه الزّلال ، ومَلْمسِهِ الرّطب وجرسِهِ النّديّ . واستعدّ ليتنازَلَ إلى رغْبة ابنتِهِ مستعيضًا عن قلبـه الحجريّ ، باللّين والحنان والرّأفةِ ، ولكنَّ الطَّبيب نظرَ إليه قائلاً : « لاَ . لَقَدْ مَاتَ الحُبُّ » .

ونظر إلى الملِكِ ، وتفحّص وجْهَهُ ، وقد لمعتْ عَيْناه وتبـدَّلَتْ سحنتُهُ وبَـدَا للطّبيب وكأنّه ينظر بعين واحدة ، حَمْراء ، تَتَرَجْرَجُ دما ، هي غُول الخُرافاتِ والأساطير ، ليست إلاّ مرآةً تَعْكِسُ الدَّم المسفوك ، والعرض المهتوك ، ، وقدْ تصوّر فيها دمه يترقرق بين لحيته وقلنسوته .

وتقاوى الطّبيب على نفسه ثمّ تناولَ من طبق الجوز ، جوْزة بعد أخرى يكسّرها أمام الملك ، فتَخرُجُ الثّمرة نِصْفُها الأيْمنُ مُتقلّصا ، ميّتا ، والنّصفُ الأيسرُ ريّان ، يتدفّق ماءً وحياةً .

قال الطّبيب :

أيّها الملك : انظرْ ثمرَ الجوز في الشّكْلِ والصُّورة كيف نحتتهُ يد القدير على نَعْتِ دِماغ الانسان : الحَيَاةُ السّويّة في تناغم النّصفين : الأيمن والأيسر : الأيْمنُ ميّالٌ إلى الجمعِ واللّمِّ ، قَحّامٌ لِلأجزاء في الكل ، نظّامٌ للمجموع ، بحّاث عن كلّ وصلٍ ، نقّاب عن كلّ هيكلٍ فيه الشّمولُ والْكَمَال ، فعله مباشر لِلأشكال معا بالمماثلةِ والمُنَاظَرة ، هو نزّاع إلى الفضاء ، إلى الرُّؤية الفضائيّة ، إلى الحِسِّ ، إلى الجَرْس ، إلى اللّحْن . والأيْسَرُ : هَمُّهُ تَمْييزُ الأجزاء ، والتّنقيب عن الخصائص المُناسبةِ والتّعليل والمُباشرةِ الوَصلية والتّسلسليّة ، هو زمنيّ لفظي ، ميّال إلى تنميط الشّفويّ وتفكيكِهِ ، رِياضيُّ النَّزْعة سَبَّاقٌ إلى الاعجَام في الموسيقى .

أيُّهَا الملكُ : ابْنَتُكَ تَعيشُ بالنّصفِ الأيْسرِ من دِمَاغِهَا وتَتَنَفَّسُ بالرِّئةِ اليُمْنَى نِصْفُهَا الأيْمَنُ يَعيشُ على الحياة في القُصُور ، وعَلَى الجوّ الاصطناعيِّ المُشاع فيه ، فهيَ أجزاءٌ غيرُ مُتَلائِمَة ، لا الْحُبُّ يُمْكنُ أنْ يَغْمُرَهَا ولا العَاطِفَةُ في وسعِهَا أنْ تَتَغلغلَ فيها ، هي مَقْطوعةٌ عن الواقعِ مَفْصُولَةٌ عن طبيعةِ الأشياء ، عن الكون في شموله ، عن الدّنيا في تواتُرِهَا وتلاؤمها .

وينظُرُ الطّبيبُ إلى عينِ الملكِ فيلمَحُ فيها إعصارا قادرا على جَرْفِ الدُّنيا قاطبةً ، وأحسَّ بلفْحِ تنفُّسه من منخره الأيمن : نارا تلظّى ، وشررا يتطاير .

قال الملك : أنتَ طبيبي والوحيدُ الذي أرضى لَهُ أنْ يَنطق أمَامي بما لا يُرْضيني . أنا العبقريّ الذي دوّخْتُ الدُّنيا وملكتُ الأنْفُسَ والعُقُولَ وأثْخَنْت في الأرض والأعداء وهُم كالنّجيل ، ـ وما أكْثَرَهُمْ ، ـ استأصلُهم وآخُذُ هُم بالمُكابرةِ والمُعَانَدَة .

قال الطّبيبُ : نعمْ أنت عبقريّ ، قُدْرَتُك أنّك أشعْتَ ما فيكَ ، حولَكَ ، كهذا الجوْز . وابْنَتُك ، ضحيـة من ضحايا عبقريّتِـك . أنْت الّذي تحكُمُ بنصف دماغك ، وتتنَفّسُ من رئةٍ واحدة و ... أنْت فريدُ هذهِ الدُّنيا ، غيْرُكَ لا إمكانَ لهُ في العيش ، وابنتُك إنّمَا هي زهرة ليس في مقدورهَا أن تتنفّس هذهِ العبقريّة . اتْرُكْها لي أبتعد بها في نقطة من الدُّنيا تستعيد فيها ، بهوائها وطبيعتها ومُناخِها ، نِصْفها المُتقلّص : نصفَ دِماغِها ونصفَ رِئتِهَا ، وقَلْبهَا المريض .

ولم يكُن للملك بُدٌّ مِنَ الإذْعَان . ورأى الطبيب عيني الملك تنظران إليه نظرات العطف والرَّحمة ، قابلا عن مَضَض تعريض الطَّبيب ، وبودِّهِ لو دَقَّ له عُنُقَهُ . فكان يُبصره تارة بعين ، وتارةً أُخْرى بعَيْنَيْن ....

قال الملك : أيّ مكانٍ لخترتَهُ غير مكانٍ اخترته أنَا وَهَلْ هُوَ أجملُ وأنْقى ، مِنْ هَذِهِ المدينَةِ الّتِي اختطّها بيدي ورسَمْتُهَا بعقلي .

قال الطَّبيب : لا : لا ، ليست هي مدينتكَ ، هي الفَيْحَاءُ ، اكتنفها البحر واحت نتْها الخُضْرةُ . ولفَّهَا هَواءُ أنقى ، من النَّقَـاء وأصفى من الصَّفاء ، واحتضنتها الطبيعة في عفويتها وسلامتها وخصبِهَا أجْمل الحُلل وأكملها .

وأسرع الطبيب يدفعُ « ريَّا » إلى الرَّحيل قبل أنْ تتسرّب الشُّكوكُ إلى نفس الملك ويتعاور ذهنه الظّنّ المريض : نفاذًا إلى الشَّر وبحثا عن أشدّ الأفكار التواءً وعوجًا .

وانتهبتِ الخُيُولُ الارض انتهابا وتراكَضَ الأملُ في نفس الطبيب يحفزُه حفزا على إنقاذ « رَيَّا » ...

زمن الضّحك

رضوان الكوني

غير بعيد عن المدينة يجثم المصنع على سفح التلّ . هناك في منحدر الجبل يفوز المصنع بنومة الآمن المطمئنّ وينعم بهدوء المقاتل زمن السّلم ، فالمحرّكات ساكنة والمداخن مطفأة . واجهة إدارة المصنع البادية على الطريق الرّئيسيّة ذات الطّوابق الشامخة تلوح برّاقة نظيفة ، وعلى النّوافذ تنسدل السجف الفاخرة ، وتبرز مكيّفات الهواء بين النافذة والأخرى في خطوط متساوية ومتوازية على ارتفاع الطّوابق ، ممّا يضفي على الواجهة ذات الألوان بهجة وأيّة بهجة يتجاوب معها المدخل الرّئيسي المؤطّر بالمرمر والمزوّق المنقوش ، يمتدّ أمامه بهو فسيح نظيف انتشرت على جانبيه محابس الزّهر والورد ومختلف النبات الأخضر الفوّاح ، وأمام البهو ، قبالة المدخل الرّئيسي ، ثلاث درجات من الرخام الغليظ العريض تنتهي الى ممشى مبلّط يتوسّط حديقة ناصحة الخضرة دائمة الإشراق ويصل الممشى البابَ الخارجيّ الحديديّ الأنيق الذي يفضي الى الطريق الرّئيسية ، ويمتدّ على جانبي الباب الحديدي سياج تُفُنّن في بنائه وتركيز الحديد المطروق عليه في أشكال عجيبة ، وفي طرف السّياج باب كبير تعبر منه سيّارات الموظفين والزّوّار إلى المحطّة المخصّصة بالجانب الخلفي للإدارة .

ومن الجهة التالية يستقرّ المصنع المكوّن من جناحين أرضيين مبنيّين بورقات من المعدن . وبكلّ جناح بابٌ كبير وبضعُ كوًى قريبة من السقف تيسّر خروج الغبار والدخان ، ويربط الجناحين بالإدارة معبرٌ واحدٌ يرقد على أعمدته الرقيقة سقفٌ رهيف . وفي جهة مركونة تتكدّس درّاجات العمّال ، وبين المصنع والإدارة تبرز الأرض على حقيقتها ترابا وأحجارًا لا تزيف واقعها خضرة النبات ولا ضوعة الزّهر .

عندما فتح مدير المصنع اليوم مكتبه بالطابق الأوّل انتبه الى ورقة تحت رجله ، التقطها ورمق أسطرها الأولى ففرقع ضاحكا ثم رمى بها على الزربيّة العريضة المبسوطة تحت قدميه ، وتوجّه ناحية النافذة الطويلة ذات المصراعين

وأزاح الستار عن يمين وعن شمال تاركا فجوة عريضةَ القاعدة حادّة القمّة تسمح له برؤية ما يدور خلف زجاج النافذة ، ولم تمرّ لحظات وهو يتأمّل خارج الزّجاج حتّى أغرق في الضحك ، ثمّ خفّ راجعا الى الخلف دون أن ينقطع عن الضحك وأخذ يجرّ أريكة أثبتها حذو النافذة وجلس عليها وهو يضحك مَرَحًا وانشراحًا .

على بعد ثلاثين خطوة ، تقديرًا جويًّا ، من مكانه ذاك بالطابق الأوّل الى المصنع ، احتشد العمّالُ : يتجمّعون ويتفرّقون في اتّجاهات مختلفة ، تتحرّك أيديهم حركات كثيرة ، بعضهم يشير بيده الى السّماء ثم ينزلها نحو الأرض ، ويطلق آخر ذراعه ويكشف عنها مصوّبا نحوها سبّابة يده الأخرى ، ويهزّ آخر رأسه موافقا بينما يطأطئ زميله في أسف وندم ، ويكشّر آخر عن أسنانه ، وسفتاه تنفتحان وتنغلقان بسرعة جنونيّة كمن يسبّ ويتوعّد ، وينحني آخر ثمّ يرفع رجله إلى أعلى فيقفز جاره قفزة إلى الوراء ويستلقي طريحا على الأرض فلا يقوم ، وقد وجد الرّاحة وأمْنَ القرار وظهره ملتصق بالأرض وعيناه في الشمس ، وتقترب مجموعة أخرى من العمّال لتضيف الى تلك الحركات حركات أخرى ، وتسري في ساحات المصنع حياة قوامها المشي والجري والقفز والانحناء ورفع الأيدي والاستلقاء والانبطاح ، وإرسال الصّوت ، فمن المؤكّد أنّهم يقولون أشياء ، وأنّهم يتحدّثون بصوت مرتفع ، وأنّهم يصرخون أو يعوون ، أومن الثّابت أنّهم يلهجون ويلغطون ، إلاّ أنّ الرّجل ، من مكانه هذا خلف زجاج نافذته بمكتبه في الطابق الأوّل من مبنى إدارة المصنع ، لا تلتقط أذناه أيّة نبرة . باستطاعته أن يفتح النافذة وينصت اليهم ، أو أن يثبت أجهزة التقاط تفضح كلّ ما يسرّون ، أوْ أن يكلّف من يندس بينهم لموافاته بكلّ ما يضمرون ويظهرون ، إلاّ أنّه لا يرغب في سماع أصواتهم ، فقد كرهها وملّها ومجّ نغمتها منذ زمان ، وإنّما الذي لم يكتشفه إلاّ اليوم هو هذه الحركاتُ والانفعالاتُ المنسجمةُ في اختلافها، البديعةُ في تدفّقها وتعاقبها ، المتناسقةُ في تهوّرها وفوضاها .

أن يتجمّع العمّال أمام المصنع منذ الصّباح الباكر ، وأن لا تدور المحرّكات ، وأن لا يصّاعد الدّخان إلى السّماء ، وأن لا ينتصب أيّ عامل في مكان عمله ، فهذا أمر يدفع الى الضحك من الأعماق ، بل الى تفجير براكين من الضحك أخمدها الانضباط والرّتابة .

وأنت تضحك وهم يقفون جميعا أمام المصنع ينظرون اليك وأنت في مكتبك خلف زجاج النافذة المطلّة . وعندما جاءك نفر منهم ، أغلقت الباب دونهم وطلبت إليهم الرّجوع الى مشاغلهم . وضحكت ضحكة استهزاء ، وقلت :

« أغبياء » .

فرجعوا ووقفوا مع زملائهم أمام المصنع يتحدّثون ويدخّنون ، فضحكت ضحكة استخفاف وقلت :

« كسالى ، يملؤون أيّام حياتهم أحلاما » .

منذ الصّباح الباكر كان العمّال يتوافدون على المصنع ، يترك الرّاكبون منهم درّاجاتهم في الرّكن المهجور ، ثم يلتحقون بزملائهم المتجمّعين أمام جناحي المصنع ، يمشون ويجيئون ويكوّنون حلقات ويتحدّثون .

قال أحدهم : السّماء أبعد من أن يصلها انسان ، وأمّا الأرض فكلّنا نطؤها .

وقال آخر : انظر ذراعي المكلومة ، لولا ألطاف ربّي لقُطعت .

ويهدّئه صاحبه : ذاك قدرنا .

وينطلق عامل آخر قائلا : خبز مرّ ، يكفيني ، لقد برمت ، ولا بدّ من الانتهاء إلى حلّ . قسما بالله ، لن أباشر العمل حتّى يقضي الله أمرًا كان مفعولا .

ويتواصل تجمّعهم ووقوفهم يترقّبون مجيء المدير . أعناقهم مشرئبّة إلى فوق ، وأعينهم ترمق نافذة مكتب مدير المصنع .

وعندما انجذب ستار النافذة الطويلة الى اليمين والى اليسار ، كانت أبصارهم كلّها موجّهة من أسفل الى فوق ، واطلّ المدير خلف الزّجاج ، وفي الحين سَرَتْ في صفوفهم طمأنينةُ من يلحظ البِشْرَ على وجه المسؤول ، وانتظروا انفتاح النافذة ، وانتظروا طويلاً ، ومدير المصنع يكبر ضحكه وهم يبتسمون ، وهو يزداد ضحكا وهم يتلهّفون في استبشار الى انفتاح النافذة، وهذه موصدة دونهم والرّجل يضحك دون انقطاع ، وشجّعهم هذا على إيفاد نفر منهم إليه سرعان ما عادوا اليهم ، وانقضى اليوم بأكمله ينتظرون انفتاح النافذة دون أن يتحقّق ذلك ودون أن يتخلّى عنها الرّجل الغارق في الضّحك .

وفي اليوم الموالي كان المشهد أجمل ، لافتا للنظر ، العمّال يتجمّعون ويتفرّقون ، والرّجل خلف زجاج نافذته يضحك ويردّد : سبحان مجمّعهم ومفرّقهم ، ثمّ يذهبون ويجيئون ، يدخّنون ، ترتفع أيديهم ، تلوح أذرعهم السمراء تخيط الهواء متمّمة معاني كلامهم ، يقطّبون يكشّرون ، يبتسمون ويهزّون رؤوسهم ويقفزون ، وينحنون وينتصبون واقفين ، والرّجل يضحك ، حتى إذا كانت الظهيرة يُقعون على الأرض هنا وهناك ويفتح كلّ منهم جرابه يخرج خيراته ويتناول طعامه ويؤاكل بعضهم بعضا ، ثم يستريحون قليلا ليستأنفوا حركاتهم في حصّة ما بعد الظهيرة ، ومحرّكات المصنع هامدة ، والمداخن مطفأة ، والرّجل ، مدير المصنع الجالس خلف النافذة يلتذّ ضاحكا حينا ومبتسما آخر لمشهد العمّال في هذه الوظيفة الجديدة التي لم يعهدها فيهم سابقا ، ولم يكن يعتقد أبدًا أنّهم قادرون على إتقانها والتفنّن فيها ، إن أبرع مخرج ليعجز عن تجسيم حركات العمّال تلك ولا يهتدي إلى جزئيّاتها الرّائعة ، النّاشئة عفوًا والطّافية تلقائيّا ، وإن أعظم شركات الانتاج السينمائي لتعجز ماديّا عن تحقيق عرض كهذا يدوم يومين أو أكثر .

وعندما طال انتظار العمّال ، وربّما يئسوا من لقائك بعد أن غلّقْتَ الأبواب دونهم وأبيْتَ فتح النافذة ، تجمّعوا تجمّعا واحدًا حول أحد زملائهم ، وراح هذا يخطب فيهم خطابا يبدو أنّه كان خطابا حماسيّا مؤجّجا للعواطف ، ملهبا للأنفس من خلال ما كنت ترى من رفع الأيـدي وطأطأة الرؤوس وتصفيق الأكفّ ، ولكنّك راغب عن سماعه فأبقيت النافذة مغلقة ، وبعد كلمات الحماس التي بثّها فيهم زميلهم تفرّقوا ثمّ بدؤوا يقتربون في اتجاهك .

عندئذ تركت النافذة وتراجعت إلى خلف ، وأخذت تقرأ الورقة التي دسّوها تحت باب المكتب أمس ، وعلّقت في الحين على كلمة « إضراب » المكتوبة بأعلى الورقة بأنّها من مكر الصحافيّين ، وأنّها عبارة لا معنى لها في مؤسّستك .

قالوا في الورقة التي دفعوا بها تحت باب مكتبك إنّهم يطالبون إدارة المصنع بتجديد الآلات القديمة ، وإصلاح المعطّبة ، ونظرًا إلى أنّ أحد العمّال فقد جزءا من أصبعه تحت آلة طالما طالبوا بإصلاحها أو تغييرها ، فإنّهم يطالبون الإدارة بإدراج منحة ضمن الرّاتب الشّهريّ بعنوان « منحـة وقائيّـة » ، وختموا ورقتهم بأنّهم في إضراب مفتوح حتّى استجابة الإدارة الى طلباتهم ، ولم تكد تنتهي من قراءة الورقة حتّى عاودتك نوبة الضحك وتواصلت الى أن احمرّت وجنتاك ودمعت عيناك ، وأمسكتَ أحشاءك التي كادت تتمزّق لطول اهتزازها كاللّولب ، وأنت تقهقه وتنادي أعوانك وتستضحكهم فيضحكون ، ويقفزون ويصفّقون ، وشدّت الموظّفات أوساطهنّ بأحزمة ورحن يـرقصن على نغمـات النّقر الذي يوقّعه الموظّفون على خشب المكاتب الفاخر ، وأمسكت أنت بمسطرة تحرّكها يمنة ويسرة وقد استقمت ضاحكـا أمام الجميـع تستزيـدهم الغناء والرّقص والضحك .

والعمّال أمام المصنع لا يعملون ، ينتظرون ردّ الإدارة على الورقة الملقاة تحت باب المكتب والتي طبع عليها حذاؤك رسمه عند دخولك .

وعندما لم يفلحوا في الاتّصال بك ، تجمّعوا تحت نافذة المكتب ، وجاهدوا للوصول اليك ، فانحنى أحدهم واستند على الأرض بيديه ورجليه ، واعتلاه آخر ، وتسلّق ثالث حتّى استقام على كتفي الثاني وتحيّل رابع كي يكون في قمّة الهرم ، وعندما انتصب واقفا على كتفي الثالث أطلّ بوجهه على زجاج النافذة يطلبك أن تفتح النافذة وتنصت اليه ، وكان مشهد آخر جدّ مضحك .

وبعد هدأة قصيرة شققْتَ عن النافذة ودفعته بالمسطرة الى الخلف فتهاوى ومَنْ تحته على الأرض ، وتعالى الضّحك في قاعة المكتب، واصّاعدت أنّات الألم من أسفل لتضمحلّ في الضحكات المفرقعة داخل مكتب عملك ، وحمي النّقر على المكاتب ، وشقّت الموظفات عن جيوبهنّ وقد برّح بهنّ الهزّ والحطّ ، واشتدّت عليهن حرارة النشوة فنززن عرقا من النتوءات والمنعرجات والتجويفات ، وأنت تستزيد الجميع في لذّة قلّ أن تحدث وتهتزّ أعطافك مرحا فتلوّح بالمسطرة ذات

اليمين وذات الشمال . وعندما آن لكم أن تيصيبوا شيئًا من الرّاحة ، تداولتم على دورات المياه وربّما سمح بعضكم بقلب المكتب حمّامًا فكانت النشوة إلى أقصاها .

ولم ينفع العمّال تسلّقُهم وتكبّدهُم المتاعب في شيء ، فراحوا يتجمّعون أمام المصنع يتحرّكون في انفعال ويمشون ويجيئون ، وكان المشهد آية في جلب الضحك إلى الرّجل ، هذا الذي اكتشف أنّ العبقريّة وحدها تستطيع تحويل مصنع ينتج الموادّ الحديديّة الى مصنع يخلق المتعة في عروض طويلة مسلّية تبعد السآمة .

وكم كان يضحك عندما يعود الى قراءة الورقة ، يضحك ويعلّق على انقطاع جزء من أصبع عامل بأنّ الأجير لم يكن مهتمّا بشغله حينذاك ، فقد يكون منهمكا في تأمّل احدى الموظّفات وهي تنزل عن سيّارتها . ويعقّب ضاحكا على « تجديد الآلات » بجهل العمّال وعدم تلاؤمهم مع التقنيات الحديثة ، وأمّا الإضراب عن العمل فلجنوحهم الى الرّاحة ، هؤلاء الكسالى ، يقضون العمر يحلمون دون الظفر بشيء ، ويطالبون بمنحة وقائيّة ، لم أكن أعلم أنّ الدّراهم تضمّد الجروح ، وعلى هذا ، تصبح المستشفيات تعالج المرضى بإعطائهم مقدارًا من النقود حسب خطورة الجرح أو المرض ، وعندها لن يكون في البلد سليم واحد .

ومع ذلك فهو سعيد لأنّه حوّلهم إلى خلّاقي مشاهد يحلو التفرّج عليهم .

ولما كان اليوم الثالث خفّ الرّجل كعادته التي اكتسبها منذ يومين للجلوس حذو النافذة ، وكانت خيبته كبيرة . فقد تهاوى جلّ العمّال جلوسا على الأرض بينما بقي قليل منهم واقفين مستندين الى جدران المصنع المعنيّة ، وكانت السّماء سوداء تنبىء بنزول المطر وشيكا ، والرّيح الباردة تهبّ عنيفة فيلتصق العمّال بعضهم ببعض ينشدون الدفء ، والرّجل في مكتبه خلف الزّجاج يرمقهم ضاحكا ضحكة احتقار وهم يرتعشون ، وهياكل أبدانهم النّحيلة تهتزّ مصطفقة كقصبات الهواء تحت وقع الرّيح الباردة العنيفة ، والرّجل يبتسم في يأس وينتظر في لهفة مشهدا يضحكه حتّى يسرّي عنه ويقول :

« لِمَ لا يتحرّكون مثلما كانوا يفعلون في اليومين الماضيين » .

وعندما انهال المطر على المكان تطلّق وجه الرّجل مرّة أخرى وأخذته نشوة طفولية وهو يرى العمّال يتراصّون ، ويهرولون نحو سقف المعبر الواصل جناحي المصنع ، والرّجل يضحك لمرأى العمّال وهم يتزحلقون على الأوحال ، ويشتدّ ضحكه عندما يلحظ أحدهم وقد وقع طريحا في أحد الغدران المنبثّة في نواحي المصنع ، ثمّ سكنت حركتهم ووقفوا تحت ذلك السّقف والمطر يزداد انهيالا ، والرّجل يضحك ويسخر من ضعفهم وهم يرتعدون بردًا .

وعندما طال انتظاره لهم في حركة أخرى يبدونها حتّى ينعم بلذّة أخرى ، أخذ جرعة من القهوة السّاخنة وأحرق لفافة تبغ .

قال : « لا بدّ أن يتحرّكوا ، ولا بدّ لهم من إظهار حركات مغايرة » .

ثمّ نظر في جموع العمّال مليّا وهؤلاء يفتحون عيونهم في استفسار . لم يضحك الرّجل هذه المرّة ، اكتفى فقط بإخراج لسانه قبالة العمّال وراح يحرّكه قرب الزّجاج ، التفت العمّال الى بعضهم بعضا في حيرة ثمّ وجّهوا بصرهم ثانية ناحية الرّجل المحرّك لسانه وأخرجوا السنتهم تتحرّك بتحرّك لسان الرّجل من اليمين الى اليسار ومن اليسار الى اليمين .

لكنّ المطر يزداد انهمارًا وساحات المصنع يتماوج الماء فيها ، والبَرَد المرتطم على الأرض والسّماء المسودّة بالسّحب التي لا يبدو أنّها تريد الانقشاع ، زادت كلّها من روع العمّال المتراصّين الواحد حذو الآخر في ذلك المعبر الضيّق المكشوف الجانبين ، لا يقيهم إلّا سقفه النّائم على أعمدة حديديّة لا يتجاوز قطرها أربع أصابع .

وعندما بلغت المياه الجارية مستوى ركبهم وأصبحوا يتمايلون تسلّقوا الأعمدة واعتلوا سقف الرّواق ، وصاروا في مستوى يقرب من مستوى النافذة التي خلفها الرّجل الضاحك أبدا فتوضّحت لهم حركاته اكثر .

رفع الرّجل يديه إلى كتفيه في هيئة جناحين ورفرف بهما ، فرفع العمّال أيديهم إلى أكتافهم في هيئة أجنحة ورفرفوا بها ، والرّجل يضحك منهم ويراهم أسرى ذلك المكان وفي حيرة لا يدرون كيف يكون الخلاص ، وهم يضحكون منه في إعجاب لم يكتشفوه قبل ذلك ولم يتفطّنوا كيف يملأ مدير مصنع ساعات عمله ويتحوّل إلى مهرّج يتقن التكشير وإدارة اللّسان ، وظلوا في سعادة لم يشعروا بها سابقا فأخذوا يعبّون من لذّة المشهد ويتفاعلون لغرابة الحركات وطرافة الموقف يرقصون ويقفزون ويغنّون غير مبالين بالمطر النّازل على أدمغتهم ، ولا بالرّيح تتقاذفهم فوق هذا السقف الرقيق . والرّجل خلف زجاج النافذة ينعم بالدفء ويشكر الظروف التي جعلته يخلص الى عمله هذا الاخلاص ويحرص عليه هذا الحرص رغم ثقل المسؤولية الملقاة على عاتقه والتي فرضت عليه الوقوف في مكانه ذاك يشرف على حسن سير الحركة ، والعمّال مستريحون الى الوضع ويحمدون الله على تحوّل العمل الى هذا النّمط من الفرجة والرّاحة، ويتمنّون دوام العرض وبقاء مدير المصنع في مكانه ذاك يضحك أو يكشّر .

وفي المساء ، عندما التفت الرّجل عبر النافذة لم يلحظ المصنع ، ولا المعبر ولا سقفه ، ولا السيّارات الرّابضة بالقرب من مبنى الإدارة ، كان الماء يغمر الكلّ ، وكانت أشلاء من جدران المصنع تطفو على سطح الماء ، وبعض الأشجار يدفعها التيار وقد تعلّقت بها بعض الأجساد لبعض العمّال ارتسمت على وجوههم بقايا ابتسامات . والماء يعلو ويتماوج ، ويبلغ نافذة المكتب بالطّابق الأوّل .

والرّجل يضحك ، فالنّافذة محكمة الغلق ، فليسدل السّتار عليها . وعندما أظلمت قاعة المكتب كانت الصّيحات تصله من المكاتب المجاورة ، فهمّ بالضحك ثمّ أسرع نحو زرّ النّور ليضيىء المكان . وفي نفس اللحظة ينفصل مصراعا النّافذة وتندفع المياه غامرة كلّ ما في المكتب فيتهيّأ للضّحك إلّا أنّه يغصّ ، فقد استبدّ الماء بالضّحكة له .

● قرئت هذه القصّة ضمن «الأيام القصصية » المنظمة باتحاد الكتاب التونسيين في أفريل 1985 .

من منشورات
دار الغرب الاسلامي للنشر والتوزيع والطباعة
ص ـ ب 113/5787 بيروت

● **الجغرافية عند العرب**

La géographie chez les arabes par Béchir Sfar .

تأليف : البشير صفر 1865/1917 . تقديم وتعريب : حمادي الساحلي .
128 النص العربي . 24 النص الفرنسي الطبعة الأولى 1984 .

● **محاضرات في تاريخ المذاهب والأديان**

تأليف : عبد العزيز الثعالبي
تقديم : حمادي الساحلي 256 صفحة ، الطبعة الأولى 1985

● **روح التحرر في القرآن** L'ESPRIT LIBERAL DU CORAN

تأليف : عبد العزيز الثعالبي Abdelaziz Thaalbi
نقله من الفرنسية حمادي الساحلي ، راجعه ووضع حواشيه محمد المختار السلامي .
121 صفحة القسم العربي ، 83 صفحة القسم الفرنسي الطبعة الأولى 1985 .

● **100 نص عربي مع ترجمتها الى الفرنسية**

100 textes français avec traduction à l'arabe

تصنيف : محمد اليعلاوي ـ أستاذ بكلية آداب تونس
النص العربي 172 صفحة . النص الفرنسي 148 صفحة .

صراع في ليل طويل

التابعي الأخضر

تمشي في الساحة الوحيدة للقرية والكلاب تنبحك . وما حاولت أن تذبها عنك . وما فكرت حتى أن تنهرها لترتد . واصلت سيرك في الطريق المؤدية الى المقابر تحمل في أفكارك شكوى لثاو هناك . وتوقفت بين القبور والليل أسود والنفس مظلمة ، فاستعصت عليك الشجاعة وكان اليأس هو الذي يحثك .

ـ « أوه ! كم هي رديئة هذه الأفكار التي دفعتني الى هذا المكان وفي دامس الظلام ... ، الوحشة تغرر بي ولكنها لا تخيفني »

[وتقدّمت ورجلك تتعلق بطريق وعينك تبحث عن أخرى وقلت تحدّثُ نفسك فكأنك تخاطب أولائك الذين لم يعودوا يفقهون الكلام :

ـ « .. هنا توقفتم في نقطة معينة ولم يبق منكم غير ماضيكم . وأبي أيضا يضطجع هنا وتركني في ماضيه .. »

[واقعيت على الجدث وامتدت يدك تبحث عن شيء تتعلق به فوقعت على الشاهد فشددت عليه تعصره . وانهمرت دموعك .

لم تبك . ولكنها دموع الحسرة باغتتك فلم تقدر على كبحها . وبلّغتَ شكواك . ولكن بأي لسان ؟!

كان السكوت جاثما على المقبرة . والقمر يطل عليها بعين نصف مغمضة . وأشجار الصفصاف تصفعها العاصفة فتنتحب بكآبة . وهذا الذي يمشي متعثرا فلا يلتفت ، ولم يتجاوز بعد عتبة الدهر ، حين كشرت له الأشباح وفحت في أذنيه ، وسمع من يقول له وما درى أنّه يصدر عنه :

ـ إن كنت أذنبت في حقي فإنني أعفو عن الدعوى . فنم هانئا يا أبي ، واصفح عن حماقتي ، اذ ليس من حقي أن الاحقك بهمومي حيث تركت كل الهموم . لقد كنتَ تقول لي : « إن الأنهار لم يحفر مسالكها البشر » . وكنت صادقا . وها إني ذاهب لأحفر طريقي فأكون نهرا عظيما .. »

تمدّد على السرير . ترك رجليه تتدليان لم يفكر حتى أن ينزع عنهما الحذاء . وضع يده على عينيه ليحجب خيالات طفيلية ، نهض بعصبية وأعمل أصابعه في أوراق يومية الحائط . فإذا الأيام تتساقط . رفع الساعة ولوح بها في الفضاء وقذفها بعنف فتناثرت قطعا . ومشى عليها حذاؤه يسحقها . وانتزع معطفه المعلق بعنف وصفق الباب بعنف وجذب المقعد الوحيد اليه . وأطل من ثقوب الباب . فالفتيات في وكالة السلام جميلات . ولا يهمهن السلام

قال الحاجب : أي مدير ؟

فرد بهدوء مصطنع والغليان داخل نفسه لم يهدأ بعد :

ـ مدير الادارة . هل عندكم غيره ؟

ـ كثيرون قال الحاجب فأيهم تريد ؟

ـ أي مدير يصادفك . فقط مكني من مقابلة أيهم شئت .

ضحك الحاجب بأسى فكأنما يرثي لهذا الجلف .. وقدم له كنشا وطلب منه : أن يكتب اسمه . واللقب . وعنوانه . والغرض .

وفي عجلة سلم الورقة للحاجب الذي وضعها أمامه بتؤدة . ونظر اليها كأنما ليستشيرها . ثم رفع عينيه كأنما يستطلع في فلاة . وأخيرا قدر له الاقلاع فاذا وقع حذائه غير مسموع . تركك في النقطة التي يلتقي فيهـا الأمل بـاليأس ليتصارعا ، ولكنك الضحية على كل حال . فأحسست بالضعف ورأيت نفسك تدب كحشرة مرشوشة بالمبيد .

قال الحاجب ، وهو يمرر يده على لحيته : يتعذر على سيادته رؤيتك اليوم وربما غدا . ولكني أنصحك ، إن كنت حقا حريصا على أمور نفسك ـ أن ترفق له تقريرا ـ أعني طلبا ـ وأحرى لو يكون في ظرف مختوم مرفوقا ... ، أفهمت ؟

واستفسرته : مرفوقا بماذا ؟ ضحك بخبث وأجابك وهو يتصنـع الجد : بالوثائق ! الوثائق اللازمة طبعا . وهل غير هذا أقصد ؟

ـ ولكني لا أملك وثيقة واحدة ! ومن أجل ذلك تجدني أقف أمام الأبواب التي لن تفتح .

وحاولت للمرة الأولى أن تنشر نفسك أمام رجل غريب فكأنك تطلب عفوه : لقد ابتلع أبي هويتي فمات بها ويومهـا لم يجدوني في نسبـه .ولا أمي في عديـد الزوجات . ومن بسطوا أيديهم لتلاوة الفاتحة أنكروا أن يكونوا بين الحضور . لقـد ترك ابي جقـول ومزارع ولكنهـا لم تنتج غـير الحقد ، ومـا انبتت غير الكراهية . لقد كان أبي جبارا وفاجرا .

ـ اذكروا موتاكم بخير ـ قال الحاجب ، وأردف : أنصحك أن تعود غدا فقد تشرق الشمس على نافذة المدير . وها إنك ترى أن الجو غائم اليوم . ولعله ينذر بنزول المطر وهبوب العواصف .

ونظرت من النافذة فإذا الشارع يعج بمخلوقات في أحجام الذباب وقلت في نفسك

ـ « .. عجبا يتغير النظر للناس في الطوابق العلوية .سأنفض تلك المبادىء . كل تلك المبادىء التي ضحك عليها الزمن فتركها تتآكل .

اسمع يا أخي . أنا لا يهمني المرض . فمن حقك أن تمرض متى شئت . ولكنك لن تجدني بجانبك بعد اليوم . وسأبقى ابن خالتك حتى لو قتلتني . وعندي أنك تعود إلى القرية وفيها بعض من أهلك ، حتى لو جفوك وأغلظوا ، فلن يكونوا أقسى من الغرباء . هنا في المدينة يموت الإنسان إذا كان فقيرا ، ويموت بشكل آخر إذا كان غنيا .

عد من حيث أتيت فسوف تجد هناك شجرة أظلتك من قبل ، ولن تتنكر لك اليوم . حتى لو حرمتك ثمرتها فلن تمنع عنك ظلها .

ولعلك واجد كوخا مهجورا تلتقي فيه بوحدتك .

أنا أنصحك . ولو شئت لتركتك هنا ولكنك حتما ستنهار . فالحائط الذي كان يسندك نقلوه عمدا . وهل عرف الناس للحيطان رأيا ؟

كنت استمع الى ابن خالتي وكلماته تصل متقطعة ، وفي نطقه عسر . فكأنما يجذبها بكلتا يديه . فما فهمت ، لأنه تعود أن يثرثر كعادة صغار المربين . وكنت أحس بأنني أغطس في حوض ماء ساخن . وسرت القشعريرة في جسدي وتضاءلت الأشياء في نظري وأحسست بأني أرتعد .

كان أبي ـ ذلك الشيخ الجبار ـ يتربع في مجلسه وحوله وجوه القرية ، وهو يتآمر على الضعفاء : ينتزع عنهم حقوقهم . يأمر بحقن أصواتهم حتى لا تصل الى حيث لا يريد . يجبرهم على التنازل . يسلب توقيعاتهم ويجد لذلك الشهود . ومن هنا ألزم جدي لأمي ان يزوجه ابنته البكر . وقد فعل ولم يقدر على غير الموافقة . ومدت الأيدي لابرام العقد . وزفت الفتاة الكاعب إلى الشيخ فكانت الخامسة في الحريم .

وحرم الجبار دخول أبنائه على الحريم فالتزمت كل واحدة بما انجبت . فكنا لا نعرف بعضنا إلا كما يتعارف الأطفال في الشارع . وكانت عداوتنا لبعضنا أكثر مما نكنه للآخرين أو يكنه هؤلاء لنا جميعا . وتذكرت يوم ضبطني ألاعب إحدى بناته فإذا هو يغضب ، ويرفع عكازته ليشج بها رأسي . فوضعت يدي على جبيني أتحسسه وقربت يدي أنظر الى لون الدم الأحمر وفتحت عيني فما وقعت إلا على أشياء غريبة عنها وصوت يطمئنني :

ـ أنت الآن بخير .

وتساءلت : ماذا جرى ؟ وأين أنا ؟

ونظرت إلى صاحبة الصوت فإذا هي تلك الأرملة الشابة ساكنة البيت الملاصق لبيت ابن خالتي في « الوكالة » .

وواصلت الأرملة الطيبة : لقد تراجعت عنك الحمى فهل أنت في حاجة الى شيء أقدمه لك ؟

قلت : جرعة ماء فأنا أحس بالعطش .

ـ لا تكلف نفسك عناء ، فأنت في بيت آمن . وقد اضطر قريبك الى طاعة الأوامر والسفر الى مقر عمله ، ولم يقدر على غير ذلك وها أنت ترى أنه لم يهملك آخر الأمر .

كانت جميلة والوقار يصبغ ملامحها وزادها التعمم بالحزن حسنا . فلا هي تتبرج ولا تبوح عيناها بسر حتى في حالات الابتسام النادرة .. فكل النسوة هنا يغنين . يتفكهن . يتندّرن بفاحش القول . وتبقى هي . فكأنها ليست هنـا . ترملت شابة وفقدت زوجها في غموض ، ولم يبق منه غير بنتين ، فهي تعمل من أجلهما وتعيش ، لذلك لا يعرف أحد عملها غير انها تخرج وتعود في أوقـات محددة مضبوطة .

كانت بحق زهرة نبتت هنا في مستنقع يسمونه « وكالة السلام » ، سكانه ذئاب وكواسر لا يهمها التعرف على نوع فريستها ، مرصوصون في ثقب وجحور كالجرذان . تحسبهم عائلة واحدة إذا فرحوا ، وتعتقد ان الحرب قائمة اذا وقع بينهم خصام .

يذهب ابن خالتي الى عمله ويتركني نائما . وقد أكون مستيقظا فأتناوم . يا للأيام اللئيمة ! كم هي جادة في تعنيفي . طالما جبت المدينة ويدخل عقلي كل البيوت ، يدخل كل الادارات ، ولكني أنـا صاحبـه يبقيني خارجهـا انتظره واستمع الى دقات قلبي . واذا مكنت من الدخول فلن يسمح لي بغير الوقوف والكلام المقتضب شريطة أن يكون ممزوجا بالتلعثم والتذلل .

وتنهض « الوكالة » على بكاء الصبية ، حتى يخيل اليك أن الكل اصبحوا يتامى ، بعدها تأتي مرحلة التسابق للمـراحيض ، فالاقبـال عليها يشتـد في ساعات البكور ، إذ ليس في الوكالة غير باب واحد يؤمه الجميع .

ويتحول السباق بين النسوة نحو خيوط الشمس يخرجن الأغطية المهترئة والأسمال التي يتبول عليها أطفالهم ليلا . بعدها يهدأ كل شيء فكأن الجميع ماتوا . وما أن تمر تلك الفترة حتى تصرعك روائح التوابل والسمك وروائح اخرى لا تعرف لها معنى في خياشيمك .

وأنت تتفكه بالبؤس وهو يضاجع الآخـرين ، فلعلك تتنصل منـه ، تتلهى كالمحكوم عليه بالإعدام يحسب للمسجون على المدى الطويل . أنت . من أنت الآن ؟ هلا عرفت بنفسك لنفسك . وقررت أخيرا أن تخرق الحجب . أن تصل الى رقعة السماء فتمزقها . فإما أن تضمك هذه الرقعة وتحتضنك اوتخرج منها خائبا مدحورا . وقلت وأنت تخطط لفعلتك : « لقد كان أبي جبارا فاجرا فما تورع عن فعل اثم تاق اليه »

وما ورثت غير الذي انا فيه ..

وسمعت الأطفـال يتحدثـون في أحلامهم ، وجسـد المترملة يتناثر فـوق السرير ، ونور مصباح الشارع يتلصص عليها من النافذة فيقع على شعرها

المبعثر هنا وهناك ويستقر أخيرا على صدرها الناهد . تسارعت دقات قلبك . وألغيت كل عقلك فلم تبق إلا صورة واحدة تحث عواطفك . واقتربت بحذر خطوة الى الأمام تقربك وأخرى الى الوراء تبعدك تقدمك عاطفة ويؤخرك الضمير .

وانحنيت . وجابهتك الأنفاس الدافئة . فنسيت أنك انسان . واقتربت او كدت تضع يدك على الكنز . وأحسست بأن الحمى عاودتك ، وأنها اشد مما عانيته من معاشرتها . وتحفزت للانقاض لولا ذلك الصوت الملائكي الذي داعبك بحب ، صوت الطفلة الصغيرة التي وضعت صورتك تحت رسم أبيها في البيت والقلب .

– ماذا أصابك . أعاودتك الحمى ؟

وقلت ، وأنفاسك تتلاحق :

« إنني ابحث عن عكازتي وغرضي للخروج بسيط . ودرجت الى الخارج والعرق يتصبب من كل جسمك . وقلت وأنت تنظر الى باب « الوكالة » لآخر مرة : « لقد تهت في الضياع بإرادتي هذه المرة . أما باقي المصير فلن أسأل عنه . فالحياة وحدها ستجيب . ويكفي أنني خرجت في ظلام الليل وقبل ان يسطع النور . فهل أعود الى قريتي فتستقبلني الكلاب بالنباح من جديد ؟ »

اللعبة

نافلة ذهب

كانوا أربعة يلتقون ، يلتفون حول مائدة صغيرة مستديـرة ، تكتنف نور المصباح كله في دورانها ويلعبون . كانت اللعبة شيّقة في البدء . كانوا أربعة يلعبون يضحكون يتندرون بخوف أحمد من الأداءات وكره مصطفى لمديره .

ـ ديك الهند ـ كما يسمّونه إذ يأتي كلّ صباح يفرض عليه آراءه وعلاجه للأشياء وتنبؤاته بالمستقبل ، ويرثون لحال مجيد الذي لم يرها منذ أسبوع وهو الذي يتسابق مع الرتل الأخضر ليلتحق بها ، ولا تـأتي . ويسير الرتـل به ، بعيدا ، فيريد العودة من حيث أتى والعودة من جديد .

كان أحدهم يكسب اللّعبة في الآخر فيذهبون والليل قد تقدم بهم واحمد يفكر في وسيلة تنقذه من الأداءات ، ومصطفى ليلتقي بمديره وقد يحلم وأنه بصدد ذبح ديك رومي يزعق متخبطًا في دمائه . ومجيد الذي يتمنّى رؤيتها وهي تتسلّق الرتل الأخضر . ويبقى هو في منزله يعيد الأشياء إلى نصابها ، يُرتّب المائدة ينظف منفضة السجائر المملوءة وان خسر ليلتها فلا سبيل للنوم أبدا .

كان يمقت ذلك . ويمقت أن يتفوق عليه الآخرون . اللّيلة خسر الشوط لم يكن يطيق تلك الخيبة . كانت له عدّة خيبات في حياته ولكّن الليلة فاضت الكأس بما فيها .

مرت الأيام وهو يحاول الانفساخ عن هذا الشعور بالخيبة فيتفانى في عمله ويتصفح الكتب، ويخرج الى الشارع مرارا يريد أن يجد ما يلهيه فلا يرى سوى القنوط يذبل الوجوه فيعود ليرى الخيبة متجسمة في أحمد انه هو الذي يحسب لكل شيء حسابا وهو لا يستطيع ان يكون كذلك ، ثم انه لا يستطيع ان يلعب مع منافس كأحمد إذ ليس لهما نفس المقياس للأشياء أحمد عملي الى أقصى حـد ، وهو إنسان يعيش حلما دائما لا مناص منه .

خطرت له فكرة :

ليطلب من مجيد أن يأتي ويلعبا هما الاثنان فقط . أحس بجدوى هذه الفكرة خاصة أن اللّعبة الممتازة تكون أكثر نجاعة لو اقتصرت على اثنين . تذكّر عندما كان يذهب الى مقهى الديوان العتيق وهو ما زال صغير السن ويرقب بشراهة لعب بعض المشهورين وكثيرا ما كانت المائدة تضم لاعبين فقط .

حقا انها لفكرة رائعة ! ثم انه يرتاح الى مجيد أكثر من الآخرين ، تمركزت الفكرة وانطلق مسرعا يريد اعلام مجيد .

أصبح يلتقي كل ليلة مع مجيد حول المائدة ، ويلعبان وحدهما كان مجيد يأنس له وكان يروق له ان يتحدث معه عن مغامرات في الرتلّ الأخضر وتحكّمه في الوقت لا لشيء سوى مقابلتها والأمل في التحدث اليها وضبط موعد معها .

كان الليل يتقدم بهما وهما منكبان يلعبان ويتبادلان الحديث ولم يخسرا ولو مرّة .

أخيـرا أحس بالراحـة وأعجب بهذا الرفيق اللاعب الذي لم يعكـر صفو لياليه .

ثم أتت ليلة خسر فيها الشوط . حاول قصـارى جهده ان يكسب اللّعبة ولكنّه خسر واغتاظ ، وحرص ان لا يظهر سخطه وغضبه . ثم فكر في ارجاء اللعب الى وقت آخر .

مرت بضع أيّام لم يدع فيها مجيد للّعب معه وعاد يسهر وحده بين كتبه . ثم صادف ان اشترى عدّة مرايا وضعها وراء المائدة وفكر في اللعب مع صورته التي تعكسهـا المرايـا ، فيفسد اللعبـة ويتحكم في الانتصار ، وجعـل يوزّع الأوراق . كانت الليلة مقمرة وازعجه نباح الكلاب يتجاوب من الحدائق المجاورة شرع يلعب مع نفسه كانت صورته موزعة وسط المرايا تحيط به وتنظر اليـه بأعينه المتعددة .

أحسّ بغرابة الوضع ولكنه واصل توزيع الأوراق بينما تفاقم في الخارج نباح الكلاب فأصبح كالعويل ، أحسّ باللعبة تنحصر عليـه ، وبصورتـه المتعددة تتضخمّ ، تتضخمّ ، ثم أحسّ باختناق وهو يخسر اللعبة .

وقف يتأمل صورته المتضاعفة في المرايا تحيط به من كل جانب ، وفجأة رمى بالمنفضة أمامه ، فتهشمت المرايا اللامعة ، وتهشمت صورته المتعددة بينما تصدعت أذناه بوقع البلور على الأرض .

نبح كلب أوّل ، تلاه كلب ثان ثم ثالث ، وتبدد السكون في جميع الأرجاء .

زمن الكلاب

أبو بكر العيادي

« قتلته ! »

دوت الصرخة في ارجاء القرية الهاجدة فاصطفقت ابواب وارتجفت نوافذ ، وسرعان ما سرى في الجمع المتوافد من كل الجهات همس نما وتضخم ، فضجت في النفوس الحيرة وارتسم على الوجوه الذهول ، وانهالت الأسئلة على الرؤوس كالضربات الموجعة .

حين هب اليه الرجال كان ملقى في حديقة المنزل وسط بركة متخثرة من الدم . لم يميز أحد رأسه من رجليه . كان مجرد قطع مخذعة اختلط فيها اللحم بالعظام . دهمهم احساس صفيق وفاجع ، واشتفت بعض العيون بحزن شفيف تبين من خلفه أشياء لا تبوح بسرها قبل أوان النضج بينما انحبست في عيون أخرى غيوم توشك ان تنهمر .

« قتلته ! »

كانت تمسك المدية المضرجة بدماء داكنة بيد ثابتة وسط الرجال والنساء والأطفال ، وعلى وجهها الارهاق ، والوسن يطرز عينيها بالحرقة والذبول وكانت رغم ذلك منتصبة الجذع تسير مرفوعة الرأس ، لا ريث ولا عجل ، وتحرك يديها ورأسها في التفاتاتها الحذرة بدقة وحسبان .

كان زين شباب القرية ، وكانت اشد عذوبة من النهار الطالع على هذه القرية التي يعزف فلاحوها بفؤوسهم على أديم الأرض المرصعة بالخضرة والماء والطيور وأغنيات الصباح الصداحة .

حين يعود من الحقل عند احمرار الشفق وهو يحمل الفاس على كتفه ويصدح بأغنية حب جميلة ، تلك الأغنية القروية التي تتردد في الأعراس وتتغنى بالوفاء حتى الموت ، يجدها في انتظاره تحت السدرة الكبيرة فيضطجع على الأعشاب الندية العطرة ، يرنو الى فروع السدرة المنتشرة وأوراقها الوفيرة ، وتتركز عيناها عليه بنظرة طافحة بالأمل فتبتسم له بحنو ، ويبتسم لها وتتشابك

النظرات ، فتود ان تفصح عما يضج بداخلها ، ولكنها تكتفي بالصمت ، فالصمت هو وحده الذي يمكن أن يعبر عمّا يجيش حقا في القلوب .

كانت تهيء نفسها في كل يوم تلقاه لسيل من الحديث لا ينتهي ترتبه وتصطفيه وتعد ما يكون ردا عن أسئلة محتملة ، ولكن عند اللقاء يضيع كل شيء فتجلس حذوه ، وتترك يدها تنام في دفء يديه ، فيسري فيها ذلك الشعور *الرقيق الذي يملأ اعماقه* .

حين يكلمها بصوته الرجولي الهادئ تنشغل عنه بالنظر إلى عينيه الكستنائيتين وشاربه الكث ، وتتابع حركات شفتيه ، فترتجف اصابعها وهي تمتد لتمسح عن جبينه حبات تراب .

قالت له يوما : « جسدي ... » وهي توشك ان تبوح بأنه معطل عن تنفس رغبات الحياة ، ولكن الحياء منعها فأضافت : « .. مرهق »

كانت تساعد أباها العجوز في الحقل وأمها في ترتيب البيت واعداد الأكل ، ولم تنقطع عن الحقل الا حين برزت مفاتنها كثمار الخريف الشهية ، وبان جبينها العريض وشعرها الأسود الفاحم المشدود خلف رأسها كذيل فرس مكتنز .

قال لها : « أنا فداك يا ريم » وهو يعلم ان الأفق مسيج بالسراب منذ أن خطرت ببال شيخ القرية الجديد طريقة أخرى لحماية القرية .

قال : « إن قريتنا مطمع الحساد ومبتغى الكائدين وحمايتها من طرف الرجال غير مأمونة العاقبة ، فقد يغفو الرجال وقد يتعتعهم السكر وقد يستهويهم الميسر وقد يطير الهوى بلبهم وقد .. وقد .. فهل نربط مصائرنا بهذه الاحتمالات ؟ »

وانساقت القرية خلفه كالهوام الماضية الى زرائبها . والحقيقة أنها لم تكن تملك غير ذلك في هذا الزمن الموبوء . ومع انبلاج الفجر اطل الشيخ على سكان القرية الذين ما زالوا يتلمسون الصحو في هذا الفضاء المصطخب بايقاعات تشي بالغموض ، فإذا كلاب ستة بين يديه . كانت من ذلك النوع الذئبي ، ذات جثث ضخمة وعيون حادة وأنياب قاطعة . ولم تفق القرية الا والشيخ ينغل في قلبها كالديدان ، فتتوالى الطلبات كشلالات المياه المنهمرة لرعاية الكلاب الحارسة .

كانت كلابا مستوردة من البلاد الأجنبية لا ترضى ـ والعهدة على الشيخ ـ الا بالأكل الفاخر والغذاء الدسم والمكان اللائق ، وكلما انهالت العطايا على الشيخ توثبت غريزته للمزيد ، وصار يشترط أموالا اضافية لعرض الكلاب بصورة منتظمة على بياطرة ـ أجانب هم أيضا ـ لمراقبة صحتها وتقديم العلاج المناسب لها وارسالها الى خارج البلاد إن اقتضى الأمر .

حين التحقت به في ظهيرة يوم آخر جلسا تحت شجرة تين وارفة يطعمان ما حضر . ظل صامتا . أما هي فقد كانت تبتسم له وعيناها تشرقان بالوجع . عندما همت بالانصراف قال لها :

ـ لم يبق لي غير البقرة .

في طريق العودة كانت تفكر في هذه الكلاب المدللة. لا يكاد يمر يوم دون أن يفرض الشيخ على اهل القرية دفع اموال اخرى « من اجل صحة الكلاب وأمننا » كما يقول . ولا تجد القرية مناصا من تلبية دواعيه حفاظا على أمنها وسلامتها .

فكرت ريم « ولكن هذا كثير ، فوق طاقتنا . لقد ذهبت الكلاب بكل مدخراتنا . لم يبق لبشير ما يكفي لزواجنا » . عندما تذكر الزواج تشتعل في داخلها حرائق لاهبة ويصطخب طرق عنيف وأشياء لذيذة تقربها من بشير . ولكن الكلاب تعود ثانية فتلعنها في سرها وتلعن الشيخ وتتمنى لهما الفناء . تتوقف قليلا تمسح بنظراتها القرية الجاثمة فوق الهضبة « اهل القرية اولى باللعنة »

تابعتها العيون المستكينة وهي ماضية دون وجه حقيقي . كانت عيناها في اتجاه الافق المصطبغ بلون الدم وقد بانت عن بعد هامات الأشجار كهياكل ألصقت على ورق صقيل تتماوج على صفحته الألوان والظلال .

كانت القرية بين اليقظة والغيبوبة ، تنوء تحت لحظة نادرة من الاحساس بالألم والفرح المكتوم ، بالفجيعة واللذة المكبوتة ، وتلملم المزق المتناثرة كي لا تضيع في غبشة ليل جديد وفجر لا يجيء .

كان زين شباب القرية .

عاودتها ذكراه فغامت عيناها خلف ضباب الدمع وبدأ الارهاق يهبط على كتفيها ثقيلا كالليل ، وتوغل في نفسها المرارة .

في تلك الليلة الضاربة في السواد والآمال المتصدعة اهتزت القرية ومزق الصمت هدير اصوات غريبة اختلط فيها العواء بالثغاء والخوار ، وعلا صوت صدى مرعب يملأ مسام الطبيعة ، فانفجرت صرخات الأطفال وولولة النسوة ، وتعالى صياح الرجال .

كانت لحظات كالدهر . نزلت على القرية كالريح العاتية ، كخرافة طالعة من عمق التاريخ ، ثم عاد الصمت وقد تضخم في الآذان المتفتحة لكل همس مريب ، حتى لدبيب النمل أو هسهسة الخشاش . وباتت القرية متيقظة ترقب خطرا لا تعرف مأتاه ، وتتوجس أن يدهمها الموت في أية لحظة . ليلتها ، كان الخوف قد قذف بالنوم من الرؤوس .

وفي فجر يوم خريفي أطل الرجال وقد سورت عيونهم هالات سود صغيرة ومضوا الى زرائب الأنعام ومخازن المونة تلفحهم نسمة صباحية باردة فاذا بالمأساة ترتطم بوجوههم مدوية مصدّعة فيكون وقعها أشد فتكا وهولا من هذا الزحف المدمر ، هذا العدو المجهول ، هذا الخطر الداهم الذي أتى فجأة على كل ما أسسه عرق السنين . امتدت الفاجعة عميقا الى تلك العين السادرة الغارقة في التيه والذهول .

حين أدركته كان جاثيا يلثم وجه بقرته التي فاضت أحشاؤها ومزقت قوائمها وبانت ضلوعها وتجمدت نظرتها تحت غشاء رمادي رقيق . التحمت به تمسك بيديها كتفيه العريضتين . التفت اليها في حركة بطيئة فامتدت اصابعها لتمسح دمعة ترقرقت في احدى عينيه .

ونظر اليها ببصر زائغ وفاضت عيناه باشياء لم يقلها . ثم نهض ومضى الى ساحة القرية وسط الاجساد المتدافعة وهدير الأصوات والولولة والصراخ .

حين ادرك الجمع كان الشيخ يجتاز مختالا عتبة بيته مرفوقا بكلابه الستة . ربت على احدها ومر بيده على شعر كلب آخر . نظر اليهم نظرة من فوجيء بهذا الحشد الملتئم أمام بيته الواقف في قلب القرية بطوابقه الثلاثة يزدري بالبيوت الوطيئة .

قال : « كأني سمعت جلبة وصراخا . ما الأمر ؟ »

فسرت همهمة سرعان ما انطفأت وساد الصمت من جديد . كانت العيون تدور في محاجرها والشفاه تكظم كلاما يـروم الانفلات . حـدثه أحـدهم عن الهجوم الليلي المباغت ، وعن الزرائب التي لم يبق فيها غير جثث ممزقة وأشلاء لحم .

فقال :

ـ الحمد لله أن الكلاب ، كلابنا ، لم تصب بسوء .

رد عليه رجل ثان :

ـ ولكن أرزاقنا قطعت !

فأجاب :

ـ المهم أنكم بخير .

واستدار عائدا يداعب أحد كلابه .

عندئذ ندت صرخة :

ـ لمن تربي الكلاب إذن يا ابن الكلب ؟

كان بشير واقفا يتحدى الشيخ وسط الجمع الذي بدأ يتململ ويبدي نوعا من التعاطف المكتوم مع هذا الشاب الأسمر الذي تشع عيناه ببريق حاد واصرار قوي .

حدجه الشيخ بلحاظ كاوية ولم يقل شيئا .

ومن الغد وجد في حديقة منزله ممزقا تمزيقا كأنما وطئته اظلاف قوية أو نهشته انياب مسعودة .

« قتلته ! » .

كانت تصر أسنانها في حنق كأنها تعض حبة لوز عنيدة . حين وقعت عيناها على ذلك المشهد المريع في صبيحة ذلك اليوم الغائم جفلت كحمامة يفجؤها نسر جارح وارتدت تلطم وجهها وتندب خديها :

ـ لا : لا ! هذا ليس بشيرا . إنه شخص آخر . شخص آخـر . بشير لم يمت . بشير لا يموت . سنتزوج . لقد وعدني بذلك .

وفجأة أشع في عينيها وميض غريب واستدارت متجهة الى البيت . بحثت عن اي شيء حاد . عثرت على المدية التي يذبح بها ابوها الدجاج والأرانب. وتسللت لتباغت باليقين والاصرار دون تردد أو خذلان من اقتلع البسمة من شفتيها وحرمها من ضوء الشمس ودفق الحياة .

كان مستلقيا على كرسي طويل ينعم ببعض اشعة فاترة بعد أن اطعم الكلاب وقادها الى مربضها حين امتدت يدها بالمدية الى صدره مرارا لعل زمنا آخر ينمو ويعشوشب .

ومضت تاركة القرية خلفها بين غيبوبة اليمة وصحوة مترددة حتى غابت عن الانظار .

تونس 86.6.15

من نشاط النوادي

نشطت نوادي الاتحاد خلال الموسم الثقافي 87 ـ 88 فيما بين أكتوبر وجوان حسب التوزيع التالي :

الإثنين : **نادي النص المسرحي**
الثلاثاء : **نادي كتب وقضايا**
الاربعاء : **المنتدى القصصي**
الجمعة : **نادي الشعر**

وقد تناولت في جلساتها الموضوعات التي برمجت دراستها خلال السنة ، الا أنه كان لجميعها ـ كل في دائرة اختصاصه ـ شرف الاشتراك في أسبوع مساندة الانتفاضة الفلسطينية داخل الأراضي المحتلة ، الذي قرره الاتحاد ، فكان أول مساندة في البلاد العربية على جميع المستويات . وشارك في هذه الجلسات بالداخلة أدباء وكتاب وشعراء فلسطينيون جاء بعضهم من الأراضي المحتلة .

وفيما يلي ملامح من أنشطة النوادي .

نادي النص المسرحي

بعد أن تناول رواد النادي خلال الموسم الثقافي 86 ـ 1987 بالدرس بعض إشكاليات النص المسرحي في حلقات أسبوعية شارك فيها الأساتذة توفيق عاشور مدير ادارة المسرح ، ابراهيم ساسي مخرج ، الحبيب شبيل مخرج ، العربي السنوسي كاتب وصحافي ، ابراهيم الغربي أستاذ الآداب الكلاسيكية بكلية الآداب (قسم الفرنسية) أسامة الخولي أستاذ بالمعهد الأعلى للفنون الدرامية ، رضوان الكوني كاتب ، فائز الداية أستاذ بجامعة (حمص ـ سوريا)

وكان من بين الموضوعات :

ـ أدبية النص المسرحي
ـ مدى امكانية اعتماد المخرج على النص

- الكتابة الجماعية انطلاقا من الارتجال الركحي
- هل النص عنصر متميز في العرض المسرحي ؟
- المسرح اليوناني (نص حاملات القرابين لايسخيلوس)
- المسرح الملحمي
- رواد المسرح التونسي
- المسرح السوري

وفي الموسم الثقافي 87- 1988 عهد الاتحاد بتنشيط جلسات النادي الى الأستاذ نورالدين المطماطي المنشط المسرحي بالمعهد الثانوي بباب الجديد والمعهد الثانوي للفتيات بنهج روسيا ، وقد سير جملة منها . حضر هذه الجلسات أصحاب تجربة في الانتاج كتابة وإخراجا وتمثيلا . وشارك من قدماء الممثلين في المعهدين شبان وشابات هم اليوم من ذوي المسؤولية في الحياة الاجتماعية .

اعتمدت الجلسات في مناقشاتها نماذج من الارتجال في النص والتمثيل ، بمثل ما اعتمدت عملا مسرحيا مدرسيا وقع توثيقه سينمائيا قام به تلامذة المعهدين وتجلّى من خلال المناقشة التي شارك في احدى جلساتها أستاذان من المعهد العالي للفن المسرحي . هما وحيد السعفي وأبوبكر خلوج

- تعلق أصحاب التجربة بتجربتهم وايمانهم بنجاحها
- اعتماد العمل الجماعي في المسرح المدرسي كتابة واخراجا
- اقرارهم بأن ما ينتهي اليه العمل المسرحي في تجربته ان لم يكون مسرحية بالمعنى الكلاسيكي ، فإنه لا محالة يكون لوحات مسرحية .
- يعللون اجتناب التعامل مع نصوص الكتاب بأنها نصوص لا يعرف أصحابها قواعد الكتابة المسرحية حينا ، او هي نصوص يغلب عليها العنصر الأدبي ، أو أنها نصوص أهمل فيها اصحابها مشاغل التلاميذ في المرحلة الثانوية ، فأضحت غريبة ، وهو ما يعرض عملية غرسها في نفوسهم الى الفشل لأنهم لا ينفعلون بها . وذلك ما نلاحظه في نفور البعض منها ، وفتور البعض الآخر خلال حصص التدريب ، وغياب آخرين .
- أما الكتاب فقد ناهضوا هذا الاتجاه ، لأنهم يعتبرون النص المسرحي أساسا في العمل المسرحي مهما كان نجاح الابداع الجسدي ، ومهما كان أثر الاضاءة والمتممات الركحية ، والديكور والاحتفالية ، والمؤثرات الصوتية والجمالية ، وكل عناصر الفرجة في انجاح العرض ، ويعتبرون الكتابة المسرحية من خصائص الكتاب .

واتفق لنادي النص المسرحي أن افتتح أسبوع مساندة الانتفاضة الفلسطينية في الأرض المحتلة الذي قرره الاتحاد ، فقدم الأستاذ وجيه قاسم من فلسطين مداخلة تحدث فيها عن دواعي الصراع منذ القديم . من أجل

السيطرة على فلسطين ، واستنتج ان الصهيونية ليست الا واحدة من حلقاته .
ثم قدم الأستاذ مصطفى الفاربي مداخلة بعنوان « معين بسيسو في المسرح الفلسطيني »

وحضر جلسات النادي وفد مس كتاب المسرح السوفيات ، قدموا تونس في نطاق تبادل الوفود بين الاتحادين وهم : اوليق سوسين ، جمعة أخوب ، إدوارد بوبروف ،والمترجمة أولقا دمكينا

وعندما يصل هذا العدد قراءه يكون النادي قد بدأ يناقش موضوع هذه السنة 88 ـ 1989 ومحوره : مسرح الطفل .

منتدى القصاصين

عهد الاتحاد بتنشيط المنتدى القصصي الى القاص يوسف عبد العاطى ، فحاول تنويع برامجه وكانت كما يلي :

- قراءات قصصية
- تقديم إصدارات قصصية حديثة
- مناقشة مداخلات تنظيرية حول القصة وتقنياتها .
- التعريف بالرسائل الجامعية التي اهتمت بالقصة في تونس

قرأ من القصاصين في جلسات النادي :

عبد القادر بلحاج نصر . قصة البحث عن الوقت الضائع تقديم خيرالدين الصوابني

حسونة المصباحي : قصة الوحش والطائر تقديم مصباح بوحبيل

مصطفى المدايني : القوقعة

حسن بن عثمان : أكثر من هذا بكثير تقديم مصباح بوحبيل

خديجة الجويني : حتى لا يفر الحلم تقديم جلول عزونة

عمر بن سالم : نافذة على الميدان تقديم أحمد ممو

مصطفى الكيلاني : أعوام الجراد والمخاض تقديم رضوان الكوني

شريفة العرباوي :هوس الأيام العشرة

أحمد ممو : مريم الحبلى دائما

ريم العيساوي : القبلة

كمال العيادي : شظايا تقديم مصطفى الشريف

وفي نطاق تقديم الاصدارات الجديدة خصصت جلسة لمناقشة

وغدا تشرق شمس الحرية للكاتبة حياة بن الشيخ . تقديم ريم العيساوي

مجموعة نساء للكاتب رضا الكافي . تقديم حسن بن عثمان

وخلال الموسم نوقشت مداخلة واحدة بعنوان : القصة التونسية في الثمانينات ـ الواقع والآفاق أعدها الكاتب أبوبكر العيادي ، ووقع التعريف

برسالة جامعية واحدة اهتمت بالقصة في تونس عنوانها اشكالية الرواية التونسية من النشأة الى سنة 1985 ، وقد قام بتقديمها الكاتب أبو بكر العيادي .

وفي بعض جلسات النادي ، كان للرواد لقاء مع المستعرب السوفياتي شاغال » فتحدث عما ترجم من قصص شمال افريقيا الى اللغة الروسية ، ولقاء مع الكاتب الجزائري الطاهر وطار حول تجربته القصصية .

نادي الشعر

تولى تنشيط النادي كل من الشاعرين سوف عبيد وعبد الله مالك القاسمي ، وحرصا على تنويع موضوعاته ، حسب برنامج شارك رواده في اعداده ، عالج مسائل تعنى بالكتابة الشعرية ابداعا ونقدا وتنظيرا . من ذلك :

- تنظيم حصص للقراءة شارك فيها القراء من مختلف الأجيال ، وكثيرا ما تشفع هذه القراءات المفتوحة بمتابعات نقدية مكتوبة أحيانا ومرتجلة أخرى .

- لقاءات مع بعض الشعراء من بينهم الهادي نعمان في حفل تكريم أقامه الاتحاد على شرفه بمناسبة طبع ديوانه : ولقاءات مع الميداني بن صالح . البشير المشرقي . محمد الصغير اولاد أحمد بمناسبة اصداره أول مجموعة شعرية بعنوان : نشيد الايام الستة

ومحجوب العياري بمناسبة صدور مجموعته الشعرية تداعيات ومحمد العروسي المطوي بمناسبة اصدار مجموعته الشعرية : من الدهليز .

- متابعات : اهتم نادي الشعر بمتابعة التظاهرات التي يشارك فيها رواده داخل الجمهورية وخارجها فخصص

- جلسة حول « ندوة الشعر » التي انعقدت بطرابلس خلال الأسبوع الثقافي التونسي في الجماهيرية

تابع نشاط المركز الثقافي لمدينة تونس الذي خصص موسمه السابق لقضايا الشعر التونسي من خلال لقاءاته مع بعض الشعراء التونسيين .

- اشتراك النادي في اسبوع مساندة الانتفاضة الفلسطينية بأمسية شعرية كبرى شارك فيها شعراء من تونس وفلسطين .

- احياء ذكرى شاعرين هما :

أحمد اللغماني من تونس

أمل دنقل من مصر

ولكن بعض برامج نادي الشعر لم تتحقق لأسباب مختلفة ، من بينها لقاء حول الشعر التونسي المكتوب بالفرنسية ، وقد عوضت بقراءات شعرية .

والعزم معقود على تداركها في الموسم المقبل .

من الإصدارات الجديدة

عرض وتعريف

من الإصـدارات الجديـدة الواصلة الى مكتبة « المسـار » نقدم لقـرائنا العناوين التالية :

1) النظرية اللسانية والشعرية

أصدرت الدار التونسية للنشر في مطلع هذه السنة عدّة عناوين منها كتاب النظرية اللسانية والشعرية في التراث العربي من خلال النصوص » في 284 صفحة من حجم 15,5 × 24 متضمنا محاولة تأسيس لهذه النظرية قام بها الأساتذة : عبد القادر المهيري وحمادي صمود وعبد السلام المسدي معتمدين على مقتطفات من النصوص التراثية لعدد من اعلام اللغة في الحضارة العربية وقد أثبت المؤلفون 132 نصا رتبت حسب ابوابها الأربعة
الباب الأول : حد اللغة . الباب الثـاني : بنية الكـلام . الباب الثـالث : الدلالة . الباب الرابع : أدبية الكلام

2) تلاقي الأطراف

عن دار التنوير للطباعة والنشر صدر كتاب بعنوان : « تلاقي الأطراف » وهي قـراءة في نماذج من أدب المغـرب العربي الكبـير (المغرب ، تـونس ، الجـزائر) ، لـمؤلفه الدكتـور عبـد العـزيـز المقـالح في 288 صفحـة حجم 18,5 × 23,5 وقد ضمنه ثلاثة فصول هي :
المغرب : بداية التساؤلات الجريئة .
الجزائر : عودة الابداع الى احضان اللغة الأم .

تونس : ومحاولات تأصيل الحداثة
لعل في هذا الكتاب الكثير مما يستحق الوقوف وحتى المراجعة ،، ذلك ان صاحبه بحكم ابتعاده جغرافيا لم يكن بعيدا فكريا ،، الا ان توفر المادة الكافية لاصدار الحكم هي التي اعوزته ،، وتبقى مبادرة نباركها آملين ان يقوم بها في شكل أشمل وأعم أصحاب الاختصاص من أبناء المنطقة لتنير السبيل الى اخوتنا في المشرق العربي بهدف الوصول الى حقيقة هذا الابداع الأدبي في المغرب العربي .

3) دراسات في الشعرية

عن المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات (بيت الحكمة) صدر كتاب حري بالقراءة والتأمل بعنوان : دراسات في الشعرية ـ الشابي نموذجا . لمجموعة من الأساتذة في 400 صفحة حجم 24 × 15 متضمنا خمسة بحوث جاءت على التوالي :
- الأشواق التائهة : مدخل الى شاعرية الشابي : حمادي صمود
- لحظة المكاشفة الشعرية عند الشابي : محمد لطفي اليوسفي
- الشعر في كتابات الشابي النثرية = محمد قوبعة .
- الخط والدائرة : الأسطوري في أغاني الحياة : هشام الريفي
- شعرية الكلمات وشعرية الأشياء في ديوان اغاني الحياة من خلال صلوت في هيكل الحب (دراسة دلالية) : عبد الله صوله .

ومِمَّا جاء في التمهيد الذي صدر به الكتاب : وصح العزم من الجماعة على ان تنجز فصولا تساهم بها في التعريف بنظريات الشعر عند العرب وعند غير العرب ... فصولا يتصل فيها الحديث بالقديم وتعرض فيها خلاصة الطارف والتليد عرضا أمينا ما استطاعت الى ذلك سبيلا فلا تثني على الأول لجدته ولا تبخس الثاني لقدمه الخ ....

4) وعد الاخرس والعلاقات المتوترة

القاص التونسي محمد الهادي بن صالح فاز بنصيب الأسد من اصدارات مطلع هذه السنة حيث اصدرت له الدار التونسية للنشر روايتين هما
- سفر النقلة والتصور .
- الناس والحجارة .

كما اصدرت الدار العربية للكتاب لنفس الكاتب مجموعة قصصية بعنوان وعد الاخرس والعلاقات المتوترة وجاءت هذه المجموعة في 92 صفحة من حجم

20,5 × 13 وقد تضمنت 16 قصة قصيرة هي كل ما بقي لدى الكاتب من هذا النوع من الكتابة والذي يقول أن اهتمامه قد انصب اخيرا على الكتابة الروائية .

5) احلام بحار متعب

« منشورات قصص » اصدرت كتـابها رقم 8 وجـاء هذه المـرّة في شكل مجموعة قصص لكاتبها ابراهيم الأسود ، احتوت 15 قصة وتقـديما اعـده القـاص رضوان الكـوني ، اما عـدد صفحات الكتـاب فهي 112 من حجم 13 × 21 .

من خلال هذه القصص يستطيع المتأمل الوصول الى حقيقتين على الأقل **الأولى**: ان الكاتب صلب قوي لم تستطع الاحباطات والمشاكل بشتى انواعها ان تفل فيه ،، وهو من كل هزيمة يصنع اسلحة في محاولة انتصار جديد ،، وكما يلوح من مجتمع قصصه ان المتسبب في المآسي غيرهم وهم الذين يحصدون النتائج ولكنهم مع ذلك غير مستسلمين .

الثانية : ان الكاتب ممسك بزمام لغته قادر على توظيفهـا فنيًا الى درجـة التصوير الشعري في عديد المواقع ،، ورغم انها المجموعة القصصيـة الأولى لكاتبها الا انها في حجم تجربة ذات جذور عميقة .

يقول رضوان الكوني عن هذه المجموعة : ان ما يمكن ان يلاحظ في هذه القصص هو « إرادة التحويل » الطاغية في الكتاب بصوت مجلجل عال الى حد البحة والسقوط في الصمت المدمر والصراخ المكتوم . نلحظ في معظم القصص هذه الدعوة الى التغيير ،،! وهذه النيّة في التبديل . هنالك حياة الشدّة والفقر يراد لها ان تتحول الى رخاء ويسر ... وهنالك حالة البراءة والسذاجة يتمنى لها ان تتطور الى دهاء وخبث حتى يعتـد لهذه الحيـاة الباذخـة المرجـوة بعتاد مناسب ،، وهناك الليل المخيم المتواصل الذي يرجى له التحـول الى نهار ،، والظلام الى نور ،، والعبودية الى حريّة . هناك امل في الانعتاق والتحرر . ولكن كل هذه الآمال وتلك الأماني تصطدم بعائق المستحيل ... وغير الممكن ،، ويقف امامها جدار الامكانات المفقودة ... فتكون الخمر والاحلام تعويضا لحرمان طويل ،، ومشروعا يصنع فيه الآتي الجميل ،، ويعـاد تشكيل الحـاضر للفوز بمستقبل ينسى متاعب الراهن ... الحالي ...

6) شعراء البحرين المعاصرون

لا احد أحق من الشاعر بدراسة الشعر ،، فهو الذي يعيش معاناته ويدرك عمق جراحه ويعرض قوة حرارة النار التي يكتوي بها الشاعر ،، وما عدا ذلك

فمتفرجون واصفون او مخبريون في كيمياء الكلمات ،، او في أقصى الحالات مختصون في استئصال وزراعـة الاعضاء ،، الشـاعر وحـده هو الذي يملك أدوات خلق العالم الشعري وهو القادر على تقصي مكنونـاته وادراك حـالاته المتناقضة وما تتضمنه من وحدة تقود الى مكامن الالام وأيضا الى مخـابيء الروح في جسد ذلك العالم .

الشاعر البحراني علوي الهاشمي يكاد يكون مختصا في دراسة الحـركة الشعرية بالبحرين ،، فقد انجز بحوثا جامعية آخرها دكتوراه دولة من الجامعة التونسية حصل عليها بملاحظة مشرف جدًّا بالإضافة إلى رسالة مـاجستير بعنوان « ما قالته النخلة للبحر » حول الشعر المعاصر في البحرين علما بأنه اصـدر أيضـا مجمـوعتـين شعـريتـين بعنـوان : من أين يجيء الحـزن ؟ و« العصافير وظل الشجرة » وكلتاهما طبعت مرتين . وقد تـركزت اطروحـة الدكتوراه على « تجربة الشعر المعاصر في البحـرين وهي دراسة في الأسلوب والبنية وتقع في ثلاثة اجزاء يختص كل منها بدراسة :

أ ـ بنية الايقاع (الاطار والتكوين)
ب ـ بنية اللغة (التركيب والتخييل) .
ج ـ بنية المضمون (التفكير والعاطفة) .

علما بأنه يعد مخطوطات للطبع منها :

1 ـ محطات للتعب : شعر .
2 ـ قراءة نقدية : قصيدة حياة .
3 ـ تجربة الشعر المعاصر في البحرين في ضوء اشكاليات الواقع .

واصدر اخيرا كتابا ضخما فريدا من نوعـه واهتمامـاته بعنـوان شعراء البحرين المعاصرون : كشاف تحليلي مصور يضم شعراء الفترة من 1925 الى 1985 .

لعل أهم ناحية في هذا الكتاب اعتبارا لتصاعدية عمل علوي الهاشمي هو الجانب التوثيقي المصور ،، وهو ما لا يتوفر بالسهولة لأي دارس لكن الهاشمي تمكن من تجاوز هذه الصعوبة ووثق بالصورة لهم جميعا بالإضافة الى التوثيق كتابه .

وإذا أردنا مزيدا من الطرافة في هذا العمل فاننا سنصادف وثائق مصورة حول نشاط اسرة الأدباء بالبحرين وبعض الأمسيات الشعريـة والمناسبـات المتصلة بالشعر . غلاف الكتاب يضم جميع صور الشعراء واسمائهم وهم لا يتجاوزون حسب القائمة 25 شاعرا .

يتكون الكتاب من قسمين كبيرين :

1) كشاف الشعر .
2) ذاكرة الكشاف .

ويتكون القسم الأول من : دليل الشعراء ، ترجمة الشاعر ، جدول البنية الايقاعية ، نماذج شعرية ، خلاصة الكشاف ، ويمتد على مساحة ورقية تقدر بـ 227 صفحة من الحجيم الكبير . أما القسم الثاني فيتكون من : جداول احصائية عامة ـ مدونة الشعر ـ مدونة النقد والتراجم ـ الذاكرة المصورة في 205 صفحات من نفس الحجم اضافة الى الاهداء والتقديم .

وقد خص كلّ شاعر بمسح تاريخي لتطورات حياته ونماذج من شعره مشفوعة برؤية نقدية عميقة لمنحنيات ابداعه وبنياته اللغوية والفنية مرفقا بجدول لبنيته الايقاعية يضم : البحر ـ عدد القصائد ـ عدد الأبيات ـ القافية ـ المجرى .

هذه مصافحة اولى لهذا العمل المنهجي الكبير نحيي من خلالها صاحبه الذي سخر شبابه كله لدراسة شعر البحرين والمساهمة في تطوره تقنيا ولغة متمنين ان نرى عملا مماثلا يضم شعراء كل قطر عربي حتى يمكننا الاطلاع الوافي على تجاربنا الشعرية من الخليج الى المحيط وليس ذلك بعزيز اذا توفرت النوايا الصادقة والعزائم التي لا تفتر وقبل ذلك اقصاء نوايا الالغاء وانتهاج توظيف العمل الى مصالح آنية زائلة مثلما وقع مرارا هنا أو هناك .

في البناء الثقافي

محمد الحبيب حمادي

مجرد التفكير في ميثاق وطني - بله إرادة تحقيقه - دلالة على مدى الأزمة التي بلغها بلد ما شمولا وعمقا . أما أن يوكل أمر تشخيصها ، والنظر في طرق معالجتها إلى أولي الرأي ، وذوي الاختصاص ، والتنظيمات السياسية ، انطلاقا من ملامح مجتمع ناهض متطور مؤسس على الاجتهاد والابداع ، يقوم على سياسة تربوية وثقافية واضحة ، فذلك موقف حضاري « ينـاهض فكرة تمجيد الفرد ، وثورة الأهواء السياسية ، ويؤكد أن السلطة ليست عمل انسان فرد ، ولا هي نتاج قوته أو غروره »[1]

فكيف نتصور معالم سياسة ثقافية لملامح المجتمع المنشود ؟

لعل أول ما يستوجب التوضيح هو مفهوم الثقافة ، إذ في الوقت الذي بدأ مفهومها يتبلور لدى الدول المتقدمة لتتناول الانسان بكليته جسدا وروحا ، وعقلا ووجدانا في العلوم والفنون والآداب »[2] كان بعض مثقفينا يحول وجهتها صوب الترفيه حتى التهريج فالفوضى ، والتفاهة حتى الغثيان . بينما للثقافة في مختلف تعريفاتها أصول مشتركة ، نلاحظها في أهم تعريفين على الساحة الحضارية :

إذ يعتبر الاشتراكيون عملا ثقافيا كل ما ليس بذى استعمال شخصي ، ويدرجون تحت هذا الإسم - الى جانب الرسم مثلا - الألعاب الرياضية والبهلوانية .

ويعتبر الغربيون عملا ثقافيا كل ما ليس بذي استعمال شخصي ، على أن يكون ذا مستوى فكري ، كالشعر والموسيقى .وكانوا يسمونها الفنون النبيلة . أما غيرها كالتصوير الفوتغرافي والاذاعة فهي فنون شعبية أو نصف ثقافية ، وما عدا ذلك فألعاب، مثل الأنشطة الرياضية والشطرنج . لذلك اقترح بعضهم إطلاق كلمة « فكر » على الشعور الثقافي لجماعة من الجماعات ،[3] بعد أن اتفقوا على تحاشيها منذ سنة 1945 .

لقد كانت كلمة « فكر » التسمية الغالبة على ما هو اليوم ثقافة الى نهاية الحرب العالمية الثانية ، إذ اجتمع وزراء التربية في دول الحلفاء . وفرضوا بدلها كلمة ثقافة لعدة أسباب ، أهمها: ارتباط كلمة « فكر » خلال الثلاثينات والأربعينات بدلالات ايديولوجية« فاشية ونازية »

وإذ اختار هذا « الفكر » منذ القديم الا يتشكل ، الا ابداعا وجمالا في الفنون والآداب والعلوم ـ وما ينفك كذلك ـ كانت عناية السلف به واضحة عبر الزمان والمكان . لذا نلاحظ في الموروث الثقافي الإنساني قيام تصورات ثقافيةعلى قيم دينية خلال القرون التي سيطر فيها الفكر الديني . وبدءا من القرن الثالث عشر نلاحظ قيامها على قيم علمية ، ثم على قيم تقنية وتكنولوجية في هذا القرن .

وبدت الفنون والآداب :

أ) سجلا طريف الشكل والمحتوى للفكر والحضارة ، إذ رسمت بمختلف وسائلها الصراعات الهائلة العميقة ، والتحولات الجذريةفي الفكر والفن والسياسة والاجتماع .

ب) حقلا من حقول النشاط الإنساني ، ترسم فيه باللون والكلمة والحجر والحركة من نور المعرفة ما لم تقله الحياة ، وقد لا تقوله (مع شديد إيماننا بالعلم) ، فتلبي حاجتنا الفطرية الى تفسير الكون بالبداهة والحدس .

ج) وسيطا بين حاجيات الإنسان العاطفية والروحية والمادية وبين المعرفة الانسانية (التي تمعن في التجريد يوما بعد يوم) « بما تكشف بينهما من تناسب في التسلسل والأسلوب والعمل ، يعيد للانسان الثقة في قدرته على التعبير عن رأيه ، وفرض وجوده على سير الفكر والأشياء ، طالما أن منبع الكشف العلمي والابداع الفني واحد .

وإذ ازداد وعي الدول الغربية بالحاجة الى سياسة ثقافية ، طفقت تعمل على أربع جبهات : وطنية ، وإقليمية ، ودينية ودولية .

1) فعلى المستوى الوطني ، لقيت الثقافة عناية فائقة في كل من أروبا وأمريكا ، فبعثت أجهزة ثقافية ، ظلت تتطور حتى استقلت لدى البعض بوزارة ، من بينها فرنسا ، التي أحدثت وزارة الشؤون الثقافية في الجمهورية الخامسة ، وشرعت تبنى المؤسسات الثقافية في المدن لتنمية الثقافة بين الجماهير .

2) وعلى المستوى الأروبي ، تمثلت العناية بالثقافة في :

أ) اجتماع وزراء الثقافة لدول أروبا في مؤتمرين بهلسنكي سنة 1972 .

ب) إدراج المسألة الثقافية في جدول أعمال مؤتمر التعاون والأمن الأروبي ، كواحدة من أهم قضاياه في دورته لسنة 72 ـ 1973

ونستنتج من هذه العناية :

ـ دعم حماية الشخصية الوطنية من التشويه
ـ تجذير الثقافة في المجتمع حتى لا تقتصر على تعمير أوقات الفراغ
ـ اعتبار مجلس التعاون والأمن الأوروبي الثقافة عنصرا من عناصر أمن أوروبا كالطاقة والأغذية والتكنولوجيا وصناعة الأسلحة .
ـ اعتبار الثقافة إحدى وسائل التوسع الحضاري ، وذلك باكسابها ميزات تجعلها مطلوبة من لدن الشعوب بدلا من أن تسعى دولها إلى فرضها .

3) وعلى المستوى المسيحي ، لم تتخلف الكنيسة عن دورها في دعم الثقافة العصرية ، فكانت موضوعا هاما في جدول أعمال المجمع الفاتيكاني الثاني أيام البابا بولس السادس

4) أما على الصعيد العالمي ، فقد انبعثت منظمة اليونسكو سنة 1946 ، وفي أعماقها وممارساتها هذه المفاهيم . وجاء في البند 27 من الاعلان العام لحقوق الانسان سنة 1948 ما معناه : لكل شخص الحق في أن ينال نصيبه بحرية من الحياة الثقافية الجماعية ، وأن يتمتع بالفنون ، ويسهم في التقدم العلمي والحسنات الناتجة عنه . وجاء في اتفاقيتي « فيينا » لتنظيم العلاقات الديبلوماسية سنة 1961 ، وتنظيم العلاقات القنصلية سنة 1963، المبرمتين برعاية الأمم المتحدة ما أناط بعهدة الديبلوماسيين والقناصل تنمية العلاقات الثقافية بين الدول .

وأقبل الغرب على الثقافة يتعهدها بالمراجعة ـ أساليب ومحتوى وتمويلا ـ ويدعم اعتبارها حتى تشكلت لديه قوة ضاربة ، وتجلت طليعة القوى الثقافية العالمية منحصرة في سبع دول متفق عليها وثامنة مختلف فيها ، وقد حلت الثقافة في سياستها الخارجية قوة رابعة بعد السياسة والاقتصاد والعسكرية لدى بعض الدول مثل أمريكا ، وقوة ثالثة بعد السياسة والاقتصاد عند أخرى مثل ألمانيا . على أن الميزانية المعلنة للثقافة لا تمثل في الواقع كل ما يصرف عليها ، إذ لا تدرج فيها المبادرات الخاصة للمؤسسات المالية وغيرها ، ولا الميزانيات المحلية في الدول الفيديرالية .

واتفق لهذه الجهود أن تواكب تطورا في بعض وسائل الاتصال كالصحافة والاذاعة والسينما ، وظهور أخرى جديدة ، كالتلفزيون والكومبيوتر والفيديو . فتخلت الثقافة في دول القوى الثقافية عن أن تكون وسيلة اقناع ـ كالخطب والشعارات و « الدعاية الثقافية » (وهو أسلوب فاشي نازي) ـ إلى أن تكون وسيلة تنمية ووسيلة ارتباط ووسيلة توسع . ولذلك لم تر الثقافة لديهم في التكنولوجيا تناقضا بين رغبات الانسان ومقتضيات العلم ، لأنها لا تعدو ان تكون بعض ما اهتدى اليه الانسان من وسائل ـ بعد الشعر والفن والعلم ـ ليستبق ظهور انسان ينبغي أن يتجدد وأن يخلق باطراد .

وعلى المستوى العربي ، وقع أول اتفاق ثقافي عربي سنة 1945 بعد تكوين

الجامعة الـ ـبية بقليل[4]. ثم انعقدت بعده تسعة مؤتمرات ثقافية بين سنة 1947 و 1970 تخللها توقيع وزراء التربية ميثاق الوحدة الثقافية في مؤتمرهم الثاني سنة 1964 ، وتوجت هذه المؤتمرات بتكوين المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم سنة 1970 . ومنذ ذلك الحين شرعت المنظمة في الاجتماعات وتكوين اللجان ، إلى أن كان الاجتماع التأسيسي لتخطيط التعاون الدولي لتنمية الثقافة العربية الاسلامية سنة 1981 .

وفي خريف سنة 1985 تم الاتفاق على الخطة الشاملة للثقافة العربية في اربع مجلدات وملحق للمجلد الأول فيما نعلم . وما تزال هذه الخطة تنتظر تنفيذ جوهرها .

فعلى أي القيم نبني تصوراتنا الثقافية ، ونحن لم نتجاوز الفكر الديني والعقلي ؟ (مع كثير من التجوز) . أنبنى قيمنا الثقافية على التفكير العلمي والتقني ونحن لم نقم بأي خطوة جادة حاسمة في دروبهما ؟ (ندرك الفرق بين تفكير العالم والتفكير العلمي ومع ذلك فالعلاقة متينة) ، أم نرجيء دخول مجالاتهما ريثما نجتمع لننظر في قضية حياد العلم ازاء القانون والأخلاق والدين . إن ممارسة البحث العلمي لا حدود لها ، وهو ما يستوجب تحوير قانون ، او استبدال قيمة اخلاقية ، او استصدار فتاوى دينية في كل بحث يمس أحدها ، ذلك أمر لا ريب فيه طالما نجد من يزعم ان في البحوث اللغوية ما يمس بأحدها .

إن دنيا العلم لا تلتزم بالحدود[5]. فزراعة الأعضاء وحبوب منع الحمل ، وأمصال الحصانة وجراحة الأعصاب ، وزرع الأجنة ، وكشف اسرار الوراثة التي ستتحكم بإنسان المستقبل وغيرها قد استوجبت تجاوز ممنوعات قانونية وأخلاقية ودينية ، تمت في حماية المخابر التي لا يعلم ما يدور فيها إلا الله والراسخون في العلم . وقد رأينا مفعول ما يتسرب من أخبارها كيف يرج المجتمعات والحكومات والشركات المولة والسلط الدينية . فما هو موقفنا من الوسائل التي استعملت في البحوث ؟ وما هو موقفنا من نتائجها ؟ وفينا من يحرم « قبلة الحياة » ويحاول أن يطول لها قانون التجاهر بما ينافي الحياء .

ليست الأسئلة التي أوردنا اسئلة الحيرة أمام اتخاذ القرار . لأننا لا نشك في أن يكون تصورنا الثقافي قائما على قيم علمية وتقنية الى جانب تصوراتنا الدينية والعقلية كي تستقيم لدينا التعادلية التي تحفظ التوازن الثقافي لدى الدول المتقدمة . إنما هي اسئلة تضعنا على تخوم الصراع الذي ينتظرنا مع كل الفصائل الفكرية والتقليدية .

فهل لأجهزتنا الثقافية (بشرا وفضاءات وتقنية) أن تنهض بالعبء الثقافي المنشود (تصورا واستيعابا وتنفيذا) ؟

أظن أن الجواب يكمن في مقابلة صورتنا الثقافية الحالية (مفهومنا للثقافة ، نظرة المجتمع للمثقفين ، نسبة ميزانيتها من الميزانية العامة ، نظرة الأوساط

المالية إلى الثقافة ، مدى علاقة أطر المؤسسات الثقافية بالثقافة ، مدى تأثير الثقافة في فعاليات النهضة) بما أسلفنا من مفهومها لدى شعوب تستند سياستها الثقافية إلى « مبادىء ، وقيادة في اتجاهات معينة ، ومخططات للعمل ، وتكييف للانتاج ، واختيارات أساسية ، وتشكيل أطر متخصصة ، ومساعدة مالية تدريجية ومقسطة لتساعد على الاشعاع الثقافي اشعاعا منظما ومسيرا بطريقة منهجية »[6]

وهي مقابلة تبين أننا واحد من شعوب لا تصدق بفعالية الثقافة في الازدهار الشامل ، بل لا نعدم من يسخر منها ، ويحقرها إن كانت الغاية تحقير أصحابها . إن شعوبا تعامل الثقافة معاملة الترف لا تتورع - أيام التقشف وأحيانا أيام الرخاء - من ايقاف أية مجلة او صحيفة عن الصدور ، أو أن تقلص نشاط أية منظمة ثقافية قد تكون إقليمية . وأعجب من كل شيء إجماعهم على ذلك . لقد ترجم « لويس دوللو » موقفنا من الثقافة في كتابه « العلاقات الثقافية الدولية » بقوله « إن معظم الدول لا تزال تكتفي بعمل ثقافي يومي ، مستهدفة عدم الدلالة على عجز حيال طلبات الخارج ، أو لأنه ليس لدى هذه الدول وسائل التطور إلى المستوى الأعلى ... والخطر في هذه الحال ناجم عن الارتجال والانفعالية).[7]

فهل هي القطيعة أو الاهمال ؟

كلا . إنما يصنع الثقافة الكاتب والفنان والعالم . وقد أقصي هؤلاء عن مواطن الابداع والتنفيذ والمساهمة بالرأي لما أبدوه من آراء أو مواقف ، فوقع تصنيفهم سياسيا ، وسجل الخلاف خيانة وفي أحسن الحالات مناهضة للنظام . ونسبوا الى ولاءات مختلفة بينما الموقف الحضاري يقتضي أن ينظر إلى الحدث على أنه خلاف في الرأي ، ويتواصل الحوار إلا أن تعاملا امتد عقودا ، فاكتسب حصانة العادة . لا يمكن استئصاله بين عشية وضحاها ، في شعب اختار أهل الفكر فيه أن يزرعوا ثورة بدل أن يصنعوا ثوارا .

بذلك آل الأمر في الثقافة إلى ما آل اليه ، فطالبت الرسالة الرئاسية الى الأحزاب حول صياغة الميثاق توضيح تصوراتها الثقافية .

إن سبرًا للآراء ، ولقاءات قطاعية ، وإنشاء مجلس أعلى للآداب والفنون (لا أثر فيه للمقاولين الثقافيين ومشاكلهم) يمكن أن يساعد على تأسيس ثقافة عصرية - وطنية وخارجية ، ووضعها في مسارها الصحيح .

المراجع

1) بيير دوكاسيه «الفلسفات الكبرى» ترجمة جورج يونس ص 93
2) لويس دوللو «العلاقات الثقافية الدولية» ترجمة بهيج شعبان ص 5
3) ادوارد مورو سير «الفكر الفرنسي المعاصر» ترجمة عادل العوا ص 9
4) الخطة الشاملة للثقافة العربية المنظمة العربية ت ، ث ، ع ج I ص 96
5) فؤاد زكريا «الفكر العلمي» فصل سمات التفكير العلمي
6) لويس دوللو «العلاقات الثقافية الدولية» ترجمة بهيج شعبان ص : 49
7) لويس دوللو » » » » » » ص : 49